

حجایب المقدور فی اخبار تنیمور

تألیف
أحمد بن عمر بسراء

الناشر
مکتبة الثقافة الدینیة

الطبعة الاولى
1432هـ-2011
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بن عمر شاة ، أحمد بن محمد بن عبد الله ، 1389-1450
عجائب المقدور في أخبار تيمور / تأليف: أحمد بن عمر شاة
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ، 2011

380 ص ، 24 سم

تدمك : 7-547-341-977-978

1- التاريخ

2- المغول والنتار

ا- العنوان

ليوى: 2، 907

رقم الايداع: 2011/17100

بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم وهي حسبي ونعم الوكيل

الحمد لله الذى على منوال إرادته وتديره تنسج مقاطع الأمور، ومن ينبوع قضائه إلى لجج قدره تجرى تيار الأعاصر والدهور، أذاق بعض بنى آدم بأس بعض ليلوهم أيهم أحسن عملا وهو العزيز الغفور، وأرسل عليهم من القرن الثامن من الهجرة بحار فتن أقبلت كقطع من الليل المظلم لم يدر أحد ما هي فإذا هي تمور.

أحمد حمد من كان على شفا حفرة من نارها فأنقذه منها، وأشكره شكر من ورطه فيها عدله فألجته أيادى فضله عنها.

وأشهد أن لا إله إلا الله الحكيم العدل الذى يقتص للمظلوم من الظالم يوم الفضل، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى أرسله رحمة للعالمين وجعله رسول الله وخاتم النبيين، وأخبر ﷺ عن السر المصون ونبا بما كان فى الأزل وبما يكون إلى يوم يبعثون، واستعاذ من غلبة الدين وقهر الرجال، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال، صلى الله عليه صلاة تذكى المسك الأذفر فى صدور الكتب والتواريخ، وتدنى لقائلها فى دار الجزاء ثمرات الحسنات من أعلى الشماريخ، وعلى آله وأصحابه الذين أفاضوا سيول الفتح فى الأقاليم فعمروها وشيدوا أركان الإسلام، وأثروا الأرض بالإيمان،

وعمروها بالعدل والإحسان أكثر مما عمروها وسلم تسليماً غزيراً دائماً أبداً كثيراً.

أما بعد، ، فلما كان فى التاريخ عبرة لمن اعتبر وتنبه لمن افتر، وإعلام أن قاطن الدنيا على سفر، وإحضار لصورة من مضى وعبر، كيف قدر واقتدر، ونهى وأمر، وبنى وعمّر، وختل وختر، وغلب وقهر، وكسر وجبر، وجمع وادخر، وتكبرّ وفخر، وكيف عبس وبسر، وضحك واستبشر، وتقلب فى أوطاره من الطفولة إلى أن قلبته أيدي الغير واختطفته وهو آمن مما يكون بمخالب القضاء والقدر، فخلط بما صفا من عيشة الكدر، وتنغص حتى ذهب عنه ما حلا ومر.

إن فى ذلك لعبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن اذكر، وتبصرة لمن استبصر، وكان من أعجب القضايا، بل من أعظم البلايا الفتنة التى يحار فيها اللبيب، ويدهش فى دجى حندسها الفطن الأريب، ويسفه فيها الحكيم، ويذل فيها العزيز، ويهان الكريم، قصة تيمور رأس الفُسَّاق، الأعرج الدجال الذى أقام الفتنة شرقاً وغرباً على ساق، أقبلت اندنيا الدنية عليه فتولى وسعى فى الأرض، فأفسد فيها وأهلك وأهلك الحرث والنسل وتيمم حين عمته النجاسة صعيد الأرض، فغسل بسيف الطغيان كل أغر محجل، وتحققت نجاسته بهذا الغسل.

أردت أن أذكر منها ما رأيت، وأقص فى ذلك ما رويت، إن كانت إحدى الكبر وأم العبر، والداهية التى لا يرضى القضاء فى وصفها بذا القدر، والله أسأل إلهام الصدق وسلوك طريق الحق، إنه ولى الإجابة ومسدد سهم المرام إلى غرض الإصابة ودى حسبي ونعم الوكيل.

فصل فى ذكر نسبه وتدريج استيلائه على الممالك

اسمه تيمور بقاء مكسورة مثناة فوقًا وياء ساكنة مثناة تحتًا، وواو ساكنة بين ميم مضمومة وراء مهملة.. هذه طريقة إملائه.

وفى التصريف رثة بنائه، لكن كره الألفاظ الأعجمية إذا تداولها صولجان اللغة العربية خرطها فى الدوران على بناء أوزانها ودحرجها كيف شاء فى ميدان لسانها، فقالوا فى هذا تارة: تَمُور وأخرى تَمُرُّنْكَ، ولم يحر عليهم فى ذلك حرج ولا ضنك، وهو بالتركي الحديد ابن تُرغاي بن أبغاي. ومسقط رأس ذلك الغدار قرية خواجه إيلغار، وهى من أعمال الكش، فأبعدها الله من الحش، والكش مدينة من مدن ما وراء النهر عن سمرقند نحو من ثلاث عشر شهر.

قيل: رُوى ليلة وُلِدَ كان شيئًا شبيه الجذوة ترى طائر فى عنان الجو ثم سقط إلى الفضاء الدق، ثم انبث على الأرض وانتشر وتطاير منه مثل الجمر والشرر، وتراكم حتى ملأ البدو والحضر.

وقيل لما سقط إلى الأرض ذلك السقيط، كان كفاه مملوتين من الدم العييط، فسألوا عن أحواله الزواجر والقافة، وتفحصوا عن تأويل ذلك من الكهنة وأهل القيافة، فقال بعضهم: يكون شرطيًا، وقال بعض: ينشأ لصًا

حرامياً، وقال قوم: بل قصاًباً سفاكاً، وقال آخرون: بل يصير جلاذاً هتاكاً. وتضافرت هذه الأقوال إلى أن آل أمره إلى ما آل.

وكان هو وأبوه من الفدادين ومن طائفة أرساب لا عقل لهم ولا دين، وقيل كانا من الحشم الرحالة والأوباش البطالة، وكانت ما وراء النهر مأواهم، وتلك الضواحي مشتاهم، وقيل كان أبو إسكافاً فقير جداً، وكان هو شاباً حديداً جُلداً.

ولكنه لما كان به من القلة يتحرم، وبسبب تلك الأحرام يتضرر ويتضرم، ففى بعض الليالى سرق غنمة واحتملها فضربه الراعى فى كتفه بسهم فأبطلها، وثنى عليه بأخرى فى فخذه فأخطلها، فازداد كسراً على فقره ولوماً على سره ورغبة على الفساد، وحنقاً على العباد والبلاد.

وطلب له فى ذلك الأحزاب والنظراء، وعشى عن ذكر الرحمن فقيض له من الشياطين القرناء، مثل: عباس وحهان شاه وقمارى وسليمان شاه وإيدكو تيمود وجاكو وسيف الدين، نحو أربعين لا دنيا لهم ولا دين، وكان مع ضيق يده وقلة عدده وعدده، وضعف بدنه وحاله وعدم ماله ورجاله، يذكر لهم أنه طالب الملك ومورد ملوك الدنيا موارد الهلك، وهم فى ذاك يتناقلون عنه هذا النقل، وينسبون له إلى كثرة الحماقة وقلة العقل، ويدتونه منهم ويقبلون ليسخروا منه ويضحكوا عليه، إن المقادير إذا ساعدت ألحقت العاجز بالجازم، فشرع فيما يتصدده، والقضاء يرشده، والقدر ينشده:

لا يئسك من مجد تباعده فإن للمجد تدرجاً وترتبا
إن القناة التى شاهدت رفعتها تنمو فتنبت أنبوا فأنبوا

وكان فى بلد الكش شيخ يسمى شمس الدين الفاخورى، وهو معتقد تلك البلاد، وعليه لكل من قصد شيئاً من أمر الدين والدنيا الاعتماد، فذلك أن تيمور وهو فقير عاجز بين عز موهوم وذل ناجز، لم يكن له سوى ثوب قطن وأنه باعه واشترى بثمانه رأس ماعز، وقصد به الشيخ المشار إليه، وعوّل فيما قصده عليه، وقد ربط بطرف جبل عنق ذلك العناق، وربط عنق نفسه بالطرف الآخر من ذلك الوثاق، وجعل يتشحط على عصا من جريد، حتى دخل على ذلك الشيخ المفيد، وصادفه وهو والفقراء مشغولين بالذكر، مستغرقين فيما هم فيه من الوجد والفكر، فلا زال قائماً حتى أفاقوا من حالهم وسكتوا عن قالهم، فلما وقع نظر الشيخ عليه سارع إلى تقبيل يديه وأكب على رجليه، فتفكر الشيخ ساعة، ثم رفع رأسه إلى الجماعة، وقال: كان هذا الرجل بذل عرضه وعرضه، واستمدنا فى طلب ما لا يساوى عند الله تعالى حناح بعوضة. فنرى أن نمدّه ولا نحرّم ولا نرده، فأمدوه بالدعاء إسعافاً لما طلبه، فأشبهت قصته قضية ثعلبة، ورجع من عند الشيخ وخرج وعرج بعدما عرج إلى ما عرج.

وقيل إنه كان فى بعض تحرماته، فضّل الطريق صورة كما ضلها معنى وسيرة، وكاد يهلك عطشاً وجوعاً، وسار على ذلك أسبوعاً، فوقع فى أثناء ذلك على خيل السلطان، فتلّقه الجشارى باللطف والإحسان.

وكان تيمور ممن يعرف خصائص الخيل بسماتها، وتفرق بين هجانها وهجينها بمجرد النظر إلى هيأتها، فأطلع الجشارى على ذلك منه، وأخذ علم ذلك عنه، وزاد فيه رغبة، وطلب منه دوام الصحبة، وجهزه إلى السلطان مع أفراس طلبها منه، وأخبره بفضيلته وما شاهده عنه، فأنعم السلطان عليه،

ورُص به الجشّارى وردّه إليه، فلم ينشب الجشّارى أن مات فتولى تيمور وظيفته، ولا يزال يترقى عند السلطان حتى تزوج شقيقته، ثم إنه غاضبها فى بعض مكافحته ومقاله، فغيرته بما كان عليه من أول أمره وحاله، فسل السيف ونحاهما على أنها تفر من بين يديه، فلم تكثر به ولم تلتفت إليه، نضربها ضربة أزحق بها نفسها وأمسكها رمسها، ثم لم يسعه إلا الخروج والعصيان والتمرد والطغيان، إلى أن كان من أمره ما كان.

وكان السلطان اسمه حسين وهو من بيت الملك ونافذ الكلمتين، وتحت ملكه مدينة بلخ وهى من أقصى بلاد خراسان، ولكن كانت بحار أوامره جارية فى ممالك ما وراء النهر إلى أطراف تركستان.

وقبل كان أبوه أمير مائة عند السلطان المذكور وهو بالجلادة والشهامة بين أحزابه مشهور، ويمكن الجمع بين هذه الأقاويل باختلاف الزمان وتنقل تغير الأحوال والحدثان، والأصح أن أباه ترغى المذكور كان أحد أركان دولة السلطان.

ورأيت فى ذيل تاريخ فارسى يدعى المنتخب، وهو من بدء الدنيا إلى زمان تيمور، وهو شئ عجب نسباً يتصل منه تيمور إلى جنكيز خان من جهة النساء حبائى الشيطان.

ولما استولى تيمور على يما وراء النهر وفاق الأقران، تزوج بنات الملوك فرادوه فى ألقابه كوركان، وهى بلغة المغول والختن لكونه صاهر الملوك وصار له فى بيتهم حركة وسكن.

وكان للسلطان المذكور من الوزراء أربعة، عليهم مدار المضرة والمنفعة، هم أعابن الممالك وبرأيهم يقتدى المسالك، والترك لهم قبائل وشعب تكاد

توازي قبائل العرب، وكل واحد من هؤلاء الوزراء كان من قبيلة لسراج آرائه
فى بيوت تعميرها فتيلة طويلة، قبيلة أحدهم تسمى أرلات، وقبيلة الثانى
تدعى جلابر، وقبيلة الثالث يقال لها قاوجين، وقبيلة الرابع اسمها برلاس،
وكان تيمور ابن رابعهم فى الناس، ونشأ شاباً ليياً مصراعاً هماماً حازماً جلدًا
أديباً، وكان يصاحب نظراءه من أولاد للوزراء ويعاشر أحزابه من فتيان
الأمراء.

إلى أن قال لهم فى بعض الليالى وقد اجتمعوا فى مكان خالى،
وأخذت منهم العشرة والنشاط، وارتفعت أستار الأسرار وامتد للبسط بساط،
إن جدتى فلانة وكانت من ذوى العيافة والكهانة، رأت مناماً ما ذقت منه
أحلاماً، وعبرته بأنه يظهر لها من الأولاد والأحفاد، من يدوخ البلاد ويملك
العباد، ويكون صاحب القرآن وتذل له ملوك الزمان، وذلك هو أنا وقد قرب
الوقت ودنا، فعاهدونى أن تكونوا لى ظهراً وعضداً وجناحاً ويدا، وأن لا
تستحيلوا عنى أبداً فأجابوه وعضدوه إلى ما دعاهم إليه، وتقاسموا أن يكونوا
فى السراء والضراء معه لا عليه، ولم يزالوا يتجاذبون أطراف هذا الكلام، فى
كل مقام، ويتفاوضون فيض غدیر هذا الغدر من غير احتشام واكتتام حتى
آنس يرقه قاطن كل مصر وشام، وخاض فى حديثه كل قديم همجره من
خاص وعام.

وشعر به السلطان وعلم أن خلاقه فى دوح المملكة بان، فأراد أن يره
كیده فى نحره، ويريح الدنيا من شره، والعباد والبلاد من عاره وعمره، ويعمل
بموجب ما قيل:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فأخبره بذلك بعض الناصحين، فخرج وهو إلى حضيض العصيان سالم

فخرج .

ويمكن أنه فى بعض هذه الأوقات وأثناء هذه الحالات توجه إلى الشيخ شمس الدين المشار إليه واستمده كما ذكر فيما عول عليه، فإنه كان يقول: جميع ما نلت من السلطنة، وفتحته من مستغلفات الأمكنة، إنما كان بدعوة الشيخ شمس الدين الفاخورى، وهمة الشيخ زين الدين الخوافى، وما لقيت بركة إلا بالسيد بركة، وسيأتى ذكر زين الدين وبركة.

ثم قال تيمور: ما فتحت أبواب السعادة والدولة علىّ، ولا ضحك عروس فتوحات الدنيا إلىّ إلا من سهام سجستان، ومن حين أصابنى ذلك النقصان أنا فى ازدياد . .

إلى هذا الأوان والظاهر أن بدء أمره وخروجه فى تلك الفية، كان فيما بين الستين والسبعين والسبع مائة، وقال شيخى الإمام العالم الكامل المكمل الفاضل فريد الدهر وحيد العصر علامة الورى، أستاذ الدنيا علاء الدين شيخ المحققين والمدققين، قطب الزمان مرشد الدوران، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد البخارى نزيل دمشق، أدام الله تعالى أيام حياته وأمد الإسلام والمسلمين بميامن بركاته، فى شهور سنة ست وثلاثين وثمانمائة:

إن تيمور قتل السلطان حسين المذكور فى شعبان سنة إحدى وسبعين وسبع مائة، ومن ذاك الوقت استقل بالملك، وكانت وفاته فى شعبان سنة سبع وثمان ومائة على ما سيأتى، فمدة استيلائه متنقلاً ستة وثلاثون سنة، وذلك خارج عن مدة خروجه وتحرمه إلى حين استيلائه.

ولما خرج صار هو ورفقاؤه يتحرمون فى بلاد ما وراء النهر، ويعاملون الناس بالعدوان والقهر، فتحرك لدفعهم كل ظاعن وساكن، وضيقوا عليهم تلك المغانى والأماكن، فقطعوا جيحون وصغر منهم ذاك المكان، فاشتغلوا بالمحرم فى بلاد خراسان، خصوصاً فى نواحى سجستان، ولا تسأل عما أفسد فى مفاوز باورده وماخان.

فذهب بعض الليالى وقد أضر بهم السغب، واشتعل فيهم من الجوع اللهب، فدخل حائطاً من حوائط سجستان قد آوى إليه بعض رعاء الضأن، فاحتمل منها رأساً وأدبر، فشعر به الراعى وأبصر، فأتبعه للحين وضربه بسهمين، أصاب بأحدهما فخذه وبالأخر كتفه، فله دره ساعداً إذ أبطل بهذا الضرب الموزون نصفه، ثم أدركه واحتمله، وإلى سلطان هراة المسمى بملك حسين أوصله، فبعد ضربه أمر بصلبه، وكان للسلطان ابن رأيه غير متين، يدعى ملك غياث الدين، فشفع فيه واستوهمه من أبيه، فقال له أبوه: إنه لم يصدر عنك ما يدل على صلاحك ويسفر عن نجابتك وفلاحك، وهذا جعتاى حرامى مادة الفساد، لئن أبقي ليهلكن العباد والبلاد، فقال ابنه: وما عسى أن يصدر من نصف آدمى، وقد أصيب بالدواهى ورُمى، ولا شك أن أجله قد اقترب، فلا تكونن فى موته السبب.

فوهبه إياه فوكل به من داواه إلى أن اندمل جرحه وبرئ قسرحه، فكان فى خدمة ابن سلطان هراة من أعقل الخدم، وأضبط الكفاءة فتوقرت عنده حرمة وارتفعت درجته وسمعت كلمته.

فعصى من نواب السلطان نائبه المتولى على سجستان، فاستدعى تيمور أن يتوجه إليه، فأجابه إلى ذلك وعول عليه وأضاف إليه طائفة من الأعوان،

فوصل إلى سجستان وقبض على نائبيها المتماذي في العصيان، واستخلص أموال تلك البلاد وأخذ من أطاعه من الأجناد، وتلا آية العصيان بالجهنم، وارتحل بمن معه إلى ما وراء النهر، وقليل بل كان في خدمة ابن السلطان إلى أن فرغ أبوه الحباة، وانتقل واستقر ولده واستقل فعند ذلك هرب تيمور إلى ما وراء النهر، وقد قوى منه الرأس والظهر، وكان إذ ذاك قد اجتمع عليه رفاقؤه وانحاز إليه أصحابه المتحرمون وعشراؤه، فأرسل غياث الدين الطلب ورآهم وقصد أن يكفى المسلمين شرهم وعناهم، وهيئات فقد كان سبق العذل السيف، وضع اللبن في الصنف.



ذكر عبوره جيحون على فترة وما جرى من عبرات بهذه العبرة

فوصل تيمور وجماعته إلى جيحون، وكان إذ ذاك مثلهم طاغيًا، ولم يمكنهم التواني لأن الطلب كان شبيههم باغيًا، فقال تيمور لأصحابه: النجا النجا، ليتعلق كل منهم بعنان فرسه ومعرفته، وليلق نفسه في الماء وتواعدوا إلى مكان، وقال توجهوا من غير توان، فم لم يأت الموعد يُعلم أنه قد فقد، فتهافتوا هم وخيولهم في ذلك الماء العجَّاج، والتيار الزخار والأمواج، تهافت الفراش على السراج، ولم يعلم واحد منهم حال الآخر، ولا اطلع من تقدم منهم على أمر من تأخر، وكابدوا أحوال الموت، وشاهدوا أهوال الفوت، فنجوا ولم ينقص منهم واحد.

واجتمعوا إلى ذلك الموعد، وذلك بعد أن أمنت منهم البلاد، واطمأن في مسالكها كل رائج وغاد، فجعلوا يتجسسون الأحبار، ويتتبعون الآثار، ويحاربون الله ورسوله ويؤذون عباده ويقطعون سبيله، ولم يزل على ذلك يجرى ويمشى إلى أن وصل مدينة قرشى.

ذكر ما جرى له من خبطة

فى دخوله إلى قرشى وخلاصه من تلك الورطة

فقال يوماً لأصحابه وقد أضرب به الدهر وأضرابه، وأخصب منهم ربع الفساد وأعشب: إن بالقرب منا مدينة نخشب، مدينة أبيترباب النخشى رحمة الله عليه، مدينة مصونة مسورة مكنونة، لئن ظفرنا بها لتكونن لنا ظهراً ملاذاً وملجأً ومعاداً، وإن حاكمها موسى لو حصلناه وأخذنا ماله وقتلناه لتقوينا بما له من خيول وعُدّة، ولحصل لنا فرج بعد شدة، وأنا أعلم لها من عمر الماء درباً حين الدخول واسعاً رحباً، فشمروا ذيلهم وتركوا فى مكان خيلهم واستعلموا فى نيل مرادهم ليلهم، ودخلوا حبس المدينة، وقصدوا بيت الأمير، ورفعوا يدهم فصادفوا يدهم والحصير.

وكان الأمير فى البستان خارج البلد، فأخذوا ما وجدوا له من أسلحة وعُدَدٍ وركبوا خيله، وقتلوا من وجدوا من الأكابر غيلة، فاجتمع عليهم أهل البلد وأرسلوا إلى الأمير فأدركهم بالمدد، فتراكم عليهم البلاء باطنا وظاهراً، فلم يجدوا لهم سوى الإسلام ناصراً.

وقال له أصحابه: لقد ألقينا بأنفسنا إلى حقيقة الهلاك من هذا المجان، فقال: لا عليكم ففى مثل هذه المواطن يمتحن الرجل ويزان، فاجمعوا كيدهم ثم أتوا صفّاً واندفعوا نحو باب المدينة يداً واحدة زحفاً، حاطمين على العدو من غير توان ولا هدوء، فإنى أظن أنه لا يثبت لكم شىء ولا يقف أمامك

حتى ، فامتلأوا أمره ورفعوا الصوت وقصدوا الباب خائضين غِمار الموت ،
وهجموا إلى العساكر هجوم الليث ، واندفقوا ولا اندفاق الغيث ، ففتح لهم
عند فتح الباب لأمر يريده مسبب الأسباب .

فلم يلق أمامهم أحد على أحد ، ولا نفعه ما هى فيه من العدد والعدد ،
ثم انثنوا إلى مكانهم سالمين ، ولم يزالوا على ذلك عابثين عابثين ، واجتمع
عليهم أصحابهم وانحاز إليهم فى الفساد أضرابهم ، فصاروا نحواً من ثلاث
مائة ولمن يتحيز إليهم من أهل الشر فئة .

فأرسل السلطان إليهم عسكرياً غير مكترث بهم ، فكسروه واستولوا على
حصن من الحصون ، فجعلوه معقلاً لكل ما ادخروه ، قلت :

لا تحقرن شأن العدو وكيدَه ولربما صرع الأسود الثعلب

وقيل : إن البعوضة تدمى مقلة الأسد ، وقيل : فربما تموت بالبندق

الشاه .

ذكر من أسرف فى فتنة ذلك الجاف

واستعبده من أحرار ملوك الأطراف

وأرسل تيمور إلى ولاية بلخشان ، وكانت الولاية بها لأخوين وهما بها
مستقلان ، تلقا ذلك عن أبيهما ، وكان السلطان نزعها من أيديهم ثم أقرهما
فيها على أن يكونا من تحت أمره واسترهن أولادهما عنده ، فصارا أسيرى
قهره ، فلما راسلها تيمور على طاعته أجاباه ودخلا تحت كلمته .

ذكر نهوض المغول على السلطان وكيف تضعضعت منه الأركان

ثم إن المغول نهضت من جهة الشرق على السلطان حسين، فاستعد لهم وقطع جيحون ووقع الحرب من الجهتين، فانكسر السلطان فراسلهم أيضاً ذلك الجان واسم حاكمهم قمر الدين خان، فأجابوا مراده واقتفوا ما أَرادَه، وسلطوه على السلطان ليستخلص من يده بلاده، وواعدوه مصاهرتهم وأمدوه بمظاهرتهم ورجعوا إلى بلادهم، وقد سلموه زمام قيادهم، فقويت بذلك شوكته وسكنت القلوب هيئته، فلم يسع السلطان إلا بذل الجهد والإمكان في إطفاء نائرتِه وقطع دائرته، فجعله نصب عينيه وتوجه بنفسه إليه، بعسكر جرار كالبحر الزخار، حتى انتهى مكان يسمى قاغلغار، وهو صدفان بينهما مضيق، هي الجادة العظمى والطريق، يسير المارة في ذلك مقدار ساعة، وفي وسط الدرب باب إذا أغلق وأحمى فلا شيء مثله في المناعة، وحواليه جبال كل منها عرينه قد شمع وقدمه قد غاص ثبوتاً ورسخ، فصح أن يقال فيه أنف في السماء وإست في الماء، وأخذ العسكر فم ذلك الدربند من جهة سمرقند، وتيمور على الجانب الآخر وهي كالمضايق والمحاصر.



ذكر الحيلة التي صنعها

والخدعة التي ابتدعها

فقال تيمور لأصحابه: إنى أعرف هنا جادة خفية، مسالكها أبية، لا تطأها الخطأ، ولا يهتدى إليها القطا. فلهم نسرى ليلنا ونقود فى المسرى خيلنا، فنصحهم من ورائهم وهم آمنون، فإن أدركناهم ليلاً فنحن الفائزون، فأجابوه إلى ذلك، وشرعوا فى قطع تلك الوعور والمسالك،، وساروا ليلهم أجمع وبلغ الفجر المطلع، فأدركهم الصباح ولم يدركوا الجيش فضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتكد لهم العيش، ولم يمكنهم الرجوع، وأذنت الشمس بالطلوع، فوصلوا إلى العسكر وقد أخذ فى التحميل وعزم على الرحيل، فقال أصحابه: بئس رأى فعلنا، فى قبضة العدو حصلنا، وقد وقعنا فى الأشرار، وألقينا بأيدينا أنفسنا إلى الهلاك، فقال تيمور: لا ضرر توجهوا نحو العسكر، وانزلوا بمراى منهم عن خيلكم، واتركوها ترعى واقضوا من ورد النوم والراحة ما فاتكم فى ليلكم، فتراموا عن خيلهم كأنهم صرعى وتركوا خيولهم ترعى:

وإذا السعادة لاحظتك عيونها نم فالخاف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهى حبايل واقتد بها الجوزاء فهى عنان

فجعل العسكر يمر بهم، ويدخال أنهم من حزبهم، حتى إذا استراحوا ركبوا خيولهم وصاحوا، ووضعوا السيوف فى أعدائهم، راكبين أكتافهم من

ورائهم، فقتلوا قتلاً ذريعاً، وغادروهم جريحاً وصريعاً، وعم الخطب المدلهم، ولم يعلم أحد البلا كيف دهم، واتصل الخبر بالسلطان وقد خرج التلافى عن حيز الإمكان، فهرب إلى بلخ وقد كسى خلعة خلعة سلخ وأى سلخ، وشرع تيمور فى النهب والغارات والسلب، ثم ضبط الأثقال وجمع الأموال ولم رعاع الناس والمدارة وأطاعوه، وهم ما بين راض وكاره، فاستولى على ممالك ما وراء النهر، وتسلط على العباد بالغلبة والقهر، وأخذ فى ترتيب الجنود والعساكر، واستخلاص الحصون والداكر.

وكان نائب سمرقند وأحد الأركان، شخص يدعى على شير من جهة السلطان، وكتبه تيمور على أن تكون الممالك بينهما نصفين، ويكون معه على الملك حسين، فرضى على شير بذلك، رقاسمه الولايات والممالك، وتوجه إليه وتمثل بين يديه فزاد فى إكرامه وبالع فى احترامه.



ذكر توجهه إلى بلخشان واستنصره بمن فيها على يد السلطان

ثم إنه ترك على شير بعدما ركن إليه وقصد بلخشان، فاستقبله ملكاها وتمثلا بين يديه وأتحفاه بالهدايا والخدم، وأمداه بالجيش والحشم، فساروا وهما معه من بلخشان قاصدين بلخ لمحاصرة السلطان، فتحصن منهم فأحاطوا به من كل مكان، فأخرج أولادهما الذين كانوا عنده فى الرهان، فضرب أعناقهم بمرأى من أبويهم، ولم يرق لهم ولا من عليهم.

ثم إنه ضعف حاله وقل عنه خيله ورجاله، فنزل مستسلماً للقضاء والقدر، راضياً بما ذهب في قضاء الله مما حلا ومر، فقبض عليه تيمور وضبط الأموال، ثم رد أميرى بلخشان إليها مكرمين وتوجه إلى سمرقند ومعه السلطان حسين، وذلك في شعبان سنة أحد وسبعين بعد ما خلا من الهجرة سبع مائة سنين، ووصل إلى سمرقند واتخذها دار ملكه، وشرع في تمهيد قواعد الملك ونظمها في نظام سياسته وسلوكه، ثم إنه قتل السلطان وأقام من جهته شخصاً يدعى سبور غاتمش من درية جنكيز خان، وقبيلة جنكيز خان هم منفردون باسم الخان السلطان، لأنهم هم قريش الترك لا قدر أحد أن يتقدم عليهم، ولا تمكن أحد من انتزاع ذلك الشرف من أيديهم، ولو قدر أحد على ذلك لكان تيمور الذى استخلص الممالك وسلك المسالك، فرفع سبور غاتمش دفعاً المطاعن وقطعاً للسان كل سنان طاعن، وإنما لقب تيمور الكبير وإن كان فى أمره كل أمر منهم ومأمور. والخان فى فى أسره كالحمار فى الطين، وشبيهه الخلفاء بالنسبة فى هذا الزمان إلى السلاطين، واستمر بعلى شير نائبا فى سمرقند وكان يكرمه ويستشير فى أموره ويقدمه.

ذكر وثوب توقتاميش خان سلطان الدشت وتركستان

ثم إن توقتاميش خان سلطان الدشت والتتار، لما رأى ما جرى بين تيمور والسلطان، فار دم قلبه وغار، وذلك لعله النسب والجوار، وهى العسكر الجرار، والجيش الزخار، وتوجه إلى مصاف تيمور من جهة سفتاق

وأنزار، فخرج إليه تيمور من سمرقند، وتلاقيا بأطراف تركستان قريباً من نهر خجند وهو نهر سيحون وسمرقند بين نهريْن سمحون وجيحون، فقامت بين العسكرين سوق المحاربة، ولم ينفق بينهم فيها سوى معاملات المضاربة، ولا زالت رحا الحرب تدور إلى أن انطحن عسكر تيمور، فبينا عسكره قد قل وعقد جنود انحل، وإذا برجل يقل له السيد بركة قد قبل، فقال له تيمور وهو فى غاية الضرر: يا سيدى السيد جيشى انكسر، فقال له السيد: لا تخف، ثم نزل السيد عن فرسه ووقف وأخذ كفاً من الحصبا، وركب فرسه الشهاب، ونفخها فى وجه عدوهم المردى، وصرخ بقوله باغى فأجدى، فصرخ بها أيضاً تيمور تابعاً ذلك الشيخ النجدى وكان عباسى الصوت، فكأنه دعا الإبل الضما بحوت حوت، فعطفت عساكره عطفة البقر على أولادها، وأخذت فى المجالدة مع أضدادها وأندادها، ولم يبق فى عسكره من جدع ولا قارح إلا وهو يقول: ياغى فأجدى صالح.

ثم إنهم كروا كرة واحدة بهمة متعاقدة ونهمة متعاظمة، فتراجع جيش توقتاميش منهزمين وولوا على أعقابهم مدبرين، فوضع عسكر تيمور فيهم السيوف وسقوهم بهذا الفتوح كاسات الحتوف، وغنموا الأموال والمواشى، وأسروا أوساط اللروس والخواشى.

ثم رجع تيمور إلى سمرقند وقد فسط أمور ترستان وبلاد نهر خجند، وعظم لديه السيد بركة، وحكمه فى جميع ما استولى عليه وملكه، وهذا السيد اختلف القول فيه، فمن قائل إنه كان مغرباً بمصر حجاجاً، فذهب إلى سمرقند وتسيد بها وعلى قدره وتساماً، ومن قائل إنه كان من أهل المدينة الشريفة، ومنهم من يقول إنه من أهل مكة المنيفة، وعلى كل حال فإنه كان ن

أكبر الأعيان فى بلاد ما وراء النهر وخراسان، لا سيما وقد أمد تيمور بهذه النجدة، وتخلصه بهذه اللطيفة المصادفة القضاء والقدر من هذه الشدة، وقال له تيمور: تمن على واحتكم لى، فقال له: يا مولانا الأمير إن أوقاف الحرمين الشريفين فى الأقاليم كثيرة، ومن جملة ذلك اندحوا فى ممالك خراسان، وأنا وأولادى من جملة مستحقى ذلك الإحسان، وإذا أقيم أصل ذلك وخصمه وعلم قصمه وحصمه وضبطت أوقافه ومصارف ذلك وصرافه، ما كانت حصتى وحصّة أولادى أقل من هذه القضية فى هذا الوادى، فأقطعنى إياها فأقطعه إياها مع مضافاتها وأعمالها وقراها، وهى إلى الآن فى بنى أولاده وأسباطه وأحفاده.

ذكر على شير مع تيمور وما وقع بينهما من المخالفة والشرور

ثم إن تيمور وقع بينه وبين على شير مخالفة، وانحاز إلى كل منهما طائفة فاغتاله تيمور وختله، ثم قبض عليه وقتله، فصفت الممالك والولايات لتيمور بعض الصفا، وهروا إلى طاعته من الناس كل وجه ورأس كانا فى التابى وقفا.

ذكر ما جرى لزعار سمرقند والشاطار مع تيمور وكيف أحلهم دار البوار

وكان فى سمرقند طائفة من الزعار كثيرون، وهم أنواع فمنهم: مصارعون ومتافقون وملاكمون ومعالجون، وهم فيما بينهم فرقتان كالقيس واليمن، والعداولة والمقاتلة بينهم قائمة على مر الزمن، ولكل طائفة منهما روس وظهور وأعضاء وضروس، وكان تيمور مع أبيته تخافهم، لما كان يظهر له عاؤهم وخلافهم، فكان إذا قصد جانباً أقام به فى سمرقند نائباً، فإذا بعد عن المدينة خرج من تلك الجماعة طائفة فخلعوا النائب، أو خرجوا مع النائب وأظهروا المخالفة.

فما يرجع تمور إلا وقد انفرط نظامه وتخبطت أموره وتشوش مقامه، فاحتاج إلى تجديد وتمهيد وتخريب وتشديد، فيقتل ويعزل ويعطى ويحزل، ثم يتوجه لتمهيد ممالكه وتوطيد مسالكه فيعودون إلى عكرهم، ويثربون إلى ختلهم ومكرهم، وتكررت هذه الفضية نحواً من تسع مرار، فضاقت تيمور ذرعاً بالأشرار والزعار، فأعمل الحيلة فى اغتيالهم وكف آذاهم واستئصالهم، فصنع سوراً ودعى إليه الخلائق، كبيراً وصغيراً، وصنف الناس أصنافاً، وجعل كل ذى عمل إلى عامله مضافاً، وميز أولئك الزعار مع رؤسائهم على حدة وفعل معهم ما فعله أنوشروان بن كيقاد بالملاحدة، وأرصد له فى أحد الأطراف أنصاراً وقرر معهم أن كل من أرسله إليهم يولونه دماراً، ويكون إرساله إليهم على قتله شعاراً، ثم إنه جعل يدعو روس الناس ويستقيهم بيده

الكاس، ويخلع عليهم أفخر اللباس، وإذا انقضت النوبة من أولئك الزعار إلى أحد سقاه كاسه، وخلع عليه وأشار أن يتوجه به إلى نحو الرصد، فإذا وصل إليهم خلعوا عنه خلعتة ووثبوا عليه بل وثوب الحياة فهتكوه وسكبوا عسجد قلبه في بودقة الفنا، فسبكوه إلى أن أتى على آخرهم.

واستوفى بذلك قطع دابرهم، ومحى آثارهم وأطفأ نارهم، فصفت له المشارع، وخلا ملكه عن مجادب ومنازع، ولم يبق له فيما وراء النهر ممانع ولا مدافع.

فصل فى تفصيل ممالك سمرقند

وما بين نهري بلخشان وخجند

من ذلك سمرقند وولاياتها وهى سبعة تومان وأندكان وجهاتها، وهى تسعة تومنات، والتومان عبارة عما خرج عن عشرة آلاف مقاتل، وفيما وراء النهر من المدن المشهورة والأماكن المعتبرة المذكورة، سمرقند ومسورها قديماً على ما زعموا اثنا عشر فرسخاً، وكان ذلك على عهد السلطان جلال الدين قبل جنكيز خان، ورأيت حد مسورها من جهة الغرب قصبة بناها تيمور وسماها دمشق ومسافتها عن سمرقند نحو من نصف يوم، والناس إلى الآن يحفرون سمرقند العتيقة، ويخرجون دراهم وفلوساً صكتها بالخط الكوفى يسبكون الفلوس يخرج منها فضة.

ومن مدن ما وراء النهر: مرغينان، وهى كانت التخت قديماً، وبها كان أيلك خان، ومنها خرج الشيخ الجليل العلامة برهان الدين المرغينانى، صاحب الهداية رحمه الله تعالى، وخجند وهى على سمحون، وترمز على ساحل جيحون، ونخشب وهى قرشى المذكورة، والكش، وبخارا، وأندكان... وهى أماكن مشهورة وغير ذلك من ولايات بلخشان وممالك خوارزم وإقليم صغايان... إلى غير ذلك من الأطراف الواسعة، والأكناف الشاسعة، وفى عرفهم ما وراء جيحون إلى جهة الشرق توران، وما كان فى

هذا الطرف إلى جهة الغرب إيران، ولما اقتسم كيكائوس وأفراسياب البلاد كانت توران لأفراسياب وإيران لكيكائوس بن كيتباد، وعراق هي مغرب إيران.



ذكر ابتداء ما فعله من التسلط بالنهر

بعد استقصائه ممالك ما وراء النهر

ولما صفت له ممالك ما وراء النهر، وذلت لأوامره جوامع الدهر، شرع فى استخلاص البلاد واسترقاق العباد، وجعل ينسج بأنامل الحيل الأشرار والأوهاق ليصطاد بذلك ملوك الأقاليم وسلاطين الآفاق، فأول ما صاهر المغول وصافاهم وهادنهم وهاداهم، وتزوج بنت قمر الدين ملكهم، وصار آمناً من تبعهم ودركهم، وهم جيرانه من جهة الشرق، ولا تباين بينه وبينهم ولا فرق، إن العلة وهى الجنسية والمطاهرة والمجاورة حاصلة للجهتين، والملة وهى الترواة الجنكيز خانية ممشاة فى كلا الدولتين، فأمن شرهم وكفى كيدهم وضرهم.



ذكر تصميمه العزم

وقصده الأطراف وأولا ممالك خوارزم

فحين أمن مكرهم وسد بالمصالحة ثغرهم، صمم العزم على التوجه إلى ممالك خوارزم، وهي مجاورة غربًا بالشام ومباينوه بتمشية قواعد الإسلام، وتحتهم مدينة جرجان وهي من أعظم البلدان، وهذه المملكة ذات مدن عظيمة وولايات جسيمة، تحتها مجمع الفضلاء ومحط رجال العلماء، ومقر الظرفاء والشعراء، ومودر الأدباء والكبراء، ومعدن حال الاعتزال، وينبوع بحار أهل التحقيق من أرباب الهدى والضلال.

نعمها كثيرة وخيراتها غزيرة، ووجوه فضائلها مستنيرة، واسم سلطانها حسين صوفى، وهو فى الاعتقادات الباطلة عوفى، ومدن ما وراء النهر وضع بعضها قريب من بعض، لأنها كلها مبنية باللبن والآجر على الأرض، وأهل خوارزم كأهل سمرقند فى اللطافة، وأفضل من أهل سمرقند فى الحشمة والظرافة، يتعانون المشاعرة والأدب، ولهم فى فنون الفضل والمحاسن أشياء عجب، خصوصاً فى معرفة الموسيقى والأغام، ويشترك فى الخاص منهم والعالم، ومما هو مشهور عنهم أن الطفل فى المهد منهم، إذا بكى أو قال آه فإن ذلك يكون شعبة دوكاه، فلما وصل تيمور إلى خوارزم كان حسين صوفى غائباً عنها، فنهب حوالها وما وصلت يده إليه منها ولم يقدر عليها، فلم يكثر بها ولا التفت إليها، ثم لم أطراف حاشيته وعاد إلى مملكته.

ذكر عوده ثانياً إلى خوارزم

ثم إنه شد حزام الحزم وكر ثانياً إلى خوارزم، باستعداد تام وجيش طام، وكان سلطانها أيضاً غائباً، وأقام لجميلة بكرها خاطباً فحاصرها وصابرها وضاجرها وشدد على أعناق مسالكها التلايب، وكاد أن يتشبث بأذيالها منه المخاليب، فخرج إليه رجل من أعيانها، وكان تاجراً وله قدم صدق عند سلطانها، حاصراً يقال له حسن سوريح، والتمس أن يرفع عنهم ذلك الأمر المريع، وأن يبذل له ما طلب في مقابلة ما يريد من أسير وسلب، فطلب منه حمل مائتي بغل فضة ترفع إلى خزائنه نضة، فلم يزل يراجعه ويلطفه ويمانه حتى صالحه على ربع سؤاله، وقام المصالح بذلك من ماله وصلب حاله، ووزن له ذلك في الحال، وأخذ تيمور في الترحال، وكف عن الأذى شياطين جنده، وعزم على التوجه من سمرقند.



ذكر مراسلته ملك غياث الدين سلطان هراة

الذي خلاصه من الصלב وراد فيه أباه

ثم إنه راسل سلطان هراة ملك غياث الدين، الذي كان مغيبه عملاً بقوله: كتب الله على كل نفس خبيثة، وذلب منه الدخول في رتبة الطاعة،

وحمل الخدم والتقدم إليه بحسب الاستطاعة، وإلا قصد زياره وبلغه دماره، فأرسل ملك غياث الدين يقول صحبة الرسول: أما كنت خادماً لى وأحسنت إليك، وأسبلت ذيل إحسانى ونعمتى عليك، فختلت وقتلت وفتكت وفللت وفتلت وفعلت فعلتك التى فعلت، وذلك بعد أن نجيتك من الضرب والصلب، فإن لم تكن إنساناً يعرف الإحسان فكن كالكلب، فعبّر جيحون وتوجه إليه فلم يكن لغياث قوة الوقوف بين يديه، فأرسل إلى حشمه وسكان قراه فاجتمعوا هم ومواشيهم حول هراة وحفر خندقاً حول البساتين محيطاً بالرعاى وضعفة المساكين، وحضر نفسه فى القلعة، وحسب أن يكون له بذلك منعة، وذلك لركاكة رأيه أولاً وآخرأ، وجمود قريحته وقلة عقله وانعكاس كره ودولته. قلت:

من لم يصادف سعدة تقديره يخطفه فى تدبيره تدميره

فلم يكثرث تيمور له بقتال وحصار، ولكن أحاطت به العساكر دائراً ما دار، ومكث تيمور فى الأمن والدعة، وعدوه فى الضيق بعد السعة، واضطربت الروس والخواشى، ومارت الأنعام والمواشى، وغص البلد بالزحام، وهلك الخواص والعوام، وأضناهم الوصب، وأنضاهم السغب، وعلاهم الصراخ والصخب، فأرسل إليه السلطان يطلب منه الأمان، وعلم أنه اختنق بسببه، وأنه أعاده أولاً فبلى به، فذكره سابقة العرفان، وما أسداه إليه من إحسان، وطلب منه تأكيد الأمان بالإيمان.

فحلف له تيمور أنه يحفظ له الذمام القديم، وأن لا يراق له دم ولا يرق له أديم، فخرج إليه ودخل عليه وتمثل بين يديه، فدخل تيمور إلى المدينة وصعد إلى قلعتها الحصينة، وصحبته السلطان، وقد أحاطت به جنود هراة

والأعوان، فأشار واحد من أصحاب هراة على السلطان أن يقتل
تيمور ويجعل نفسه فداه، وقال له ما معناه أن أفدى المسلمين بنفسى ومالى
وأقتل هذا الأعرج ولا أبالى، فلم يجه إلى إشارته واستسلم لقضاء الله تعالى
وإرادته، وقال إن لله تعالى تصرفاً فى عباده، ولا بد أن ينفذ فيهم سهم
مراده، ولا مفر من القضاء، ولا محيد عن ما قدر الله تعالى وقضى:

وإذا أتاك من الأمور مقدر . وفررت منه ونحوه تتوجه

وهذا سر لا بد من ظهوره، فلا تبحث عن حقيقة أموره، فمن غالب
القضاء غلب، ومن ناهب الزمان سلب، ومن قاوى تيار المقدور غرق، ومن
استلذ بالغفلة فى مشارب اللهو شرق، وذكر فى ذلك الوقت مقالة أبيه له،
واطلع على حقيقته، ولكن السهم خرج، فما أمكن رده إلى فوقته.



ذكر اجتماع ذلك الجافى بالشيخ زين الدين الخوافى

وكان فى بعض قدماته خرسان سمع أن فى قصبته خواف رجلاً قد
أمنحه الله تعالى الألفاف، عالماً عاملاً كبيراً فاضلاً ذا كرامات ظاهرة وولايات
باهرة، وكلمات زاهرة ومقامات ظاهرة، ومكاشفات صادقة، ومعاملات مع
الله تعالى بالصدق ناطقة، يدعى الشيخ زين الدين أبى بكر لطائر اجتهداه فى
حاضرة القدس أعلا وكر، فقصد تيمور رويته وتوجه إليه وجماعته، فقالوا

للشيخ: إن تيمور قادمًا عليكم وواصل إليك يقصد رؤيتك ويرجو بركتك، فلم يفه الشيخ بلفظة ولا رفع لذلك لحظه، فوصل تيمور إليه ونزل عن فرسه ودخل عليه والشيخ مشغول بحاله على عادته جالس في فكره على سجاده، فلما انتهى إليه قام الشيخ فاحدودب تيمور منكبًا على رجليه فوضع الشيخ على ظهرى يديه.

قال تيمور: لولا أن الشيخ رفع يديه عن ظهرى بسرعة لحلقته أنرض، ولقد تصور أن السماء وقعت على الأرض، وأنا بينما رضضت أشد رض، ثم إنه جلس بين يدي ذلك المنتخب على ركبتى الأدب، وقال له بالملاطفة فى المحاوره على سبيل الاستفهام لا المناظرة: يا سيدى الشيخ لم لا تأمرون ملوككم بالعدل والإنصاف، وأن لا يميلوا إلى الجور والاعتساف، فقال له الشيخ: أمرناهم وتقدمنا بذلك إليهم فلم يأتمروا فسلطناك عليهم، فخرج من فوره من عند الشيخ وقد قامت منه الحدة وقال: ملكت الدنيا ورب الكعبة، وهذا الشيخ هو الموعود بذكره.

ثم إن تيمور قبض على ملك هراة واحتاط على ما ملكت يدها وضبط ولاياتها جانبًا جانبًا، وقدر لكل جانب نائبًا وتوجه إلى سمرقند قافلاً بما أمكنه، وحبس السلطان فى المدينة وأوصد عليه بابها، ووكل بحفظه أصحابها وأضاف إليهم أسدة الحفاظ الزبانية الشداد الغلاظ، وذلك لحلقه أن لا يريق دمه، وأن يحفظ له ذممه، فلم يرق له دمًا، ولكنه قتله فى الحبس جوعًا وضما.

ذكر عوده إلى خراسان وتخريبه ولايات سجستان

ثم عاد إلى خراسان وقد عزم على الانتقام من سجستان، فخرج إليه أهلها طالبين الصلح والصلاح، فأجابهم إلى ذلك على أن يمدوه بالسلاح، وأخرجوا إليه ما عندهم من عُدّة ورجوا بذلك الفرج من تلك الشدة، فحلفهم وكتب عليهم قسامات بالغة أن مدينتهم غدت من السلاح فارغة، فلما تحقق ذلك منهم وضع السيف فيهم، فأضاف بهم جنود المنايا عن بكرة أبيهم، ثم خرب المدينة فلم يبق بها شجر ولا مدر، ومحاها فلم يبق لها عين ولا أثر، ورحل عنها وليس بها داع ولا مجيب، وما فعل ذلك بهم إلا لأنه أولا منهم أصيب.

وذكر لى الشيخ الفقيه زين الدين عبد اللطيف بن محمد بن أبى الفتح الكرمانى الحنفى، نزيل دمشق بمدرسة الجقمقية فى سنة ثلاث وثلاثين وثمان مائة، أن الذين تخلصوا من القتل من أهل سجستان بهزيمة أو عتمة أو بنوع لطيفة من الله تعالى المنان، لما تراجعوا إليها بعد رجوع تيمور عنها، أرادوا أن يجمعون بها فأصلوا يوم الجمعة وما اهتمدوا إليه حتى أرسلوا إلى كرمان من دلهم عليه.

ذكر قصد ذلك الغدار ممالك سبروار وانقيادها إليه وقدم واليها إليه

ثم لما أثار سجستان ما أثار، قصد بعساكره مدينة سبروار، وكان واليها يدعى حسن الجورى مستقلاً بالإمارة، وهو رافضى فما أمكنه إلا الإطاعة، واستقبله من الهدايا والخدم بما استطاعه، فأقره على ولايته وزاد فى رعايته. وكان من عادة تيمور وفكره أنه كان فى أول أمره إذا نزل بأحد مستضيفاً استنبه وحفظ اسمه ونسبه، وقال له: إذا بلغك أنى استوليت وعلى الممالك استقلت، قاتنى بعلامة كذا فإن أكافئك إذاً، فلما انتشر ذكره وشاع أمره وفشى فى الدنيا خيره وخبره، هرعت الناس بالعلامم إليه، ووفدت من كل فج عميق عليه، وكان ينزل كل أحد منزلته ويحله مرتبته.



ذكر ما جرى لذلك الداغرى سبروار مع الشريف محمد رأس طائفة الداغ

وكان فى مدينة سبروار رجل شريف من الشطار، يدعى السيد محمد السريذال، ومعه من الرجال كلهم دغار، يسمون السريذالية، يعنى الشطار،

وكان هذا السيد رجلاً مشهوراً بالمآثر والفضائل مذكوراً، فقال تيمور: على به ما جئت إلا بسببه، وقد كنت متشوقاً إليه ومتشوقاً بعلم ما لديه، فدعوه له فدخل عليه فقام إليه، واعتنقه وقابله ببشرة منطلقة وأكرمه وأدناه، وقال فى جملة فحواه: يا سيدى السيد قل لى كيف أستخلص ممالك خراسان ونحوها، فإنى أحوزها أدانيها وأقاصيها، وماذا أفعل حتى يتم لى هذا الأمر، وأرتقى هذا المسلك الصعب الوعر.

فقال له السيد: يا مولانا الأمير: أنا رجل فقير وقير، ومن آل الرسول من أين أنا وهذا الفضول، وإنى وإن قيل لى شريف رجل عاجز ضعيف لا طاقة لى بموارد الهلك، ومن أنا حتى أتشاور لمصالح الملك، ومن داخل الملوك أو خارجهم أو عارضهم فى أمورهم أو مازجهم، كان كالعائم فى مجمع البحرين، وكالجاثم فى متطع الكسبين وخارج عن لغته لحان وشتان بين المابون والطحان، فقال له: لا بد أن تدلنى على هذه الطريقة، وتخبرنى عن مجاز إلى هذه الحقيقة، ولولا أنى تفرست فىك ذلك، وتكهنت أن برأيك نقتدى الممالك، ولولا أنك أهل لهذا المعرفة، ما فهت بينت شفة، ولا استغنيت عن استغناء التفه عن الرفه، فإن فراساتى أياسية وقضايى كلها قياسية، فقال ذلك المشير: أيها الأمير أو تسمع فى هذا مقاتلى وتبع إشارتى، فقال: ما استشرتك إلا لأتبعك ولا جاريتك إلا لأمشى معك، فقال: إن أردت أن يصفوا لك المشرب وتنال الممالك من غير أن تتعب فعليك بخواخة على ابن المؤيد الطوسى قطب، فلك هذه الممالك، ومركز دائرة هذا المسالك، فإن أقبل عليك بظاهره لم يكن بباطنه إلا معك، وإن ولى عنك بوجهه فلن يفيدك غيره ولا ينفعك.

فكن على استجلاب خاطره وحضوره إليك أبلغ جاهد، فإنه رجل صلب وظاهر، وباطنه واحد، فإن طاعة الناس منوطة بطاعته، وأفعال الكل مربوطة بإشارته فما فعل فعلوا، فإن حط خطوا وإن رحل رحلوا، فكان هذا الرجل أعنى خواجة على المذكور رجلاً شيعياً موالياً علياً، يضرب السكة باسم الاثنى عشر إماماً، ويخطب بأسمائهم وكان شهماً هماماً، ثم قال السيد: يا أمير ادع خواجة على فإن لبي دعوتك وحضر حضرتك، فلا تترك من أنواع الاحترام والتوقير والإكرام والتكبير شيئاً إلا وأوصله إياه، فإنه يحفظ لك ذلك ويرعاه، وأنزله منزلة الملوك العظام، فى التعظيم والتوقير واحترام، ولا تدع معه شيئاً مما يليق بحشمتك، فإن ذلك كله عائد إلى حرمتك وعصمتك.

ثم خرج السيد من عند تيمور، وجهاز قاصده إلى الخواجة المذكور، يقول: لو أنه قد مهد له الأمور، فإن جاءه قاصده فلا يتوقف عن الطاعة، ولا يقعد عن التوجه إليه ولا ساعة، ويكون منشرح البال آمناً سطواته فى الحال والمال، فاستعد خواجة على لقدم الوارد وورود القاصد، ومياً اخدمات والتقاعد والحمولات وضرب باسمه واسم متولاه الدرهم والدينار، وخطب باسمهما فى جوامع الأمصار، وقعد لأمره منجزاً وأقام للطلب مستوفراً، وإذا بقاصد تيمور جاءه منه بكتاب فيه من ألطف كلام وألين خطاب، يستدعيه مع انشرح الصدر، وتوفير التوقير وتكثير البر، فنهض من ساعته ملبياً بلسان طاعته، ولم يلبث غير مسافة الطريق، وقدم بأمل فسيح وعهد وثيق، فلما أخبروه بوفوده جهز لاستقباله أساورة جنوده وسر سروراً شديداً، وكأنه استأنف ملكاً جديداً، فلما وصل قدم هدايا فاخرة وتحفاً

متكاثرة، وظرائف ملوكية، وذخائن كسروية، فعظمه تعظيماً بالغاً، وأولاه
إنعاماً شائعاً، وأسبل على قامته رجائه من خلع إعزازه وإكرامه ذيلاً سائغاً،
واستمر به على ولايته وزاد في بره وكرامته .

فلم يبق في خراسان أمير مدينة ولا نائب قلعة مكيّة ولا من يشار إليه
إلا وقصد تيمور وأقبل عليه، فمن أكابرهم أمير محمد حاكم باورد وأمير
حاكم سرخس، وانتشرت هيئته في الآفاق وبلغت سطوته ماريدران وكيلان
وبلاد الري والعراق، وامتأّن منه القلوب والأسماع، وخافه القريب والبعيد،
وعلى خصوص شاه شجاع، وكل هذا في مدة قصيرة وأيام قلائل يسيرة،
نحواً من سنتين بعد قتله السلطان حسين .

ذكر مراسلة ذلك الشجاع

سلطان عراق العجم أبا الفوارس شاه شجاع

ولما صفت له بلاد خراسان وأذعن لطاعته كل قاص ودان، راسل شاه
شجاع سلطان شيراز وعرق العجم، يطلب منه الطاعة والانقياد وإرسال
الأموال والخدم، ومن جملة كتابه وفحوى خطابه أن الله تعالى سلطني عليكم
وعلى ظلمة الحكام والجائرين من ملوك الأنام، ورفسني على من نوانى،
ونصرني على من خالفني، وقد رأيت وسمعت، فإن أجبت وأطعت فبها
ونعمت، وإلا فاعلم أن قد قدمي ثلاث أشياء: الخراب والقحط والربا، وأتم

كل ذلك عائد عليك ومنسوب إليك، فلم يسع شاه شجاع إلا مهادنته ومهادته
ومصاهرته ومصافاته، وزوج ابنته بابن تيمور، ولم يتم ذلك السرور لحدوث
السرور، فانقبضت تلك المباشطة بواسطة إفساد الواسطة وتثريب الخطابة
وتخريب الماشطة. قلت بديهاً مضمناً:

إذا انتخببت لأمر عر واسطة

فاحذر دهاه وكن منه على وجل

فاعلم بأن طباع الأنس قد جبلت

من الجفاء ومن مكر ومن دخل

فلا تثق منهم يوماً بواسطة

واشعر بنفسك فيه غير متكل

فإنما رجل الدنيا وواحد

من لا يعول في الدنيا على رجل

بد عنان الكلام في هذا المقام يخرجنا عن المرام، ولكن تمت رياض
المحبة زاهرة، وأرباض المودة عامرة، وقفول الراسة والصداقة بين الطرفين
سائرة.

واستمروا على ذلك من غير نزاع، إلى أن توفي شاه شجاع، وكان هذا
شاه شجاع رجلاً عالماً فاضلاً، يقرر الكشف تقريراً شافياً كاملاً، وله شعر
رائق وأدب فائق. فمن شعره العربي على ما قيل:

إلا أن عهدي في الغرام يطول
 وأسباب صبرى لا تزال تزول
 أصون هواها كلها در شارف
 ولكنما بي قد يتم تحول
 ومن لم يدق صرف الصبابة في الصبت
 علمت يقيناً أنه لجهول
 ومن شعره الفارسي:

أى بكام عاشقان حسنت جميل
 كى كسريتم ديكري برتو بدليل
 كر زيادت غافلم عيشم حرام
 ور رجورت دم زخم خونم سبيل
 هر كسى تدبير كارى من كند

ما رها كرديم با نعم الوكيل

وهو شاه شجاع بن محمد بن مظفر، وأبوه كان من أفراد الناس ومن أهل البر، يسكن ضواحي يرب وأبرقوة ذا بأس شديد، يخافه القريب والبعيد ويرجوه، وكان قد نبغ بين يزد وشيراز حرامى من العرب آل خفاجة، سد على سالكى الطريقة حقيقة المجاز، يدعى حمالوك، أفقر الغنى وأباد الصعلوك، لا يبالى بالرجال، قلت أو كثرت، ولا يكثرث بكواكب النبال إذا الكواكب على رأسه انتشرت، فأباد طائفة من البلاد وأهلك الحرث والنسل،

والله لا يحب الفساد، فكمن له ابن شجاع فى بعض وهد أو بقاع، ثم قابله مواجهة وكافحه مشافهة، ونازله فصرعه وقطع رأسه وانتزعه، فقصد برأسه السلطان، فقدمه على سائر الأعوان، وأقطعه أماكن عدة، وقربه وجعله عدة لكل شدة، وكان له عدة أولاد، وأقارب وأحفاد، كل منهم رئيس مطاع، فمن أولاده شاه مظفر، وشاه محمود، وشاه شجاع... فصار كل منهم ذا كلمة نافذة ويد مطيعة آخذة، ولم يكن للسلطان ولد يبقى وراءه فى أمور الملك أو ينقب، فلما أقبل عليهم رائد المنية أجابه وولى مدبراً ولم يعقب، وكان إذ ذاك قد ثبتت أوتاد محمد بن مظفر فتقدم فى السلطنة ومن سواه تأخر.

فصار فى ممالك عراق العجم الملك المطاع، واستقل من غير تشاف ولا نزاع، وتصرف فى الممالك كيف يشاء، ورداه الله خلعه، قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء، ومات فى حياته ولده شاه مظفر المشهور، وخلف ولده شاه منصور، ثم جرى بين شاه شجاع وبين أبيه من النزاع والشروع ما لا خير فيه، وقبض على أبيه وقهره وفجعه بكرميتيه وأعدمه بصره، وتمكن من السلطنة واستقر، وكان به مرض جوع بقر، بحيث إنه كان لا يقدر على الصوم لا فى سفر ولا فى الحضر، فكان كثيراً ما يدعو الله الغفور أن لا يجمع بينه وبين نيمور، فلما أدركه الأجل وطوى فراش الموت منه بساط الأمل، أحضر ما له من الأقارب والأولاد وقسم عليهم الممالك والبلاد، فولى ابنه لسلبه زين العابدين شيراز، وهى كرسى الملك ومقصد الوافدين، وأقطع أخاه السلطان أحمد ولايات كرمان، وأعطى ابن أخيه شاه يحيى يزد، وابن أخيه شاه منصور أصفهان، وأسند وصيته بذلك إلى تيمور، وخلد ذلك

فى رق منشور، وأشهد على ذلك من حضر مجمعة فكان كمن سلم الريح
 لأبى زوبيعة، ولما دبج الموت ثوب عمر شاه شجاع، انتشرت بين أقاربه شقق
 الشقاق والنزاع، فقصد شاه منصور زين العابدين، وقبض عليه واستولى على
 شيراز وفجعه بكرميتيه وخالف عمه ونقض حبل هده، وفعل مع أبيه ما فعله
 أبوه بجده، وحبل هذه القضية ممدود واشتغال بنقضه وإبرامه يخرج عن
 المقصود، فامتعض تيمور وامتعض، وتجرع الغصص، وارتھص ولكن ارتقب
 فى ذلك إنهاز الفرص.

ذكر توجه تيمور مرة ثالثة إلى خوارزم بالعساكر العابثة العايثة

ثم إن تيمور جدد الحزم، وصمم العزم على التوجه إلى خوارزم،
 وتوجه إلى تلك البلاد من خراسان على طريق استرآباد، وكان سلطانها أيضاً
 غائباً، فأراد أن يولى عليهم من جهته نائباً، فخرج إليه حسن المذكور وصلحه
 واشترى منه الشرور والمقابحة، وقال له: يا مولانا الأمير كلنا عندك أسير،
 ولكن سلطاننا غائب، وإذا أقيم علينا من جهتك نائب، ثم رجع إلينا السلطان
 فلا بد أن يقع بينهما شنان، وإذا كان الأمر كذا فربما يصل إليه منه، إذاً
 فيكون ذلك سبب تأكيد العداوة، ويزداد بينكما الجفا والقساوة، فيفيض
 حنقك على المسلمين، ويقع فساد والله لا يحب المفسدين.

وهب أن حسين صوفى صار نائبك فكل الخلق يجب عليه أن يراعى خدمتك وجانبك، ورأيك أعلا واتباع مرسومك أولا، فسمع تيمور كلامه وقبل قوله وفوض للرحيل خيامه.

وكان لحسن المذكور ابن غير فالح، له العمل غير صالح، فكأنه فتك بحظيصة من حظاي السلطان، وذاع ذلك فى المكان، وفاع ذفره فى أنف الزمان، فلم يتقيد بذلك لفعل القبيح حسن، وقال: إن لى على السلطان متنا وأى من، حيث حميت بلده من كل ظلوم كفار، وبذلت فى ذلك مالى ووجاهتى ثلاث مرار، فلا بد أن يقابل هذه المصالحة بالعفو عن جريمة ولدى والمسامحة.

فلما آب السلطان من سفره واطلع على حقيقة الأمر وخبره، قبض على حسن وولده وقتلهما وألقاهما بين يدى أسد قهره فأكلهما، وخرب ونقل إلى خزائنه شعارهما ودثارهما، ثم لم ينشب حسين صوفى أن توفى، وولى بعده ولده يوسف صوفى.

وكان تيمور قبل ذلك صاهرهم وناصرهم على مخالفتهم وظاهرهم، وزوج ابنا له يدعى جهان كبير عقيلة منهم، ذات قدر كبير وأصل خطير ووجه مستير، أحسن من شیرين وأظرف من ولادة، وكونها من بنات الملوك تدعى خانزادة، فولدت له محمد سلطان، فكان فى نجابته وإقباله ساطع البرهان، فلما شاهد تيمور فى شمائله مخايل السعادة، وقد فاق فى النجابة أولاده وأحفاده، أقبل دون الكل عليه وعهد مع وجود أعمامه إليه، لكن عاند الدهر ذلك الظلوم فتوفى قبله فى آق شهر من بلاد الروم، وسيأتى ذكر ذلك.

ذكر توجه ذلك الباقعة إلى خوارزم مرة رابعة

فلما سمع تيمور ما جرى على حسن من الشرور، تخفف وشد الأزم،
ووجه ركاب الغضب إلى خوارزم، وأخذها وقتل سلطانها، وهدم أركانها
وخرّب بنينها، وولى على ما بقى منها نائباً من عنده، ونقل جميع ما أمكنه
نقله منها إلى ممالك سمرقند، وتاريخ خراب خوارزم عذاب، كما أن تاريخ
خراب دمشق خراب.

ذكر ما كان ذلك الجان

راسل به شاه ولي إلى أمير ممالك مازندران

ثم إنه لما كان توجه إلى خراسان، راسل شاه ولي أمير ممالك مازندران،
وكاتب الأمراء المستقلين بذلك المكان، فمنهم إسكندر الجلالى وأرشيوند
وإبراهيم القمى واستدعاهم إلى حضرته، كما هو جارى عادته، فأجابه
بالضرورة إبراهيم وأرشيوند وإسكندر، وتأبى عليه شاه ولي ذلك الغضنفر،
فلم يلتفت إلى خطابه وخشن له فى جوابه.

ذكر مراسلة شاه ولي سلاطين العراق وما وقع فى ذلك من الشقاق وعدم الاتفاق

ثم أرسل شاه ولي شاه شجاع سلطان عراق العجم والكرمان، والى السلطان أحمد بن الشيخ أويس متولى عراق العرب وأذربيجان يخبرهما بورود خطابه وصدور جوابه، ثم قال: أنا ثغركما وإن انتظم أمرى انتظم أمركما، وإن نزل بى منه بائقة فإنها بمالككما لاحقة، فإن ساعدتاني بمدد كفتيكما هذا النكد وإلا فتصيران كما قيل:

من حلقت لحيه تجار له فليسكب الماء على لحيته

فأما شاه شجاع فأطرح قوله ورماء، وهادن تيمور كما ذكر وهاداه. وأما السلطان أحمد فأجاب بجواب مهمل وقال: هذا الأشل الأعرج الجفتاى، ما عساه أن يفعل ومن أين، ومن أين الأعرج الجفتاى أن يطأ العراقين، وإن بيته وبين هذه البلاد مخرط القتاد، ولكن بين مكان ومكان فلا يحل العراق كخراسان، ولئن عقدت على التوجه إلى ديارنا نيته، لتحلن به منيته، ولترحلن عنه أمنيته، فإننا قوم لنا بأس وشدة والعدة، وعدة الدولة والنجدة، ولنا يصلح التشامخ والتأبى، حتى كأنه قال فينا المتنبي: نحن قوم ملحن فى زى ناس فوق طير لها شخوص الجمال.

فلما علم ذلك منهم شاه ولي وأيقن أن كلا منهما عن شجوه خلى، فقال: أما أنا فوالله لا وافقته بعزم صادق ونفس مطمئنة، فلتن ظفرت به

لأندرن بكما الأمصار، ولأجعلنكما عبرة لأولى الأبصار، وإن ظفر بى فلا على ما يصل إليكما، فلينزeln القضاء الطام والبلاء العام عليكما، ثم استعد للقاءه، واستسلم لقضاء وقدر الله تعالى وقضائه، وملا تراءى الجماعان، واتصلت المرافقة بالضرب والطعان، ثبت شاه ولى ساعة، لما نابه من شره وهره، ثم ولى الدبر لما لاحظته ما رأى من كرة وفرة، وتبع السنة فى الفرار مما لا يطاق، وتوجه إلى الرى إن ما أمكنه التوجه إلى العراق، وكان بها أمير مستقل يدعى محمد جوکار، متصرفاً بحكومته فى تلك القرى والأمصار، ومع ذلك فإنه دارى تيمور وراعى منه وراعى منه بعض الأمور، وخاف سطوته وبأسه، فقتل شاه ولى وأرسل إلى تيمور رأسه.



ذكر ما جرى لأبى بكر الشاسبانى من الوقايا مع ذلك الجانى

وكان فى بعض ولايات مازندران رجل يسمى أبا بكر، من قرية تدعى شابان، وكان فى الحروب كالأسد الغضوب، وكان قد أباد وأبار الجمل الفير من عساكر التتار، إذا انتهى فى المجال لا تثبت له الرجال، وإذا أوضع العمامة أقام فيهم القيامة، ولا زال يكمن بين الروابى والجبال، ويجندل الجنود والأبطال، حتى صارت تضرب به الأمثال، وترعد منه الفرائض ولو فى طيف الخيال، فكان القائل منهم يقول لمركوبه، إذا علق عليه أو سقاه، فتأخر عن الماء أو جفل من المخلاة، كأن أبا بكر الشاسبانى فى الماء أو بين العليق تراه.

وقيل لم يتضرر عسكر تيمور فى مدة استيلائه مع كثرة حروبه ومصافاته وإبلائه، إلا من ثلاثة أنفار، أضروا به وبعساكره غاية الإضرار، وأوردوا كثيراً منهم موارد النار، أمدهم أبو بكر الشاسبانى، وثانيهم سيدى الكردى، وثالثهم أمة التركمانى.

فأما أبو بكر هذا فذكروا أنه فى بعض مضايق مازندران تغلب عليه الجغتای من كل مكان وسدوا عليه وجه المخلص وشدوا حبل المقتنص، فأنجأوه إلى حرف مقابلة جرف، مقدار ثمانية أذرع ما بين الحرف إلى الحرف، كان قعده فى جب النقر أو واد فى قعر السعير، فنزل أبو بكر عن جواده المضمر، وطفروا وطمر من أحد الحرفين إلى الآخر، بما عليه من السلاح والمغفر، ولم ينل منه ضرا ونجاء، كما نجا تأبط شراً، ثم اتصل بحاشيته وأبادهم، ونقل إلى طاحون الفناء، منهم من استكمل رئاسهم وحصادهم، ثم ما أدرى أمر إلى ماذا آل، وكيف تقلبت به الأحوال.

وأما سيدى على الكردى كان أمير فى بلاد الكرد، مع طائفة من الجبل الجرد والرجال غير مرد، فى جبال عاصية وأماكن وعرة متقاصية، فكان يخرج هو وجماعته ومن شملته طاعته، ويترك على فم المضايق من فيه واثق، ثم يشن على عساكر تيمور الغارات، ويدرك فيهم للمسلمين الثارات، ويقتطع من حواشيهم وما يمكنه من مواشيهم، ثم يرجع إلى أوكاره بما قضى من أوطاره، ولم يزل على ذلك البيات فى حياة تيمور، وبعد أن مات إلى أن أدركته الوفاة ففات.

وأما أمة التركمانى فإنه كان من تراكمة قراباغ، وله ابنان قد وضع كل منهم على قلب تيمور أى داغ، وكانت الحروب والنزال بينهم وبين أميران شاه

وعساكر الجغتای لا تزال، وأفنوا من جماعتهم عدداً لا يحصى وجانباً فات
الاستقصاء، إلى أن غدر واحد من المتسعين إليهم، فطلب عرتهم ودل عسكر
أميران شاه عليهم، فبيتوهم ليلاً وأراقوه من دمهم سيلاً، فاستشهد الثلاثة في
سبيل الله رحمهم الله . قلت :

وأصعب فتنة تسميت الأعداء وأنكى منه تخديل الموالي
وقيل :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند

وقيل آخر :

إذا كان هذا بالأقارب فعله

فماذا الذى أبقيتم للأبعد

ذكر توجه تيمور إلى عراق العجم وخوض شاه منصور غمار ذلك البحر الخضم

ولما توفى شاه شجاع ووقع بين أهله كما مر نزاع، واستقر أمير العراق
العجمى على شاه منصور، وخلصت ممالك مازندران وولايتها لتيمور، وكان
شاه شجاع قد أوصى إلى تيمور بولده زين العابدين كما ذكر، ووكل أمره

إليه، وجد تيمور على شاه منصور طريقاً بما فعله من ابن عمه زين العابدين، فاحتج بذلك ومشى عليه، فاستمد شاه منصور أقاربه، فكلهم صار محاربه، وغاد مجاذبه ومجانبه، وأقام كل منهم بحفظ جانبه، فتهياً لملاقاته وحده بنحو ألفى فارس كاملى العدة، بعد أن حصن المدينة وحوطها بالأهمية المكيئة، ورتب خيلها ورجلها وحرص على التصبر والتربص أهلها، فقال له أكابر أعيانها والرؤوس من سكانها: كأن بك فى المقتحم، وسداء الحرب قد التحم، وقد منعناه من الوصول إلينا ودافعناه عن الهجوم علينا، وربما جندلنا له رجالا أو أبطلنا من عساكره أبطالا، ثم بماذا تصنع أنت بألفى راكب مع هذا الغمام المتراكم المتراكن، وبما يحل عقدك أو يفل جندك، فلا ترى لنفسك فى الهيجا إلا طلب الخلاص والنجاء، وتركنا لحمًا على وضم، بعد أن زلت بنا معهم القدم، ولا ينفعنا بعد تأكيد العداوة الندم، ولا يجبر منا إذ ذاك هذ الكسر إلا بالقتل والنهب والأسر.

فوضع يده على دبوسه شاه منصور وقال: هذا الألف فى الكاف السادس من أم من يفر من تيمور، أما أنا فأقاتل وجندى، فإن خدلى جندى قاتلت وحدى وبذلت فى ذلك جدى وجهدى، وعانيت عليه وكدى وكدى، فإن نصرت نلت قصدى، وإن قتلت فلا على ممن بقى بعدى، وكأنى أنا كنت الحاضر والخاطر فى خاطر الشاعر حين قال:

إذا هم الفتى بين عينيه عزمة ونكب

عن ذكر العواقب جانباً

وقيل أن شاه منصور فرق رجاله على قلاع، وأراد بذلك حفظ مدنه فضاع فى ضيعة، ثم جمع رؤساء شيراز وأجنادها وأفلاذ أكبادها وأولادها،

وقال : إن هذا عدو ثقيل وهو إما كان خارجياً فهو فى بلادنا دخيل ، فالرأى
أنى لا أنحصر معه فى مكان ، ولا أقاتله بضراب أو طعان ، بل أنتقل فى
الجوانب وأتسلط أنا ورعايائى عليه من كل جانب ، فنصفع أكتافهم ونقطع
أطرافهم ونواضبه بالنهار ونراقبه بالليل ، ونعد له ما استطعنا من قوة ومن
رباط الخيل ، وكلما وجدنا منه غرة كسرنا منه القفا والغرة ، فتارة ننطحه
وأخرى نرمحه ، وكرة نخرجه ومرة بجرحه ، ونسلبه الهجوع ونمنعه الرجوع ،
فنشد على المضايق ، ونسد عليه الطرق والطرائق ، غير أن القصد منكم يا
أحرار ، ويا غمور القفار والنور النفار ، أن تحتفظوا بضبط الأسرار ، ولا تغفلوا
عنها آناء الليل وأطراف النهار ، فإننى ما دمت بعيداً عنكم ولا يدنوا أحد منهم
منكم ، وإن حاصروكم ففيكم كفاية ، واستود عليكم الله وهو نعم الوقاية
وغاية ما تكونون فى هذه البوسا مقدار ما واعد الله تعالى بنبيه موسى والله
هذا الرأى ما كان أمته ووجه هذا الفضل ما كان أحسنه ، ثم خرج ذاهباً
وقصد جاتباً .



ذكر دقيقة قصدت فجلت ونقضت

ما أبرمه شاه منصور من عقد حين حلت

فبينما هو عند باب المدينة جائز ، نظرتة سعادة من مشومات العجائز ،
فبدرته بالملأمة وأذته بالكلام ، ونادت بلسان الأعجام ، انظروا إلى هذا تركش
بحرام ، رعى أموالنا وتحكم فى دمانا وفارقتنا أحوم ما نحن إليه فى مخاليب
أعدائنا ، جعل الله حمل السلاح عليه حرام ، ولا أنجح له قصداً ، ولا أسعف

له قوامًا، فقدحت زناده وجرحت فؤاده، وتأججت نيران غضبه وأحرق رأس بدبره شواظ لهبه، وثارت نفسه الأبية وأخذته حمية الجاهلية، حتى ذهب لب ذلك الرجل الحازم وغلط فأمسى، وهى لغلطه ملازم، فثنى عنان عزمه، وكر أسنان أزمه، وأقسم لا يبرح عن المقاومة، ولا يرجع فى مجلس قضاء الحرب عن ملازمة المصارمة، ويجعل ذلك دأبه صباحًا ومساء وعشاء إلى أن يعطى الله النصر لمن يشاء.

ثم قابل ورتب أبطاله وقاتل وكان فى عسكر شاه منصور أمير خراسانى مباطن لتيemor، يدعى محمد بن زين الدين من الفجرة المعتدين، وجل العساكر كان معه، فسار إلى تيمور وأكثر الجند تبعه، فلم يبق منهم إلا دون الألف، فلم يفِر واحد منهم من الزحف، فثبت شاه منصور بعد أن تضععت منه الأمور، فلم تزل نيران الهيجاء تنطتح وزناد الحرب تورى أن تنقدح، وشرار السهام تتطاير وثمار رؤوس بمناجل السيوف تقطف فستائر، حتى أقبل جيش الليل وشمر للهزيمة جند النهار الذيل، فتراجع كل منهم إلى وكره، وأعمل شاه منصور فكره فى مكره.

ذكر ما نقل عن شاه منصور مما أوقع بعسكر تيمور من الحرب والويل تحت جناح الليل

فعمد إلى فرس جفول من بين الخيول أجمع من دهر رمح وأرمح من عصر جمع، وأنابها عسكر الدعو وقد أخذ الليل فى الهدوء، ثم ربط فى

ذنبها قدرًا من النحاس ملفوفة فى قطعة لباس، وشدها شدة أحكم وثاقها
وصوب رأسها نحو العدو، وساقها فجالت الفرس فى العسكر واضطربت
واختببت الناس فى واحتربت، وأنشبت جوادل السيوف فى بطون تلك
النحور واسنرت، حتى كأن الساعة اقتربت أو السماء عليهم بالشهب
انقلبت، والأرض بهم اهتزت وربت، وشاه منصور واقف حوالىهم كالباذى
المطل عليهم يقتل من شد ويبيد من فد، وصار كما قيل:

الليل داج والكباش تتططح نطاح جد ما أراها تصططح
فقائم وقاعد ومنبطح فمد من نجا برأسه فقد ربح

قيل إنهم اقتتلوا فيما بينهم حتى فنى نحو من عشرة آلاف نفس، فلما
قوض الليل خيامه ورفع النهار أعلامه علموا البلاء كيف دهاهم، وليث الليل
لم يكن فارقا ذراهم، ثم إن شاه منصور أصبح وقد قل ناصره وقل مؤازره،
فانتخب من جامعته فيه نحوًا من خمس مائة فجعل يصول لهم صولة الأسد،
ويخوض بهم غمارات الموت فلا يلوى أمامهم أحد على أحد، ويميل بكرة
وينة وينتشب ويصيح أنا شاه منصور الصابر المحتسب، فتراهم بين يديهم
حمرًا مستفزة فرت من قسورة، وقصد مكائنًا فيه تيمور، فهرب منه ودخل
بين النساء واختفى وغطى بكساء فبادرته وقلن نحن حرم، وأشرن إلى طائفة
من العسكر المصطدم وقلن هناك بغيتك، وبين أولئك طلبتك، فألوى راجعًا
وتركهن مخادعًا، وقصد حيث أشرن إليه، وقد أحاطت به جموع العساكر
وحلقت عليه حتى قلت بديها:

وما حز أعناق الرجال سوى النساء وأى بلاء ما لهن به إبلا
وكم نار شر أحرقت كبدا الورى ولم يك إلا مكرهن لها أصلا

وكان على فرس فاقت خصالا ، فضرب فيهم بسيفين يميناً وشمالاً ،
وفرسه السبوح كانت تقاتل معه وتصدّم وتكدم من يقرب بها فى تلك
المعمعة ، وكأنه كان ينشد معنى ما قلته فى مرآة الأدب :

يد الله قوتنى فغلت يداهم

وهذى يدى فيهم بسيفين تضرب

فصار كلما قصد رغلة من تلك الرغال افترقت أمامه يميناً وشمالاً ، وإن
كانوا كلهم من أهل الشمال ولكن :

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فأعظم ما يجنى عليه اجتهاده

حتى أنهكته الحرب وكلت يداه من الطعن والضرب ، وجندلت وقتلت
خيله ورجاله ، وتغيرت من كل جهة أحواله ، وسدت طرائقه وشدت مضائقه ،
وخرست شقاشقه وضرست فيالقه ، وخمدت بوارقه وهمدت بيدقه ، ودحض
نجاحه وقص جناحه ، وخف مراحه وأثقله جراحه ، وسكت همهمته ،
وسكنت غمغمته ، فانفرد عن أصحابه وقد أذاه الجراح وأودا به ، ولم يبق معه
فى ذلك البحر سوى نفرين أحدهما يدعى توكل والآخر مهتر فخر فخر
وأخذه الدهش ، وغلب عليه العطش ، ونشف الرهج والوهج كبده ، وطلب
شربة ماء فما وجده ، ولو وجد ما يبيل به ريقه ، لما قدر أحد أن يقطع عليه
طريقه .

فراى الأولى طرح نفسه بين القتلى ، فأطرح بينهم نفسه ورمى أهسته
وسيب فرسه ، وقتل توكل ونجى فخر الدين وبه من الجراح نحواً من سبعين ،

وعمر بعد ذلك حتى بلغ تسعين، وكان من الأبطال والمصارعين، فتراجع جيش تيمور تضام وانتعش، بعد أن بلغ موارد الحمام، وذلك بعد أن قتل منهم ما لا يعد، وأفنى ليلاً ونهاراً ما لا يحصى ولا يحد، وطفق تيمور فى القلق والضجر والأرق، لفقد شاه منصور وعدم الوقوف على حال ذلك الأسد الهصور، أهو فى الأحياء فيخشى فكره، أم انتقل إلى دار الفناء فيؤمن مكره، فأمر بتفتيش الجرحى والتنقيب عنه بين القتلى والطرحى، إلى أن كادت الشمس توارى بالحجاب، ويغمد حسام الضياء من الظلام فى قراب، فعندما ضم دينار البضا تحت ذيل ملات الضياء، ومد نساج القدرة فى جو الفضاء سداً، والليل إذا سجد ونشر على سطح هذا الأديم المينا دراهم كواكبه الزهرا، واتسع الظلام وانشق، عشر واحد من الجفتاى على شاه منصور وبه زدنى رمق، فتشبث شاه منصور بذلك الإنسان، بل الشيطان الخوان وناداه الأمان الأمان، أنا شاه منصور فاكم عنى هذه الأمور، وخذ منى هذه الجواهر وخافت فى قضيتى ولا تجاهر، ولا رأيتنى ولا عرفتك ولا عرفتنى. وإن أخفيت مكانى ونقلتنى إلى إخوانى وأعوانى كنت كمن أعتنقى بعدما اشترانى، ومن بعد ما أماتنى أحيانى، وكنت ترى مكافأتى وتغنم مصافأتى، ثم أخرج له من الجواهر ما يكفيه وذريته إلى اليوم الآخر.

فكان فى قضيته واستكشاف غصته كالمستغيث بعمر، وعند كربته فما غنم أن وثب على شاه منصور وحز رأسه وأتى به إلى تيمور، وحكى له ما جرى بتخبير المشتري فما صدقه، ولا فى كلامه استوثقه، بل أخرج من قبائله وشعوبه من عرفه به فعرفوه بشامة كانت على وجهه علامة، فلما علم أنه شاه منصور بعينه تميز له صدق ذلك الرجل من ميينه فتحنق وتحيف وتحرق لقتل

شاه منصور، وتأسف ثم سأل ذلك الرجل عن محتده وعن والده وولده وعن قبيلته ومخدومه ومرييه، فلما استوضح أخباره وعلم نخاره وجاره أرسل مرسومه إلى متولى تلك الدار، فقتل أهله وأولاده وأعوانه وأنصاره وآله وأحفاده وأختانه وأطهاره وقتله شر قتلة ومحق آثاره، وصدر مخدومه وقتله وخرب دياره.

ثم أرسل إلى أطراف ممالكه مطالعات يذكر فيها صور تلك المصافات والمواقعات، وما شاهد من وثبات شاه منصور، ووثباته وغشيانه غمرات الحرب وضرباته، وما حصل في وقعة القتال على حديد في صف مرسلاته، وكيف زلزلت العاديات وولولت النساء في فتح حجراته بعبارات هائلة وكلمات في ميادين الفصاحة والبلاغة جائلة، وهذه المطالعات تقرأ في المحافل والمشاهد، وتلى في المصادر والموارد، ويستمد منها ذوى الآداب ويعتنى بحفظها الكتاب والصبيان في الكتاب.

رأيت في أخبار بعض المعتنين أنه في شوال سنة خمس وتسعين ورد رسول صاحب سلطان يؤذن سلطان مصر بالإعلام أن تيمور قتل شاه منصور، وأنه تولى على شيراز وسائر البلاد، وأرسل رأسه إلى حاكم بغداد وأمره بالطاعة هو ومن معه من الجماعة، وأرسل إليه خلعة، ويضرب السكة باسمه، ويخطب بذلك في الجمعة، فلبس خلعته وأتم ممثلاً، كلما به أمر وأنه علق رأس شاه منصور بعد ما طافوا به على سور وما أظن لذلك صحة.

ذكر ما وقع من الأمور والشرور بعد واقعة شاه منصور

فاستولى تيمور على ممالك فارس وأرض عراق العجم، وراسل من دانه من أقارب شاه شجاع وملوك الأمم، واستمال الخواطر وأمن البادية والحاضر، ورحل فحاز مدينة شیراز وضبط أحوالها، وقرر فيها خيلها ورجالها، ونادى بالأمان القاصي والداني، فلبت دعوته ملوك البلاد، ولم يسعهم معه إلا الطاعة والانقياد، فوصل إليه سلطان أحمد من كرمان، وشاه يحيى من يزد، وعصى سلطان أبو إسحق في شیرجان، فأنعم وخلع عليمن أطاع وانقاد، ولم يتعرض لمن أظهر العناد، ولم يشق بينه وبين مخالفه العصي، وأكرم من أطاعه ليوقع بذلك من عصي، وطرح على شیراز وسائر البلدان بالأمان، وأقام في كل بلدة من جهته نائباً، وتوجه إلى أصبهان وأحسن إلى زين العابدين الذي هو وصيته من أبيه، ووظف له من الخوامك والإدرات ما يكفيه وذويه.

ذكر ما صنع الزمان عند حلوله بأصبهان

لما وصل إلى أصبهان وكانت من أكثر البلدان مملوءة بالأفاضل، محشوة بالأمائل، وبها شخص من علماء الإسلام والسادة الأعلام، قد بلغ في الغاية وفي العمل والاجتهاد النهاية، أفعاله مبرورة وكراماته مشهورة، ومآثره مذكورة، ومحاسنه على جبهة الأيام مسطورة، وهو معتقد المسلمين وكان اسمه همام الدين، وكان أهل أصبهان يذكرون له تيمور ويحذرون من شره أى محذور، فيقول لهم: ما دمت فيكم حياً ما يضركم كيده شيئاً، فإن وفانى الأجل فكونوا من أذاه على وجل، اتفق أنه فى وصول تيمور توفى الشيخ المذكور، فأصبحت أصبهان ظلماً بعضها فوق بعض، بعد أن كانت نوراً على نور، فتضاعفت حسرتهم وترادفت كسرتهم، فوقعوا فى الحيرة، وصاروا كابى هريرة رضى الله عنه حيث يقول:

للناس هم ولى فى اليوم همام فقد الجراب وفقد الشيخ عثمان

فخرجوا إليه وصالحوه على حمل أموال، فأرسل إليهم لاستخلاصها الرجال، فوزعوها على الجهات وفرضوا على الحرات والمحلات، وتفرق فيهم المستخلصون فكانوا يعيشون فيهم ويعبثون، واستطالوا عليهم فجعلوهم كالخدم وتوصلوا إلى أن مدوا أيديهم إلى الحرم، فانتكوا منهم أى نكاية، فرفع أهل أصبهان إلى رئيسهم الشكاية، وكثرت منهم الشكاية وهم قوم لهم حمية، وقالوا: الموت على هذه الحالة خير من الحياة على هذه الاستطالة، فقال لهم رئيسهم: إذا أقبل المسا فإنى أضرب الطبل لكن تحت كسا، فإذا سمعتم الطبل

قد دق والقول قد حق، فليقبض كل منكم على نزيله، وليحتكم منكم بسمين
رأيه وهزيله، فاتفقوا على هذا الرأي المعكوس والأمر المنكوس فى الطالع
المنكوس، وقصروا أيدى أنظارهم السقيمة عن قصارى هذه الأمور الوخيمة.

ولما تعرى العنان من ثوب نوره، وأبدل الجق قافه بسموره، ومضى
هزيع من الليل ضرب الرئيس الطبل، فحل بالمستخلصين الويل فقتلوه،
وكنوا نحواً من ستة آلاف، فأصبحوا وقد غرسوا فى دوح العصيان أعضاء
الخلاف، فأثمر ذلك لهم الجور بعد الكور، وبان لهم البوار فأصبحوا نوراً
بهذا البوار، وملا سل الفجر حسامه وحسر النهار لثامه، بلغ تيمور ذلك
الصنع الميشوم، فنفع الشيطان منه الخيشوم، فرتحل من فوره واستل غضب
غضبه ونثل جعبه جوره، وتوجه إلى المدينة مزجراً مصراعاً متكالباً متأسداً
معتمراً، فوصل إليها وانحنى عليها وأمر بالدماء أن تسفك، وبالحرمان أن
تهتك، وبالأرواح أن تسلب وبالأموال أن تنهب، وبالعمرات أن تخرب
وبالزروع أن تحرق، وبالضرع أن تحرق، وبالأطفال أن تطرح، وبالأجساد أن
تجرخ، وبالأعراض أن تثلم، وبالذمم أن تسلم ولا تسلم، وأن يطوى بساط
الرحمة. وينثر مسح النعمة، فلا يرحم كبير لكبره، ولا صغير لصغره، ولا
يوقر عالم لعلمه، ولا ذو أدب لفضله ولا شريف لنسبه ولا منيف لحسبه،
ولا غريب لغربته ولا قريب لقربته وقربته، ولا مسلم لإسلامه، ولا ذمى
لذممه، ولا ضعيف لضعفه، ولا جاهل لركاكة رأيه وسخفه.

وبالجمل لا يبقى أحد على أحد ممن هو داخل البلد، وأما أهل المدينة
فعلموا أنه ليس فى الجدال محال، فضلاً عن ضراب وقتال، وأن قبول
الأعذار محال، وأنه ليس ينجيهم من ريب المتنون مال ولا بنون، ولا يقبل

منهم فى تلك الساعة ولا ينفعهم عدل ولا شفاعة، فتحصنوا بحصون الاصطبار، وتدرعوا دروع الاعتبار، وتلقوا سهام القضايا من خنايا المنايا بمحن تسليم المراد، واستقبلوا ضربا القدر من سيوف الحتوف بأعناق التفويض والانقياد، فأطلق فى ميادين رقابهم عنان الحسام البتار، وجعل مقارهم بطون الذئاب والضباع وحواصل الأطيّار، ولا زالت عواصف الفناء تحتهم من أشجار الوجود حتى حصروا عدد القتلى فكان نحو ست مرار من أمة يونس ابن متى .

فاستعاث بعض البصر أبو أحد من رؤوس الأمراء، وقال: التقية فى البقية والرعاية فى الرعية، فقال ذلك الأمير للسائل الفقير: اجمعوا بعض الأطفال عند بعض القلل فلعل أن يلبن منه عند رؤيتهم شيئا ما عسى ولعل، فاعتتلوا ما به أمر ووضعوا شردمة من الأطفال منه على الممر، ثم ركب ذلك الأمير مع تيمور وأخذ به على تلك الأطفال وممر، ثم قال: انظر يا مخدوم نظر الراحم إلى المرحوم، فقال: ما هؤلاء الطرحا الأشقياء، فقال: أطفال معصومون وأمة مرحومون مرجومون استحر القتل بوالديهم، وحل غضب مولانا الأمير على أكابرهم وذويهم، وهم يسترحمون بعواطفك الملوكية وصغرهم يستشفعون إليك بذلهم وضعفهم ويتمهم وفقرهم وكسرهم أن ترحم ذلهم، وتبقى على من بقى لهم، فلم يجز جوابا ولا أبدى خطابا، ثم مال بعنان فرسه عليهم ولم يظهر أنه بصر بهم ولا نظر إليهم ومالت معه تلك الجنود والعساكر حتى أتى منهم على الأول والآخر، فجعلهم طمعة للسنابك، ودقة تحت أقدام أولئك .

ثم جمع الأموال وأوسق الأحمال، وما راجعاً إلى سمرقند بما قد نال،

وكم بين هذه الأمور والقضايا من دواء والبلايا وأخبار وتجهيز سرايا وتولية وعزل وإبراز هزل، صورة حد رجد فى صورة هزل، وبناء وهد وصد ورد، وتعمير جراب وتخريب عامر، وتهاون وتعاز وانحراف وتوار، ومباحثات مع علماء ومناظرات مع كبراء، ورفع وضعا ووضع شرفا، وتمهيد قواعد وتقريب أبعاد، وتبعيد أدانى وبروز مراسيم إلى قاص ودانى... إلى ذلك مما لا يكاد يحصر ولا يضبط بديوان ولا دفتر.



ذكر ضبطه طرف المغل وجتا وما صدر منه فى تلك الأماكن وأقا

ولما وصل إلى سمرقند أرسل ابن ابنه محمد سلطان بن جهاتكيز مع سيف الدين الأمير إلى أقصى ما تبلغ إليه مملكته وتنفذ فيه كلمته، وهو وراء سيحون شرقاً سواء أخذ فى بحور ممالك المغل والجتا والخطا نحو من مسيرة شهر عن ممالك ما وراء النهر، فمهدوا هنالك الوهد والبقاع، وبنوا فيه جملة من القلاع وأقصاها بلد يسمى أشبارة، فبنوا فيه حصناً حصيناً معداً للذهب والغارة وخطب من بنات الملوك ملكة أخرى، وكانت الأولى تدعى الملكة الكبرى والأخرى الملكة الصغرى، فأجابهم ملكهم إلى ما سأل، وأناب إلى ما طلبه منه بالإطاعة وبذل، وارتجت منه أقاليم المغل والخطا، وذلك لما بلغهم مما فتك فى كل طرف وبتك من بلاد الإسلام وسطا، وكان السفير فى ذلك ابنه

وسيف الدين المذكور وهو الذى استخلص أموال دمشق ونزل فى دار ابن شكور، وأمر تيمور ببناء مدينة على طرف سيحون من ذلك الجانب، وعقد إليها جسراً على متن النهر بالمراسى والراكب وسماها شاه رخية وهى فى أماكن رخية.

وسبب تسمية ابنه شاه رخ بهذا الاسم ووسم هذه المدينة بهذا الوسم أنه كان على عادته مشغولاً بلعب الشطرنج مع بعض حاشيته، وقد أمر ببناء هذه المدينة على هذا السحل، وكانت إحدى حظاياها معه وهى حامل فرمى على خصمه شاه رخا، فذبل خصمه لذلك وارتخى، وبينما خصمه قد وقع فى الأبن فإذا بمبشرين جاءا مخبرين أحدهما ببشرة بولد والآخر يبشره بتمام عمارة البلد، فسامهما بهذين الاسمين ووسمهما بهذين الوسمين.



ذكر عود ذلك الأفعوان إلى ممالك فارس وخراسان وفتكه بملوك عراق العجم واستصفائه تلك الولايات والأمم

ثم عاد بعد تمهيد البلاد وتوطيد قواعد ممالك تركستان إلى بلاد خراسان، فاستقبله الملوك والأمراء والسلاطين والوزراء، وسارعوا إليه من كل جانب، ما بين راجل وراكب، ملبين دعوتهم حاذرين سطوته مغتتمين خدمته، وسلموه الأنجاد والأغواد ولأوطاد والقفار والقرى وسكانها والذرى وقطانها، والقلاع العاصية وربطوا بذيل أمره كل ناحية، متمثلين بأوامره مجتنبين

زواجه، عاقدى نطاق عبوديته بأنامل الإخلاص والإخلاص، تابعى رائد مرضاته على جناب الولا والاختصاص، فمنهم جميع من ذكره من المطعين، ومن كانوا فى الشواهد ممتنعين منيعين، ومن جعلتهم إسكندر الجلابى أحد ملوك مازندران، وأرشيوند الفارسكوهى ذاك الأسد الغضبان صاحب الجبال والشوامخ العاصية القلال، وإبراهيم القمى صاحب النجد والمعد لكل شدة.

وأطاعه السلطان أبو إسحق من شرجان فاجتمع عنده من ملوك عراق العجم سبعة عشر نفرا ما بين سلطان وابن سلطان وابن أخى سلطان، كلهم فى ممالكه ملك مطاع مثل سلطان أحمد أخى شاه شجاع، وشاه يحيى بن أخى شاه شجاع سوى ملوك مازندران وسوى أرشيوند وإبراهيم وملوك خراسان، ولما سلك السلطان أبو إسحق نط أقاربه فى الطاعة، وعمل على ذلك الطرن خلف بيلده سيرجان نائباً يقال له كوزرن، فاتفق فى بعض الأيام أنه اجتمع عند تيمور هؤلاء الملوك العظام، فكانوا عنده فى خيمة له، وهو بينهم وحده، فأشار واحد منهم شاه يحيى وقد أمكنت الفرصة أن يقتله ويرفع عن العالم هذه الغصة، فأجابه بعضى وامتنع بعض، وقال لمن رضى بذلك من السلطان أحمد لم يرض إن لم تكفوا وعن هذا المقال تعفوا، أخبرته بهذه المقالة وأطلعت على هذه الحالة، فامتنعوا عن هذا الرأى المتين والفكر الرصين لاختلافهم ولا يزلون مختلفين.

وكأنه طالع أحوالهم أو تفرس أقوالهم فأسرهما فى نفسه ولم يبدها لهم، ثم مكث أياماً وجلس للناس جلوساً عاماً، وقد لبس ثياباً حمري ودعى هواء الملوك السبعة عشر طرا، ثم أمر فقتلوا جميعاً فى ساعة واحدة صبراً، ثم لما أبادهم ضبط بلادهم وجمع طريفهم وتلاذهم، وقتل أولادهم وأحفادهم، وأقام فى ممالكهم أولاده وأمراءه وأحفاده وأسباطه وأجناده.

وسبب قتله هؤلاء الملوك وفتكه وتمزيقه ستر حياتهم وهتكه أن بلاد العجم كانت لا تخلوا عن الملوك الأكابر، ومن ورث الملك والسلطنة كابراً عن كابر، وهى ممالك واسعة أطرافها شاسعة مدنها وافرة وقراها متكاثرة وأوتاد أوتادها راسخة، وحرانين أوطادها شامخة، ومخدرات قلاعها ناشرة، ومضممرات مكامننها ومعاندنها غير بارزة، كواسر أكاسرها كاسرة، ونواشر جوارحها للظهور ناشرة، ونمور دغارها طامرة، وتبور شطارها ظافرة، وثعابين أبطالها فى جداول الجداول ظاهرة، وتماسيح أفيالها فى بحار الضراب قاهرة.

فنظر تيمور بعين بصيرته فى وديلة تأمله ومرآة فكره، فرأى أنه لا يزكوا له ورد عارضها من شوكة عارض، ولا يصفو ورد ثغر فائضها من شارب معارض، ولا يثبت له فى بنیان ممالكها أساس يحكم ولا ينبت له فى بنیان ممالك غراس ينعم، وكان قصده إبقاء مبانيها وإجراء أموره على ما اقتضته التوراة الجنكيز خانية فيها، فلم يمكن عمل فلاحه لسلطنة فى بسيط أرضها، وسوق أنهار أوامره فى ضرائب ممالك طولها وعرضها إلا بقلع علائق أنساب أكابرها، وكسر قرامى أخشاب أحساب أكاسرها، فسعى فى استئصال فرعهم وأصلهم، واجتهد فى إهلاك حرثهم ونسلهم، وجعل لا يسمع لهم ميرزة نقطة فى أرض رحم إلا قلعها، ولا يشم منهم رائحة زهرة فى كم كمين إلا قطعها.

وقيل إنه فى مجلس فيه إسكندر الجلالى وكأنه كان مجلس شاط ومقام انشراح وانبساط، فسأل إسكندر فى ذلك المحضر، وقال إن حكم القضاء بإفساد بنيتى من تراه يتعرض لأولادى وذريتى، فأجابه وهو فى حالة الشطح وقد خلت عليه دماغه، ووضع سراج العقل منها فوق السطح، أول من ينازع

أولادك المشائيم أنا وأرشيوند وإبراهيم، فإن نجنا من مخالبى منهم أحد فإنه لا يخلص من أنياب إبراهيم الأسد، وإن أفلت أحد منهم من ذلك البند فإنه لا مخرج له من شرك أرشيوند، وكان أرشيوند وإبراهيم غائبين فلم يتعرض تيمور لإسكندر بضرر وشين، وأراد بالإبقاء عليه وقوعه مع صاحبيه، فلما أفاق إسكندر ليم على ما قال، فقال: لا مفر من قضاء الله ولا مجال ولا عتب على فى ذلك، على أنطقنى بذلك الله الذى أنطق كل شىء، ثم إن إسكندر وإبراهيم هربا فقبض على أرشيوند وألقاه فى النازعات فصار بناء وهتك حريم عمره أن جرعه أول الرعد، وأقرأه آخر نوح وسبأ، ثم إن إسكندر لم ير له أثر ولا سمع عنه وإلى يومنا هذا خبر.

وكان كبير الهامة طويل القامة. إذا عشى بين الناس كأنه علامة، حتى قبل أن مدى ذلك القصر المشيد كان نحوا من ثلاثة أذرع ونصف بالحديد، وإبراهيم القمى استمر على انكماشه ثم مات على فراشه، فكان ذلك سبب إيراده الملوك وإيتاهم المهالك.

فصل

ثم إن تيمور عصى عليه كودرن فى قلعة سیرجان، وقال، إن مخدومى شاه منصور موجود إلى الآن، وكان هذا الكلام فائياً فى الخاص والعام، فكان كودرن يتوقع ظهوره ويرجى على ذلك أعوامه وشهوره، فحاصر تيمور قلعة سیرجان، فلم يلج له عليها سلطان، فوجه إليهم عساكر سجستان، وذلك بعد أن شملها العمران، وكان نائبها يدعى شاه أبا الفتح فحاصروها نحواً من عشر سنين، وهم ما بين ظاعنين عتها ومقيمين، وهى بكر لا تفتح لطالبها باباً وعابس لا يملك خاطبها منها خطاباً.

وكان تيمور ولى كرمان شخصا يدعى أيدكوا من إخوان السلطان، فكان هو المشار إليه ومن العسكر هو المعول عليه، ولما تحقق كودرن من شاه منصور وفاته وخذله الأنصار، وأعجز بالانتصار وفاته، وكان أبو الفتح يرأسه كل ساعة، ويتكفل له عند تيمور بالشفاعة، فأذعن لصلح واستعمل لذلك أبا الفتح، ونزل متراميا عليهم، وسلم الحصن إليهم، فحقن إيدكوا عليه لكون عقد الصلح لم ينحل على يديه فقتله من ساعته ولم يلتفت إلى أبى الفتح وشفاعته، فأخبر تيمور بذلك، وكان فى بعض الممالك، فغضب عليه غضباً شديداً ولكن فات التدارك.

فصل

مما يحكى عن أيدكوا هذا متولى كرمان أنه كان بها للسلطان أحمد أخى شاه شجاع ولدان صغريان، أحدهما يدعى سلطان مهدي والآخر سليمان خان، وكان سليمان خان فى غاية الحسن واللطفة حاوياً معانى الملاحاة والظرافة، معباً بالكمال مربياً بالدلال، ألفاظه رائقة، وألحاظه راشقة، والأرواح إليه شائقة، وأرباب الألباب له عاشقة، حركاته فى القلوب ساكنة، ولفئاته للخلق فاتنة، كما قيل :

نسيم عبيره فى غلالة ماء وتمثال نور فى أديم هواء

وعمره إذ ذاك ستة أعوام، ولكن مفتتن به الخاص والعام، فعزم إيدكوا على إتلافها وإلحاقها بأسلافهما، ولم يكتف من تلك الدرة بأنها صارت يتيمة، ولا رق لأمها التى خربت ديارها، تكون محذرة كريمة ولم يكن له مدافع، ولا عنهما ممانع، فطلب من الجلاديين من يعتمد فى ذلك عليه، فلم تطب نفس أحد أن تمتد يده بمكروه إليه، ومضى على ذلك مدة، والخلق

بسبب هذه القضية في ضيق وشدة، حتى وجدوا عبداً أسود كأنه للبلاء مرصد، وكان الشياطين له عبده، والعفران له جنود وحفدة، وثوب ليل القهر من سداء سواده انتسج، وأصل الشجرة إلى طلعتها كأنه رؤوس الشياطين، من حة فؤاده نستت وتنج، تستد عند صاء صاءه في النور، ويستحسن عند خيال صورته مناهد للبلاء...

زبانية النيران تكره وجهه وحين تراه تستعيز جهنم

قد نزع الله من قلبه الرحمة، وجبل فؤاده على المأثمة، فارغبوه في أن يختليهما ويقتلهما، وكانت عين سليمان خان رسداً، وقد سكر في دأيه وتهدى، فدخل عليه ذلك الظالم من ساعته، واغتاله، وراقد فضربه بي جنبه بخنجر أنفذه من الجنب الآخر، فارتفع نصجيج وأوله له، ووقع العجيج والزلزلة، وعم المأثم أمه الوالهة وأهلها، وطقق الناس بكون عليها ولها.

والظاهر أن هذه الأمور كانت بإشارة تيمور، وعسكر ذلك الظلوم الكفار ما كانوا يخلوا عن مثل هذه الشرور، والأشرار ولو كان فاعله من غيرهم، لكن لعله المصباح والمرافقة كان يسير سيرهم.

حكاية

لما ارتحل من الشام بجنوده الغزيرة، كان مع واحد منهم أسيرة، كشفت أيدى النواثب عصمتها ولطمتها، وعلى يدها بنت لها رضيع ففطمتها، فلما قربوا إلى حماة، جعلت البنت تأن أنين الأواة، ولما بها من المضض المنكى تتكد وتبكي، ومعهم جمال من بغداد منطو على الفساد، مخبو على النكاد مجبول، على الغلاظة والقساوة معمول، من الفظاظة والغباوة، ممتلى من

القذى متضلع من الأذى، لم يخلق الله تعالى فى قلبه من الرحمة شيئاً
فيتزع، ولم يودع لسانه لفظاً من الخير فيسمع، فأخذ تلك البنت من أمها،
فدار فى وهمها أنه إنما أخذها ليخفف من همها، وكانت راكبة على جمل،
ثم انقطع ساعة عن النقل ثم وصل ويده خالية وقهقهته عالية، فاستكشفت
أمها حالها، فقال: ما لى ومالها، فهوى عقلها ووهى، فطرحت نفسها
ونحت نحوها فأخذتها، وانقلبت وأنت بها وركبت، فتناولها منها مرة أخرى
لى أن لا يسومها ضرراً، ثم غاب عنها ورجع، وقد صنع كما صنع، وألقت
نفسها ثانية وعادت إليها ثانية، وجاءت وهى عانية وقطوف خفوقها دانية،
فركبت وأخذتها ووضعتها على كبدها التى منه ولدتها.

فأخذها منها مرة ثالثة بنية فى الفساد عابثة، وحلف لها يميناً حائثة، أنه
يحملها هو ولا يمسه بسوء، فحملها ساعة ثم خرج عن سنة الجماعة، ورمى
بها فى بعض البطاح، ومثل بها ما فعله اليهودى بصاحبة الوضاح، وجاء
ويده دامغة بإثم ملاء ومن البنت فارغة، وقد سلبها سلبها، وجلب إلى أمها
جلبها، فأطرحت نفسها باكية، ورامت الرجعى جارية، فقال لها لا تتبعى
كفتيك همها فارجعى واركبى، فبكت وصاحت وأنت وناحت، ووقعت فى
العناء وإن كانت استراحت، والناس على دين ملوكهم سالكون طرائق
سلوكهم.

سبب دخوله إلى عراق العرب وان كان إيذاؤه لا يحتاج إلى علة وسبب

ولما خلص تيمور جميع ممالك العجم، ودانت له الملوك والأمم، وانتهت مراسيمه إلى حدود عراق العرب، غضب السلطان أحمد صاحب بغداد واضطرب، فجهز جيشاً عرمرماً، وجعل رئيسهم أميراً مقداماً مقدماً، يدعى سبتانى فتوجه الجيش نحو الجغتاي فبلغ تيمور خبر الجيش وخبره، فسر بذلك قلبه وانشرح صدره، فجعل ذلك سبباً لمهاوشته وذريعتاً لمحاربة ملك العراق ومناوشته، وأنفذ جيشاً جراراً، بل بحرّاً زخاراً، فتلاقيا بصدق نية على مدينة سلطانية، فصدق كل منهما صاحبه الضراب وسدد لنحره السنة الأسنة وسهام الحراب، واستمد بحر الجغتاني من أفواج أمواجه، واصطدم فانكسر في قساطله قنيات جند سبتانى فانهزم ووصل كلهم إلى بغداد وتشتتوا في البلاد فألبس السلطان أحمد سبتانى المقنعة وأشهره في بغداد بعد أن ضربه وأوجعه، وكف تيمور عن عناده وقفل متوجهاً إلى بلاده.

ذكر سكون ذلك الزعزع الثائر وهدوء ذلك البحر المائر لتطمئن من الأطراف فيحطمها كما يريد ويدير بها الدوائر

ثم إن تيمور خرج من سمرقند إلى ضواحيها، وجعل يتنقل في جوانبها ونواحيها، وبني حواليلها قصبات سماهن بأسماء كبار المدن والأمهات، وقد صفت له سمرقند وولاياتها، وممالك ما وراء النهر وجهاتها، وترسكتان وما فيها من البلاد ونائبها من جهته يدعى خدايداد وخوارزم التي بها فتك وسطا.

وكشغار وهي في بحر ممالك الخطا، وبلخشان وهي ممالك على حدة، عن ممالك سمرقند متباعدة، وأقاليم خراسان، وغالب ممالك مازندران، ورستمدار وزولستان وطبرستان والرى وغزنى واستراباد وسلطانية وسائر تلك البلاد، وجبال الغور المنيعه وعراق العجم وفارس الشامخة، وكل ذلك من غير منازع ولا مجادل ولا ممانع، وله في كل مملكة من هذه الممالك ولد أو ولد ولد أو نائب معتمد.



أنموذج مما كان يغور ذلك الظلوم الكفور من عساكره في بحور ويفوص على أمور

ثم يفور بشرور، ومن جملة ذلك عوضه مما وراء النهر وخروجه من بلاد اللور، ثم إنه مع اتساع مملكته وانتشار هيئته وصولته وشيوع أراجيفه في

الأقطار وبلوغ تخاويله الأقاليم والأمصار، وثقل أثقاله، وعدم اختفاء توجهه إلى جهة، وانتقاله كان يجرى فى حد العلم مجرى الشيطان من ابن آدم ويدب فى البلاد ديب السم فى الأجساد. قلت:

يصوب يمينه ويصيب يسرة وينوى جهة والقصد نقرة

بينما يكون هل فى المشارق يبارق فيالق، أ لمع فى الغرب بوارق بوائق، وبينما نغمات طبوله وضربات أعواده ترقع فى حصار العراق وأصبهان وشيراز، وإذا برنات أوتاره وبوقات أبواقها تسمع فى مخالف الروم ومقام الرهاوى وركب الحجاز، فمن ذلك أنه مكث فى سمرقند مشغولاً بإنشاء البساتين وعمارة القصور وقد أمنت منه البلاد واطمأنت الثغور.

فلما انتهت أموره وبلغ الكمال قصوره أمر بجمع جنده إلى سمرقند؛ ثم أمرهم أن يصنعوا لهم قلانس ابتدعها، وعلى صورة من التركيب والتضريب اخترعها، فيلبسونها ويسيرون وما بين إلى أين يصيرون، ليكون ذلك لهم شعاراً، وقد كان أرصد له فى كل جهة من ممالكه حشاراً، ثم رحل عن سمرقند وأشاع أنه قاصد خجند وبلاد الترك وجند، ثم إنه اندمى فى دردور عسكره، وانغمس كأنه فى لجة بحر انغمس، ولم يشعر أحد أين عطف ولا أنى قصد المختطف، ولا زال فى تأديب وأساذ وجوب بلاد ويجرى جرى الراكب ويسير سير الكواكب، وي طرح ما وقف وكل نجائب الجنايب، حتى نبع من بلاد اللور، ولم يكن لأحد به سعود وهى بلاد عامرة خيراتها متكاثرة وفواكهها وافرة، اسم قلعتها بروجرد وحاكمها عز الدين العباسى وقلعتها وإن كانت فى الحضيض، لكن كانت تسامى بمناعتها حصون الجبال الرواسى، وهى مجاورة همدان ومناظرة عراق العرب

كأرذبيجان، فأحاط بالقلعة وما حواليتها وحاصر ملكها المتولى عليها، ولما كان صاحبها بلا عدد ولا أهبة ولا مدد، وكا فى صورة المتوكل المحتسب، وأتاه البلاء من حيث لا يحتسب، ولم يسعه إلا طلب الأمان والانقياد له والإذعان.

فنزّل إليه وسلمه قياده فقبض عليه وضبط بلاده، ثم أرسله إلى سمرقند وحبسه وضيق عليه نفسه ونفسه، ثم بعد ذلك حلفه ورفع عنه ما نابه وصالحه على جمل من الخيل والبغال، وردّه إلى بلاده واستنابه.

ولما استخلص ذلك الكفور ولايات تلك الكفور، واصل السير إلى همدان فى أقرب زمان، فوصل إليها وأهلها غافلون، فجاءها البأس بيّاتاً وهم قائلون، فخرج إليه منها رجل شريف يقال له مجتبى، وكان عند الملوك مصطفى ولديهم مرتضى، فشفع فيهم فشفعه على أن يذلوا مال الأمان، ويشتروا بأموالهم ما من عليهم به من الأرواح والأبدان، فامثلوا أمره وفعلوا ووزعوا ذلك فجمعوه وإلى خزائنه نقلوا، فدعته نفسه الجانية أن طرح عليهم المال مرة ثانية، فخرج إليه ذلك الرجل الجليل ووقف فى مقام الشفاعة مقام البائس الذليل، فقبل شفاعته ووهبه جماعته، ثم إنه سدك بمكانه وجثم حتى تلاحق به عسكره والتأم.



ابتداء تخريب ذلك الخرب أذربيجان وممالك عراق العرب

ولما بلغ السلطان أحمد بن الشيخ أويس ما فعله بغنم رعايا جيرانه اللور
وهمدان ذلك الأويس، علم أنه ولا بد له من قصد مملكته ودياره، لأنه هي
بادأة بالشر، وطرح على شراره طائر شرارة، وإن عسكره كان كالسيل الهامر،
فإنه لا مقاومة له ببحره وتياره، وإنه إذا جاء نهر الله بطل نهر عيسى، ولا
مقابلة لسحرة فرعون مع عصا موسى. قلت بشعر:

السيل يقلع ما يلقاه من شجر

بين الجبال ومنه الصخر ينفطر

حتى يوافي عباب البحر تنظره

قد اضمحل فلا يبقى له أثر

فاستعد للبلاء قبل نزوله، وتأهب له قبل حلوله، فتشمر للهزيمة وعلم
أن إياه سالماً نصف الغنيمة، واقتصر من بسيط فقه المقاتلة والمقابلة على
الوجيز، وصمم على الخروج من ممالك بغداد والعراق وتبريز، وقال لنفسه
النجاء النجاء، وجهز ما يخاف عليه صحبة ابنه السلطان ظاهر إلى قلعة
النجاء، وأرسل في تيمور الأشعار والهجاء، فمن ذلك ما ترجمته:

لئن كانت يدي في الحرب شلاً فرجل في الهزيمة غير عرجا

ثم قصد البلاد الشامية وذلك فى سنة خمس وتسعين وسبعمائة، فى حياة الملك الظاهر أبى سعيد برقوق رحمه الله تعالى، فوصل تيمور إلى تبريز ونهب بها الذليل والعزیز، ووجه إلى قلعة النجاء العساكر، لأنها كانت معقل السلطان أحمد وبها ولده وزوجته والذخائر، وتوجه هو إلى بغداد ونهبها ولم يخربها ولكن سلبها سلبها.

وكان الوالى بالنجاء رجلاً شديداً الباس، يدعى التون عند السلطان أحمد مأمون، وله إليه ركون، ومعه جماعة من أهل النجدة وأولى الباس والشدة نحواً من ثلاثمائة رجل فى العدة، فكان ينزل بهم التون، إذا أخذ الليل فى السكون، ويشن الغارة على تلك العساكر والمكان المسكون فقهر أمير العسكر، فأبلغوا تيمور هذا الخبر فأمدهم بنحو أربعين ألف مقاتل مشهور، مع أربعة أمراء كبيرهم يدعى قبلغ تيمور، فوصلوا إلى القلعة ولم يكن إذ ذاك التون فيها، وكان قد خرج الناس للغارة على من فى ضواحيها، فبينا هو راجع وإذا بالنقع ساطع، فلما اطلع الخبر قال: أين المفر، فقال: كلا لا وزر، نعلم أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فثبت حادسه وحاشيته وتوكل عليه، وقال إن الرءوس فى مثل هذا المقام، إنما يكونون تحت الأعلام، فاحطموا نحو قلب هؤلاء اللثام، فإما أن تبلغوا أو تموتوا على ظهر الخيل وأنتم كرام، أن لا ينجيكم من هذا الكرب سوى الطعن الصادق والضرب. قلت:

كريمًا مت وإلا مت لثيمًا فما والله بعد الموت موت

فتعاضدوا بهمة صادقة على حصول الخلاص من الله تعالى واثقة، وقد أحاطوا بهم إحاطة الشبكة بالسمكة، وصاروا فى وسطهم كالمنزل فى الفلكة، وقصدوا الراية وحاملها ومن يليها وذويها، فساعدهم ساعد سعد الحيان

بنصرته، وحل عنهم، القبض الداخل أنكيس عقلته، فاسألوا على راياتهم
ذات البياض من الدماء حمرة، ونتجت لجماعتهم طريق إلى عتبة النصره،
فلاح لهم فلاح ونجح لهم نجاح، فنجوا من الشرور وحصل لهم السرر بعد
أن قتلوا من العسكر أميرين أحدهما قبلغ تيمور، ولما وصل هذا الخبر إليه
اسودت الدنيا فى عينيه، بل انقلب الكون والمكان عليه، ثم نهض إليها نفسه
وربض عليها بحرسه، وأحاط بجوانبها وألقم الحرس أفواه مضاربها.



صفة قلعة النجاء

وهذه القلعة أمتع من العقاب وأرفع من السحاب، يناجى السماك
سماكها، ويباهى الأفلاك استمساكها، كأن الشمس فى شرقها ترس من
الإبريز على بيض شرفها، وكأن الثريا فى انتصابها قنديل معلق على بابها، لا
يحووم طائر الوهم عليها فأنى يصل طائش السهم إليها ولا يتعلق بخدم
خدمتها خلخال خيال وافتكار، فضلاً أن يحلق على معصم عصمتها من
عساكر الأساورة سوار.

وكان التون قد تربى فى ترائب ترابها، وأهل مكة أخبر بشعابها، فصار
كلما سجد الليل الساجى، وأرصد السراق الشياطين عيوقه الرواجى، هبط
من تلك القلال وسرى سرى طيف الخيال، ودب ديب الشحم فى اللحم
والماء فى العود، والنار فى الفحم من درب لم يتوهمه الظنون بعون من لا

تراه اليون، بحيث لا يشعر به الحرس، ولا يبصره العسس، ولا يزال يتلوا عليهم آيات الإغفاء وينفص بظلمساته الاستخفاء ويتقرب ويتقرب، حتى يلوح له فى الحى مضرب، فينقل ويصلب ويسلب وينهب ويهرب، فيكر سالما ويفر غائما، فلم يزل ذلك دأبهم ودأبه، حتى أعجز تيمور وأصحابه، فلم ير تيمور أوفق من الارتحال لضيق المجال وعسر المثال، فارتحل عنها بعد ز رتب عليها للحصار اليك، واستمر الحصار مدة طويلة، والقضاء يقول له اصبر فإنها لن تعجزك.

قيل إنها مكثت فى الحصار اثنى عشر سنة، وسبب أخذه لها، أن التون المذكور كان له أخ بالفسق مشهور، فحصل بينه وبين أم السلطان ظاهر خيانة أوجبت عليهما ما يجب على العاهر، فاطلع على ذلك طاهر ابن السلطان أحمد، فقبض عليهما وقتلها سالكا فى ذلك الرأى الأحمد، وكان إذ ذاك التون عن القلعة غائبا، وخرج منها وقصد للغارة جانبيا.

فلما رجع التون أغلقوا باب القلعة عليه، ورموا بأخيه من فوق السور إليه، وأخبروه خبره وعجره وبجره، فقال: جزاك الله أحسن الجزاء، وجعل حظكم من الخيرات أوفر الإجزاء، لو كنت عالما فعله أو حاضرا قبله لعاملته بما هو أهله، وفعلت به ما يجب فعله، ومحل به من الزمان دواهيته، ولأريتكم العبر فيه ولأشهرنه فى خلق الله تعالى وبريته، وناديت عليه هذا جزاء من يخون ولى نعمته.

ثم طلب الدخول فقطعوه عن الوصول، فقال: أما أخى فإنه جنى فذاق ثمرة ما جناه، وأما أنا فقلبى على الوفاء بعهدكم من الأزل وإلى حين وفاه، ومل أزل موالى وليكم ومعادى عدوكم، فإن طردتمونى فإلى أنى أذهب، وإن

رددتم رغبتى فيكم ففيمن أرغب، فقالوا: ربما أدركتك الحمية ولحقتك العصبية فتذكرت أخاك وتفكرت شدتك بعد رخاك، فنقمت وانتقمت واعوججت بعد ما استقمت، وتكدر منك ما صفا، وناهيك قصة الأخوين مع ذات الصفا. وقلت شعراً:

ويمكن وصل الحبل بعد انقطاعه ولكنه يبقى به عقدة الربط

فأنشأ أيماناً واثقة، أن كلماته وعهوده صادقة، فقالوا له: لا تطل فما حيت ما لك عندنا مقيم ولا مبيت، فارجع من حيث جيت، وهذا آخر العهد منك غضبت أم رضيت، فأخذ يذم دهره ويأكل يده ندامة وحسرة، على أنه أنفذ عمره، فى طاعة من لم يعرف قدره، ثم دنى فتدلى، وعبس وتولى وسيب فرسه وماله وفرق خيله ورجاله، ولما لم يكن له ملجأ سوى قلعة النجاء، وقد خرجت من يده وألقت فى كبده، ضرب أخماساً لأسداد، فيمن يقصده من الناس، ثم أورى برأيه الزند أن يقصد مدينة مرند، وكانت تحت حكم تيمور، وفيها أوامره تمور، فسألها وقصد حاكمها لابساً لبدا، وتاركاً مالاً وولداً.

ولما اتصل بحاكمها الخبر، أحاط به الجبن والجور، فاضطرب واقتصر واضطرم واعتكر، وأخذ الخدر ورام المفرء فليل إنه وحده من غير رجال وعدة، فرجع عقله إليه ودخل التون عليه، فأخذ فى التفتيش عن أموره، ثم قطع رأسه وأرسله إلى تيمور فتحرق لذلك وانتكى، وتأسف عليه وبكى، وأرسل إلى قاتله بعزله ثم صادره. وقتله، ثم إن السلطان ظاهر لما حدث هذا الحدث وتنجس بهذه الخبائث واخبت، لم يكه إلا قسمة دس، سرحيل، وم بجماعته قبله التحويل، أن نشر مخدرات القلعة فعجز عن إحسان تحصينها،

وعنف عن اقتضاى أبكارها وعوينها، وقل جيشه وقل فسل متاعه منها وانسل، فذل لتيمر صعابها وفتح له من غير معالجة بابها، فولى فيها من يثق به من الأعوان، ووصى به لعله المجاورة للشيخ إبراهيم حاكم شروان، ثم ثنى عنان الفساد إلى صوب بغداد فهرب السلطان أحمد كما ذكر إلى الشام فى فية، وذلك فى شوال خمس وتسعين وسبعمائة، فوصل إليها حادى عشرية يوم السبت فكبتها ومن حوالها أى كت.



ذكر أخبار صاحب بغداد وأسماء آبائه والأجداد وكيفية دخوله إلى هذه البلاد

وهو السلطان مغيث الدين أحمد بن الشيخ أويس بن الشيخ بن حسين ابن أقبا بن إيدكان صاحب بغداد وأذربيجان، وما أضيف إلى ذلك من ولايات وممالك إيلكان وإيدكان، وجده الأعلى ابن القان الكبير النجيد شرف الدين سبط القان أرغون بن أبى سعيد، كان والده الشيخ أويس من أهل الديانة والكيس ملكاً عادلاً وإماماً شجاعاً فاضلاً مليحاً منصوراً صارماً مشكوراً، قليل الشر كثير البر، صورته كسيرته حسنة، وكانت دولته تسعة عشرة سنة، وكان محباً للفقراء، معتقداً العلماء والكبراء، وكان قد أبصر فى منامه لوقت موافاة حمامه، ثم صدر هو وقبيله عن ولاية بغداد قاصدين ديار بكر وأرزنجان، فاستعد لحلول قوته ورصد نزول موته، وخلع من اللمك بده

وولاه حسينًا ولده، وهى أكبر بنيه والأفضل من أهله وذويه، ونبذ أدانيه وأقبل على طاعة مولاه، واستعطفه إلى الرضى والعفو عما مضى، ولازم صلاته وصيامه وزكاته وقيامه ولا زال يصلى ويصوم، حتى أدركه ذلك الوقت المعلوم، فأظهر سره المصون، وتلا إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فدرج على هذه الطريق الحسنة وقد جاور نيئًا وثلاثين سنة، ومن مغرب تبريز أفل قمرة، وفى سنة ست وسبعين وسبعمئة وصل إلى الشام خبره، واستقر ولده جلال الدين حسين مكانه وأفاض على رعيته فضله وآسانه، وكان كريم الشماثل جسيم الفضائل، وافر الشهامة ظاهر الكرامة، أراد أن يمشى على سنن والده، ويحى ما دثر من رسوم آثاره ومعاهده، فخذلته الأقدار وخالطت صفو مساعية الأكدار.

وفى سنة ثلاث وثمانين وسبعمئة وصل من قصاده إلى الشام فية، وهم النقاضى زين الدين على بن جلال الدين عبد الله ابن نجم الدين سليمان الصيافى الشافعى قاضى بغداد وتبريز، والصاحب شرف الدين ابن الحاج عز الدين الحسينى الواسطى وزير السلطان وغيرهما، ثم فى جمادى الآخرة فى هذه السنة وثب السلطان أحمد على أخيه المشار إليه فقتله، فقام لينصر الملك والدين مكانه فخذله، فملا جفن حياته من الفناء سنة، وعمره إذ ذاك نيف وعشرون سنة.

ولما استولى السلطان أحمد على ممالك العراق مد يده تعدية، وضم جناح الشفقة والإرفاق، وشرع يظلم نفسه ورعيته، ويذهب فى الجور والفساد يومه وليلته، ثم بالغ فى الفسق والفجور فتحامر بالمعاصى وتظاهر بالشُرور واتخذ سفك الدماء إلى سبل الأقراض وثلم الأعراض سلماً، فقيل إن أهل

بغداد مجوه واستغاثوا بتيemor، فأغيثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه، فل يشعر
إلا والتار قد دهمته، وعساكر الجغتاي خيلا ورجلا حطمته، وذلك يوم
السبت المذكور من الشهر المشهور، فاقتحموا بخيلهم ورجله وقصدوا الأسوار
ولم يمنعهم ذلك البحر التيار، ورماهم أهل البلد بالسهام وعلم أحمد أنه لا
ينجيه إلا الانهزام، فخرج فيمن يثق قاصد الشام، فتبعه من الجغتاي طائفة
لثام، فجعل يكر عليهم ويرد عنهم ويفر منهم فيطمعهم وحصل بينهم قتال
شديد وقتل من الطائفتين عدد عديد، حتى وصل إلى الحلة فغير من جسرها
نهر دجلة، ثم قطع الجسر ونجا من ورطة الأسر، واستمرت التار في عقبه،
تكاد أنوفها تدخل في ذنبه، فوصلوا إلى الجسر ووجدوه مقطوعاً فتراموا في
الماء وخرجوا من الجانب الآخر، ولم يزالوا تابعاً ومتبوعاً ففاتهم، ووصل إلى
مشهد الإمام وبينه وبين بغداد ثلاثة أيام.

ذكر ما افتعله من الخديعة والمكر

في بلاد أرزنجان وديار بكر

فوصل إلى ديار بكر واستخلصها، ومن أيدي ولاتها خلصها، فعصت
عليه قلعة تكرت فسلط عليها من عساكره كل عفريت، وذلك يوم الثلاثاء
رابع عشر ذي الحجة، وقد ارتجت منه البلاد أي رجة، فحاصرها وأخذها في
صفر بالأمان، ونزل إليه متوليها حسن بن وليمور متدرع الأكفان، وفي حضنه

وعلى عاتقه أطفاله ، وقد ودعه أهله وماله وأسلمته خيله ورجاله ، وذلك بعد أن عاهدته أن لا يريق دمه ، فأرسله إلى حائط فقضه عليه وردمه ، وقتل من بها من رجال وسبا النساء وأسّر الأطفال ، وجعل يعيث ويستأصل ويقطع فى الفساد ويوصل ، حتى أناخ يوم الجمعة حادى عشرين صفر سنة ست وتسعين إلى موصل فأخربها وكسرها ، ثم إلى رأس عين ونهبها وأرسلها ، ثم إلى الرها تحول ودخلها يوم الأحد عشرة شهر ربيع الأول زاد عبثاً وفساداً وجارى فيما عائد ثمودا وعادا ، وخرج من تلك البلد ثانى عشرية يوم الأحد .

ثم اختار من نسور قومه طائفة على ورد الدماء حائما وعلى قتل المسلمين عاكفة ، فأخذهم واندغر ، وفى ممالك ديار بكر انغمر ، ولم يزالوا بها عابثين ولاذاها قاصدين وعليها ظالمين وفيها ماردین ، فقصدوا بتلك العفارىت المصاليث ، وواصل السير إليها فوصل فى خمسة أيام من تكريت ، ومسافة ما بينهما للمجد اثنا عشر يوما إن لم تزد ، وكان سلطانها الملك الظاهر تحقق أنه لا يضر من التجأ إليه ، وقدم فى ثوب الطاعة عليه ، فما وسعه إلا التشبث بذى ذمه والانتظام فى سلك خدمه .

ذكر ما جرى لسلطان ماردین عيسى الملك الظاهر من المحنة والبلاء مع ذلك الغادر الماكر

لكنه خاف غائلته فجمع حاشيته وصاغيته ، وقال إني ذاهب إلى هذا الرجل ومظهر له الانقياد ، فإن ردنى حسبما أريد فهز المراد ، وإن طالبنى

بالقعة فكونوا أنتم على التأبى والمنعة وإياكم أن تسلموها إليه ، أو تعتمدوا فى الكلام عليه ، وإن دار الأمر بين تسليم القلعة وبين إيلافى ، فاحتفظوا بالقلعة واجعلوا التلافى فى تلافى ، فإنكم إن تسلموها إليه خرجتم من باطنكم وظاهركم ، وأتى بالهلاك على أولكم وآخركم ، وخسرتم شعاركم ودثاركم ، وغبتم أنفسكم ودياركم ، وإذا كان كذلك فأنا أجعل نفسى فداكم وأكفيكم بروحى ما دهاكم ، وبعض الشر أهون من بعض وها أنا أجس لكم النبض .

ثم قصد ذلك الكالغ المفسد الطالغ ، بعد ما استخلف ابن أخيه الملك الصالح شهاب الدين أحمد الملك السعيد إسكندر ابن الملك الصالح الشهيد ، ونزل يوم الأربعاء واجتمع به فى سلخه ، بمكان يسمى الهلالية فقابلته بشنعة وقبض عليه بسرعة ، وطلب منه تسليم القلعة ، فقال القلعة عند أربابها ويبد أصحابها ، وأنا ما أملك إلا نفسى فقدمتها إليك وقدمت بها عليك ، فلا تحملنى غير طاقتى ولا تكلفتنى غير استطاعتى ، فأتى به القلعة وطلبها منهم فأبوا ، فقدمه إليهم ليضر بعنقه أو يسلموه فنأوا فطلب منه فى مقابلة الأمان من الدراهم الفضة مائة تومان ، كل تومان ستون ألف خارجا عما يتقرب به إليه زلفى .

ثم إنه شد وثاقه وسد عليه ليذهب عنه ما به من قوة كل باب وطاقة ، وشمز للفساد ذيله ، وجعل يريح رجله ويسمن خيله ، ويتفوق كاسات فساد ، ويعربد على عبدا الله وبلاده ، واستمر على ذلك لا يعى ولا يفيق ، ويردد ما بين الفردوس إلى رسمل ونصيين والموصل العتيق ، ثم أمر عساكره فى جمادى الآخرة أن يمدوا قاصدين ويقصدون ماردين ، فسابقوا الطير ولاحقوا السير وجاوزوا بالنهار والأنهار ، وبالليل السيل فقطعوا قفار القفار قطع الهندى ، وعملوا فى تلك الجبال والقلال بما قال الكندى وهو :

سمرت إليها بعد ما نام أهلها

سمو حباب الماء حالا على حال

فوصلوا إليها على غفلة، واحثوا عليها من غير مهلة، وذلك بعد يوم
الثلاث ثانی عشرة، وقد سل الصبح حسام فجره، وطار غراب الدجى عن
وكره، فصاروا سوار معصم تلك الأسوار، وأحلوا الدمار هاتيك الديار،
فعموها زحفاً وساموها خسفاً، وهدوها زحفاً ودكوها وجفاً، وتعلقوا بأهداب
أرجائها، وتسلقوا بالسلالم من أرضها إلى سمائها، وكان متسلقهم على
الأسوار من القبلة رابية اليهود، ومن الغرب التلول ومن الشرق المنشار.

فأخذوا المدينة عنوة وقهراً، ملأوها فسقا وكفراً، وترفع الرفعة أهل
المدينة إلى قلعة، ولم يكره أحد سواهم على المنزلة والرفعة، وأكوهودوا
ملتجئين إلى قوادمها وخوافيها، وذبح عنهم من القلعة بالسهم والمكاحل من
كان فيها، فقتلوا من ظفروا به ذكراً وأنثى، صغيراً وكبيراً، ولم يرتضوا بما
فيها نهبا، وبمن فيها أسيرا، فجادل بعض الناس وأظهر لهم بعض الجلادة
وأراد بثبته لهم أن تضم الجهاد إلى الشهادة، ولا زالت آيات القتال عليهم
تتلى حتى امتلأت المدينة من الجرحى والقتلى.

واستمر ذلك من قبل طلوع الشمس إلى أن صار اليوم أمس، وحين
التقى على صفحتى الكون عارضاً الليل، واستوفى أولئك المطففون من
ظلمهم وتعديهم الميزان والكيل، وبادر نون الظلام يونس الشمس بالالتقام
طرا على تلك الحركات السكون، فتراجعوا ونزل العسكر مقابل عربون، وقد
قتل من العسكريين ما سبق العدد، وأكثرهم كان من أهل البلد، فباتوا يعدون
السلاح ويتقفونه، ويتظرون الصباح ويستبطنونه إلى أن شق الليل مكثوم

جيبه، وأظهر الظلام مكنون غيبه، وأمر الكون وجه النهار أن يضرب على جنبى الآفاق أطراف شيبه، بكروا بكور الغراب وبدروا إلى الحراب والخراب، وعصروا أهل المدينة وحاصروها أشد حصر، وهدموها وأسوارها من الظهر، فمحو آثارها بعد العصر، ثم باءوا بالآثام وقد انتشر كظلمهم الظلام.



إيضاح ما أخفاه من الحيلة وخلود زيد تلك الأفكار الوبيلة

ولما آب ليله بالحية ونم يمكنه تحصيل القلعة بالهية، شحد فكراً وجدد مكرأ، وناب عن المقابحة وتأن إلى المصالحة، فردع ذلك الخسيس فى نهار ذلك الخميس، وأظهر إليهم يقول ضمن كتاب مع الرسول، يعلم أهل قلعة ماردين الضعفا والعجزة والمساكين العطاش، إننا قد عفونا عنهم وأعطيناهم الأمان على نفوسهم ودمائهم، فليأمنوا وليضاعفوا لنا الأذعية.

وهذه الرسالة نقلتها كما وجدتها فيما نسب كيده ولا نجح قصده، لأن رصدها كانوا غير رافدين وشياطين حرسها كانوا كزى ماردين، فارتحل ذلك السلية بكرة السبت إلى البشرية، وأرسل إلى أمد الجنود مع أمير يدعى سلطان محمود، فتوجه بجيش طام وحاصرها خمسة أيام، وأرسل يستمد عليها، فتوجه بنفسه إليها، وأحلها الهوان فطلبوا الأمان، فأمن البواب ففتح له الباب، فدخل من باب التل ووضع السيف فى الكل، فأبد الجميع العاصى

منهم والمطيع، وأسروا الصغار وهتكوا أستار الحرم وحرم الأستار، وأذاقوا الناس لباس الباس والتجأ بعض الناس إلى الجامع، فقتلوا منهم نحو ألفى ساجد ورايع، ثم حرقوا الجامع ورحلوا وتركوها بلاقع، فهدها إبليس إلى قلعة أرجيس، ثم بادر بالتحريك وحط على قلعة أونيك وفيها مصر بن قرا محمد أمير التركمان، فحاصروها وأخذوها بالأمان وذلك في سنة ست وتسعين وسبعماية، بعد عيد رمضان، ثم قتل كل من كان بها من الجند وصير مصر إلى سمرقند.

فصل

ثم استصحب الملك الظاهر بسوء نية، ورحل سابع ذى القعدة سنة ست وتسعين وسبعماية، وجبه في مدينة سلطانية، وحس عنده من أمرائه الأمير ركن الدين وعز الدين التركمانى واستبوغا وضياء الدين، وضيق عليه بأن يقطع عن أهله خبره، بحيث لا يدرى أحد عجزه ويجره.

ولما أئخنه شد الوثاق، قصد التوجه إلى دشت قفجاق، فأجرى نحوها ما أقام من الفتنة على قدم وساق، ومكث المل الظاهر سنة لا يدرى خبره فى يقظة ولا سِنة، ثم وفدت الملكة الكبرى إلى سلطانية، وخففت عنه ما به من الضيق وبلىة، ونسخت له فى مراسلة جماعته وحرصته على طلب الدخول فى رضى تيمور وطاعته، زاعمة أنها ناصحة له وطالبة مصلحته، وكان ذلك من مكائد تيمور وإشارته، ثم رجعت تيمور من الدشت فى شعبان سنة ثمان وتسعين، مكث بسلطانية ثلاثة عشر يوماً، ثم توجه إلى همدان ومكث بها إلى ثالث عشر شهر رمضان، ثم استدعى من سلطانية الملك الظاهر بإكرام وانشراح صدر وخاطر، ففكوا قيوده وقيود متعلقيه وعظموه غاية التعظيم مع

ذويه، وتوجه إليه يوم الخميس خامس عشرة، ودخل عليه يوم السبت سابع عشرة، فتلقيه بالاحترام وأعتنقه، وأذهب عنه دهشه وقلقه، وقبله في وجهه مرارا، واعتذر إليه مما فعله معه جهارا، وقال له: إنك لله ولى ورفيع القدر كأبى بكر وعلى، وتحلل منه عما صدر فى حقه عنه وأضافه ستة أيام، وخلع عليه خلع الملوك العظام، وأحله محلا جميلا وأعطاه عطاء جزيلا، من ذلك مائة فرس وعشرة بغال وستون ألف دينار كبكية، وستة جمال وخلعاً مزركشة مكلفة وأنعمات وافرة مكملة، ولواء يخفق على رأسه منصورا، وستة وخمسين منشورا، كل منشور بتولية بلد، وأن لا ينازعه فيه أحد.

أول ذلك الرها إلى آخر ديار بكر إلى حدود أذربيجان وأرمينية، وكل ذلك من الدهاء والمكر، وأن جميع حكام تلك البلاد يكونوا تحت طاعته معدودين فى جملة خدمه، وجماعته يحملون إليه الخراج والخدم، ولا ينقلون إلا عن أمره قدما عن قدم، بحيث يكون شخص كل من مجاوريه بما أفاء الله لظله فيئا، ويعفى هو فلا يحمل إلى تيمور ولا إلى غيره شيئا.

وهذا وإن كان فى الظاهر كالإكرام، فإنه فيما يول إليه وبال عليه وانتقام، وفيه كما ترى ما فيه، وإلقاء العداوة بينه وبين مجاوريه، وينجر ذلك إلى أن يلتجئ إليه ويعول فى كل أموره عليه، ويدخل للكثرة الأعداء تحت صينه فيصل إذ ذاك منه إلى حصنه، ثم إنه شرط عليه أنه كلما طيه جاء إليه ثم عانقه وودعه وأمر أمراءه بتشجيعه.

فخرج من الضيق إلى السعة ثالث عشرين شهر رمضان ليلة الجمعة، سنة ثمان وتسعين وسبع مائة، فوصل إلى سلطانية فى عيشة رضية وحالة هنية سائبة، ثم عزم على تبريز فى جحفل نفيس عزيز، واجتمع بأمران شاء

فى أوفى إكرامه وعطاياه وشيعة فى أحسن هيئة وأيمن طور، فجاء إلى سوطان
وبدليس وأرزن إلى الصور، ووصل خبره إلى قبائله والعشائر، فابتهج الناس
ودقت البشائر.

فوصل يوم الجمعة حادى عشرى شوال، وخرج أهل المدينة والأكابر
للاستقبال، وسبق الناس ولى عهده الملك الصالح، فدخل المدينة بفأل سعيد
وأمر ناجح، وتوجه إلى مدرسة حسام الدين، وزار والده وأمواته الماضين،
وعزم على ترك التخت المنيف والتوجه إلى الحجاز الشريف، فلم يتركه الناس
خاصة وعامة وتراموا عليه، وقبلوا أقدامه فصعد إلى محل كرامته، واستقر
فى كرسى مملكته، وسيأتى لهذا الشأن مزيد وبيان، وما جرى من الأمور عند
قدوم تيمور، وحلول عسكره اللتام ماردين بعد خرابهم بمالك الشام، قيل لما
استقر الملك الظاهر فى مملكته اجتمع عنده جماعة من أدباء ندمائه، فاقترح
عليهم أن يتولوا فى ذلك شيئاً فقال أولاً بدر الدين حسن بن طيفور:
طنى تمر واستأصل الناس ظلمه

وشاعت له فى الخافقين الكبائر

لقد زاد بغياً فافرحوا بزواله

لأن على الباغى تدور الدوائر

فقال ركن الدين حسين ابن الأصغر أحد الموفقين ثانياً:

كان من رجال إذا ما الخطب نابهم.

ردوا الأمور إلى الرحمن واغتنموا

فسلموا الأمر لما أن رأوا حظرا

لذى الجلال فلما سلموا سلموا

فقال القاضى صدر الدين بن ظهير الدين الحنفى السمرقندى ثالثا:

طويل حياة المرء كاليوم فى غد

فخيرته أن لا يزيد على الحد

ولا بد من نقص لكل ريادة

وإن شديد البطش يقتص للعبد

ثم قال علاء الدين بن زين الدين الحصنى أحد الموقعين رابعاً بدوييت:

لا تحزن فالذى قضى الله يكون

والأمر الموكل إلى كن فيكون

ما بين تحرك بلحظ وسكون

الحالة تنقضى وذا الأمر يهون

فأعجبه ذلك وأجازه خمسة آلاف درهم وأصرفه والله أعلم.

ذكر رجوعه من ديار بكر والعراق وتوجهه إلى ممامة قفجاق ووصف ملوكها وممالكها وبيان ضياعها وممالكها

ثم إنه رجع من عراقى العرب والعجم، وقد ثبتت له فى ممالكها أية قدم، وذلك بعد أن قدم عليه الشيخ إبراهيم وسلمه بمقاليد ما بيده من أقاليم، فتقلد طوق عبوديته ووفق فى مواقف خدمته، وانتظم فى سلك عبده وأحله محل ولده، وسنذكر كيف تغرب عليه، ومن أى طريق تقرب إليه، فقصد دشت قفجاق وجد فى الوحده والأعناق، وهو ملك فسيح يحتوى على مهامة فيح وسلطانها توقناميش، وهو الذى كان فى حرب تيمور أمام السلاطين كالجاليش، إذ هو أول من بالعداوة بارزة، وفى بلاد تركستان وافقة وناجزة، ونجده فى ذلك كما مر السيد بركة وبلاد الدشت، يدعى بلاد قفجاق ودشت بركة والدشت باللغة الفارسية اسم للبرية، وبركة المضاف إليه هو أول سلطان أسلم ونشر بها رايات المسلة الإسلامية، وإنما كانوا عباد أوثان وأهل شرك لا يعرفون الإسلام والإيمان، ومنهم بقية يعبدون الأصنام إلى هذا الأوان.

فتوجه إلى ذلك الإقليم من طريق الدربند الجارى تحت حكم الشيخ إبراهيم، وهو سلطان ممالك شروان ونسبه متصل بالملك كسرى أنوشروان، وله قاض يدعى أبا يزيد يفضل على جميع أركان دولته بالقرب إليه، ويزيد هو دستور مملكته وقطب فلك سلطنته، فاستشاره فى أمور تيمور، وما يفعله أيطيعه أم يتحصن منه أم يفر أم يقاتله، فقال له: الفرار فى رأى أصوب والتحصن فى الجبال الشواهد أوثق عندى وأنسب، فقال: ليس هذا برأى

مصيب، أنجبوا أنا وأترك رعتى ليوم عصيب، وماذا أجيب يوم القيامة رب البرية، إذا رغيت أمورهم وأضعت الرعية، ولا عزمت أن أقاتله وبالحرب والضرب أقابله، ولكنى أتوجه إليه سريعاً وأتمثل بين يديه سامعاً لأمره مطيعاً، فإن ردنى إلى مكانى وقدرنى فى ولايتى فهو قصدى وغايتى، وإن أذانى أو عزلنى أو حبسنى أو قتلنى فتكفى الرعية مؤنة القتل والنهب والإسار، فيولى إذ ذاك عليهم وعلى البلاد من يختار.

ثم أمر بالإقامات فجمعت وأذن للجيش فتفرقت وتمنعت ومدن الولايات أن تتزين وتزوق، وبسكانها برأ وبحراً أن تأمن فتعامل وتتأنق، وبالخطب أن تقرأ فوق المنابر باسمه، وباللدناير والدراهم أن تضرب بوسمه ورسومه، ثم حمل التقادم والخدم وتوجه إليه بأطيب جاش وأثبت قدم، ولما وفد عليه وتمثل بين يديه قدم الهدايا والتحف، وأنواع الغرائب والظرف، وعادة الجغتاي فى تقديمهم الخدم أن يقدموا من كل جنس تسعة لينالوا بذلك عند المهدي إليه الكرامة والرفعة.

فقدم الشيخ إبراهيم من كل جنس من أصناف ما قدمه تسعة، ومن الممالك ثمانية فقال له المسلمون لذلك وأين تأسع الممالك، فقال: التاسع نفسى الفانية، فعجب تيمور هذا الكلام ووقع من قلبه بمكان ومقام، وقال: بل أنت ولدى وخليفتى فى هذه البلاد ومعتمدى، وخلع عليه خلعة سنية ورده إلى مملكته مستبشراً ببلوغ الأمانة، ثم فرقت تلك الإقامات وتوزعت الفواكه والطعامات ففضل منها أمثال الجبال عن ذلك العسكر الذى هو كالحصا والرمال، ثم تركه وسار إلى بلاد الشمال والتتار.

وسبب آخر لقصده تلك الممالك، وإن كان لا يحتاج إلى ذلك أن الأمير

إيدكوا كان عنده توقتاميش أحد رءوس أمراء الميسرة، والأعيان المتخذين فى
النائبات لدفعها، وأرباب الرأي والمشورة وقبيلته تدعى قومكومات، وقبائى
لترك كقبائى العرب واللغات كاللغات، وكان إيدكوا قد أحس من مخدومه
تغير خاطر خاف منه على نفسه، وكان توقتاميش شديد الباس، فخشى منه
حلول بأسه، فلم يزل منه متحرراً وللفرار إذا رأى منه ما يقتضى ذلك
مستوفراً، وجعل يراقبه ويراقبه ويداربه ويداربه.

ففى بعض ليالى السرور والنجوم الكاسات فى أفلام الطرب تدور،
وسلطان الخمرة قد أنفذ فى أسير العقال أمره طفح أن قال توقتاميش لإيكوا
ونور البصرة يخبر ويدكوا إن لى ولك يوم يسومك الخسف سوما، ويليك عن
موائد الحياة حيوما، وتملاً عين بقائك من سنة الفناء نوما، فقالطه إيدكوا
وباسطه وقال: أعيد مولانا الخاقان أن يحقد على عبد ما خان، وأن يذوى
غراس هو أنشأه أو يهوى أساس هو بناء.

ثم أظهر التذلل والخشوع والتمسك والخنوع، وتحقق ما كان ظنه وأعمل
فى وجه الخلاص ذهنه، واستعمل فى ذلك الذكاء والفطنة، وعلم أنه إن
أهمل أمره أو أمهله أنه مكث قليلاً واشتغل السلطان ثم اسنلت من بين
الحواشى والأعوان، وخرج فى حاجة كأنه يريد قاء حاجة، وأتى اصطبل
توقتاميش بجاش بجيش ولا يطيش، وعمد إلى فرس مسرجة منجبة منجية،
أقيمت معدة لكل شدة، وقال لبعض حاشيته المؤتمن على سره من أراد أن
يوافينى فعند تيمور يلاقينى، ولا تفش هذه الأسرار إلا بعد أن تحقق أنى
قطعت القفار، ثم تركه وسار فلم يشعر به إلا وقد سبق وركب طبقاً عن
طبق، وقطع على أنوال السير أطول الشقق، فلم يدركوا منه آثار، ولا لحقوا

منه ولا الغبار . فوصل إلى تيمور وقبل يديه وعرض حكاياته وأخبره كما جرت عليه ، وقال : أنت تطلب البلاد الشاحطة والأماكن الوعرة الساقطة ، وتتلو أسفار الأسفار ، وهذا المغنم البارد بين نصب عينيك ، تدركه هنيا مربيا يهينك ولينك ، ففيم التواني والتناقص ، وعدم التقاعد والتقاعس ، فانفض صميم فأننا لك به زعيم ، فلا قلعة تمنعك ولا منعة تقلعك ، ولا قاطع يدفعك ولا مقاتل يقاتلك ، فما هو إلا أوشاب وأوباش وأموال تساق ، وخزائن بأرجلها مواش .

ولا زال يحرضه على ذلك ويطالب ويفتل منه في الذروة والقارب ، كما فعل معه عثمان قرا يلوك حين جاء إلى تبريز بوسواسه ، وحرضه على دخوله الشام بعد قتله السلطان برهان الدين أحمد ومحاصرة سيواسه كما يذكر .

فتنهياً تيمور بأوفى حركة إلى استخلاص دشت بركة ، وكانت بلاداً بالتار خاصة بأنواع المواشى وقبائل الترك غاصة ، محفوظة الأطراف معمورة الأكفاف ، فسيحة الأرجاء صحيحة الماء والهواء ، حشمها رجاله وجنودها نباله أفصح الأتراك لهجة ، وأزكاهم مهجة ، وأجملهم جبهة وأكملهم بهجة ، نساؤهم شמוש ورجالهم بدور ، وملوكهم رءوس ، وأغنياؤهم صدور لا زور فيهم ، ولا تدليس ولا مكر بينهم ، ولا تلبيس دأبهم الترحال على العجل مع أمان لا يدانيه ، وجل مدنهم قليلة ومراحلهم طويلة .

وحد بلاد الدشت من القبلة بحر قلزم الظلوم الغشوم وبحر مصر المنقلب إليهم من بلاد الروم ، وهذان البحران كادا يلتقيان لولا أن جبل الجركس بينهما برزخ لا يبغيان ، ومن الشرق تخوم ممالك خوارزم وأترار وسغناق إلى غير ذلك من البلاد والآفاق ، أخذاً إلى تركستان وبلاد الجنا

متوغلا إلى حدود الصين من ممالك المغول والخطا . ومن الشمال أمير شير وبراروقفار ورمال كالجبال ، وكم فى ذلك من تيه تحير الطير والوحش فيه ، وهو لرضى أكابر الزمان غاية لا تدرك ، ونهاية لا تسلك . ومن الغرب تخرم بلاد الروس والبلغار ، وما للنصارى من الأقطار .

ويتصل بتلك التوم ما هو جار تحت حكم ابن عثمان مالك الروم ، وكانت القوافل تخرج من خوارزم وتسير بالعجل وهم آمنون من غير ريب ولا وجل ، وإلى قريم طولا ومسيرة ذلك نحو من ثلاثة أشهر ، وأما عرضا فهو بحر الرمل أمده سبعة أبحر لا يهتدى فيه الخريت ولا يقربه من الدعاميص كل عفريت ، فكانت القافلة لا تحمل زاداً ولا عليقا ، ولا يصحبون معهم رفيقا ، وذلك لكثرة الأمم ووفور الأمن والمأكـل والمشرب من الخشم ، فلا يصدرون إلا عن قبيلة ولا يزلون إلا عن من يكرم نزله ، وكأنه فيهم قيل الشعر :

مكتنفى جبل عكاظ كليها يدعوا وليدهم به عرعار

وأما اليوم فليس بتلك الأماكن من خوارزم إلى قريم من تلك الأمم واخشم متحرك ولا ساكن ، وليس فيها من أنيس إلا اليعافير والاعيس وتحت الدشت سراى وهى مدينة إسلامية البنيان ، بديعة الأركان ، وبأتى وضعها وكان السلطان بركة رحمه الله لما أسلم بناها واتخذها درا للملك واصطفاهـا ، وحمل أمم الدشت على الدخول فى حمى الإسلام ورعاها ، فلذلك كانت محل كل خير وبركة ، وأضيفت بعد إضافتها إلى قفجاق والى بركة ، أنشدنى لنفسه مولانا وسيدنا الخواجا عصام الدين بن المرحوم مولانا وسيدنا الخواجا عبد الملك ، وهو من أولاد الشيخ الجليل برهان الدين

المرغيناني رحمه الله في حاجي ترخان من بلاد الدشت مرجعه من الحجاز الشريف، سنة أربع عشرة وثمانمائة، وفي يومنا هذا أعنى سنة أربعين وثمان مائة انتهت إليه الرئاسة في السمرقند، قال وقد قاسى في درب الدشت أنواع النكال:

قد كنت أسمع أن الخبر يوجد في

صحراء تعزى إلى سلطانها بركة

بركت ناقة ترحالى بجانبها

فما رأيت بها في واحد بركة

وأنشدنى أيضاً لنفسه معرضاً لمولانا وسيدنا وشيخنا حافظ الدين محمد ابن ناصر الدين محمد الكردي البرازى، تغمده الله تعالى برحمته في الزمان والمكان المذكور:

مع تحفظ الناس في بلدة مصالحها في يدى حافظ

فحافظها صار سلطانها وسلطانها ليس بالحافظ

ولما تشرف بركة خان بخلعة الإسلام، ورفع في أطراف لدشت للدين الحنيف الأعلام، استدعى العلماء من الأطراف والمشايخ من الآفاق والأعناق، ليوقفوا الناس على معالم دينهم ويصروهم طرائق توحيدهم ويقينهم، ويذل في ذلك الرغبات، وأفاض على الوافدين منهم بحار الهبات، وفام حرمة العلم والعلماء، وعظم شعائر الله تعالى وشرائع الأنبياء، وكان عنده في ذلك الزمان وعند أوبيك بعده وجانى بيك خان مولانا قطب الدين العلامة الرازى، والشيخ سعد الدين التفتازانى، والسيد جلال الدين شارخ الحاجبية، وغيرهم

من فضلاء الحنفية والشافعية، ثم من بعدهم مولنا حافظ الدين البرازى،
ومولانا أحمد الخجندى رحمهم الله، فصارت سراى بواسطة هؤلاء السادات
مجمع العلم ومعدن السعادات.

واجتمع فيهم من العماء والفضلاء والأدباء والظرفاء، ومن كل صاحب
فضيلة وخضيلة نبيلة جميلة من مدة قليلة، وما لم يجتمع فى سواها والأفراء
سلا مصر ولا قراها، وبين بينان سراى وخراب ما بها من الأمكنة ثلاث
وستون سنة، وكانت من أعظم المدن وضعا وأكثرها للخلق جمعا.

حكى أن رجلاً من أعيانها هرب له رقيق وسكن فى مكان منحأ عن
الطريق، وفتح له حانوتاً يتسبب فيه ويحصل له قوتاً، واستمر ذلك المهين
نحواً من عشر سنين لما يصادفه فيه مولاه ولا اجتمع به ولا رآه، وذلك
لعظمها وكثرة المها، وهى على شط نهر متشعب من نهر أتل الذى أجمع
السواحون والمرخون وقطاع المناهل أنه لم يكن فى الأنهر الجارية، والمياه العذبة
النامية أكبر منه، وهو يأتى من بلاد الروس، وليس له فائدة سوى اغتيال
النفوس، ويصب فى بحر القلزم وكذلك جيحون وسائر أنهار العجم، مع أن
بحر القلزم محصور وعليه بعض ممالك العجم تدور مثل كيلان ومازندران
واستراباد وشروان، واسم نهر سراى سنكلا، ولا يقطع أيضاً إلا بالمراكب ولا
يثبت على قدم لراجل ولا راكب، وكم فرق أعظم من الفرات والنيل، ولما
استولى جانى بك خان على ممالك الدشت.

وصول ذلك الطوفان وجحفه أمم الدشت بعد كسره توقتاميش

فوصل تيمور إلى تلك الدارة بالعساكر الجراة بل بالبحار الزخارة،
ذوى السهام الطيارة والسيوف البتارة، والرماح الخطارة والأسود الهصاره
والتمور الكرارة، من كل شأن الغارة، مدكر فى العدو تارة حام حقيقته
وجاره، وعرييه وجاره وفريسته ونجاره والـج من بحر الحرب غماره مقاوم
أمواجه وتياره.

فأرسل توقتاميش إلى زعماء حشمه وعظماء أممه وسكان أحقافه وقطان
أطرافه، ورؤوس أسرته وضروس ميمته وميسرته، فاستدعاهم وإلى المقاتلة
والمقاتلة دعاهم، فباتوا فى صوب طاعته، يرفلون وهم من كل حذب
ينسلون، واجتمعوا شعوبًا وقبائل ما بين فارس وراجل وضارب ونابل، ومقبل
وقابل ومقاتل ومقاتل بمزهف وذابل، وهم قوم نبال النبال وعصال النضال لا
يطيشون مرتماوهم من بنى ثعل أرمى، إذا عقدوا الأوتار، وإن قصدوا الأقطار
وجدوا المقصد جثم أو طار، ثم نهض للمصادمة واستعد للمقاحمة والمقاومة
بعساكر كالرمال كثرة وكالـجبال وفرة.

ذكر ما وقع من الخلاف فى عسكر توقيتاميش وقت المصاف

وحين توافقت الصافات وتناقف الرخفان، برز من عسكر توقيتاميش
أحد رؤوس الميمنة له دم على أحد الأمراء، فطلبه منه وفى قتله استأذنه، فقال
له لينعم بالك وليجب سؤالك (نظم اتفاقى):

لكن نرى ما قد طرى على الورى ما جرى

فأمهلنا حتى إذا انفصلنا وعلى المراد حصلنا، أعطيتك غريمك وناولتك
خصمك، فأدرك منه ثأرك واقض أوطارك، قال: لا ولكن الساعة وإلا فلا
سمع لك ولا طاعة. فقال: نحن فى كرب مهم هو من مرامك أهم، وخطب
مدلهم هى من مصابك أعم، فاصبر ولا تعجل واطمئن، ولا توجل فما
يذهب لأحد حق ولا يضيع مستحق، فلا تلجئ الأعمى إلى الجرف، ولا
تكن ممن يعد الله على الحرف، فكأنك بلبيل الشدة وقد أدبر، وبصباح الفلح
وقد أسفر، فالزم مكانك ونازل أقرانك ولا تتأخر واصدع بما تؤمر.

فانجر ذلك الأمير بجمع كثير واتبعه كل باغ وغاو وقبيلته كلها واسمها
أقتاو، فانطلق يروم ممالك الروم، فوصل هو وحشمه إلى ضواحي أدرنة
واستوطن تلك الأمكنة، فاقتل بذلك عسكر توقيتاميش، وصارت سهام مرامه
عن مراميه تطيش، ولم ير بدءاً من اللقاء وصدق الملتقى فثبت جأشه وجيشه
وهزم وقاره وطيشه، وقدم من أطلابه الأبطال ورتب الخيل والرجال، وقوى
القلب والجناح وسدد النبل والصفاح.

فصل

وأما جيش تيمور فإنه مستغن عن هذه الأمور، لأن أمره معلوم ووصفه مفهوم، وسطر النصر والتمكين على الجبين راياته مرقوم. ثم تدانى الجيشان واضطربا وأخطلا بنار الحرب واصطلما، والتقت الأقران بالأقران، وامتدت الأعناق للضراب وشرعت النحور للطعان، واكفهرت الوجوه واغبرت وكشرت ذئاب الضراب وأهرت، وطاوشت غمور الشرور واستطربت، وتعانشت أسود الجنود وازبأرت، واكتست بريش النبال الجلود فاقشعرت وأهوت جباه الجبابة ورؤوس الرؤوس فى محراب الحرب للسجود، فخرت وثار الغبار وقام القتام، وخاص بحر الدماء كل خاص وعام، وصارت نجوم السهام فى ظلام القتام لشياطين الأساطين رجوماً رواشق، ولإمع السيوف فى سحب التراب على الملوك والسلطين نجومًا صواعق.

ولا زالت سلاهب المتايا تجوب وتجول، وضراغم السرايا تصوب وتصول، ونقع السنايك إلى الجو راقياً ونحيع السوافك على الدو جارياً، حتى غدت الأرض شتا والسماوات كالبحار ثمانياً، واستمر هذ اللدد والخصام نحواً من ثلاثة أيام ثم انجلى الغبار عن انهزام جيش توقتاميش، وولى الأدبار وفرت عساكره واندرعت وانتشرت جنود تيمور فى ممالك الدشت، استقرت واستولى على قبائلها وأتى على ضبط أواخرها وأوائلها، واحتوى على الناطق فمازه، وعلى الصامت فحازه، وجمع الغنائم وفرق المغانم، وأباح النهب والأسر. وأذاع القهر والقسر وإطفاء قبائلهم، وإكفاء معاقلهم، وغير الأوضاع وحل ما استطاع من الأموال والأسرى والمتاع، ووصلت طراشته إلى إزاق وهدم سراى وسرايحق وحاجى ترخان وتلك الآفاق، وعظمت منزلة إيدكوا عنده، ثم نقل قاصداً سمرقنده وصحب إيدكوا معه ورام منه أن يتبعه.

ذكر إيدكوا وما صنع وكيف خلب تيمور وصدعه

فأرسل إيدكوا قاصداً إلى أقاربه وجيرانه، وقبائل المسيرة كلهم من أصحابه وأحبابه، من غير أن يكون لتيمور بذلك شعور، أن يرحلوا من مكانهم ويتشمروا عن أوطانهم، وأن ينحو جهة عينها وأماكن بينها، صعبة المسالك كثيرة المهالك، وإن أمكنهم أن يقيموا في منزل واحد يومين فليفعلوا ذلك، فإنه إن ظفر بهم تيمور بدد شملهم وأبادهم كلهم، فامتلوا ما رسم به إيدكوا، وارتحلوا ولم يلوو.

لما علم إيدكوا أن جماعته فوروا وحشمة تيمور أعجزوا، قال له: يا مولانا الأمري إن لى من الأقارب والحشم الجم الغفير، وإنهم عضدى وجناحى، وبصلاح معاشهم صلاحى، ولا آمن عليهم أن يلحقوا بعدى من توقتاميش الجور والتعدى، بلا شك أنه يفنيهم ويبيدهم عن بكرة أبيهم، وحيث يمتنع عليه بجاه جنابك جانبى، يتقم لسوء طويته من حشمى وأقاربى، لأن ساء هذه الملاحم أنا أحمته، وفى مضايق البلا ومارق الانكسار أنا أقحمته، وعلى كل حال فلا يطيب على قلبى أن يساكنوه، وكيف يهنا لى العيش وأصدقاء مجاوروه، فإن اقتضت الآراء المنيرة إسرال قاصد إلى تلك الأماكن القبائل الكثيرة صحبة مرسوم شريف وأمر عال منيف، باستمالة خواطرهم وتطيب قلوب قبائلهم وعشائهم، والأمر بترحالهم وترفع حالهم فنكون جميعاً تحت الظل الشريف فى روض عيش وريق وريف، وتخلص من هذا الدشت الخلق الدست، وانقضى ما مضى من الأعمار، ونقضى الباقي

فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، فالرأى الشريف أعلا واتباع ما بيديه بالممالك أولى .

فقال له تيمور: أنت غديقها المرحب وجديلقها المحكب، ومع وجودك أنت من يسلك هذه المسالك، فقال: كل الأنام عبيدك وتابع مرادك ومريدك، ومن تراه لشيء أهلاً كان كل حزن عليه سهلاً. فقال: بل أنت أولى بهذا الأمر فكن ضمينه، أن لا يفتى ومالك فى المدينة.

فقال: أضف إلى واحداً من الأمراء ليكون لى عليهم وزراء مع مراسيم شريفة بما تقتضيه الآراء المنيفة، فأجابه وقضى مراده وأظاف إليه من أراده، فففى مار بهما ونجرا، ونحو مطلبهما نجرا، فلما فصل إيدكوا عن تيمور استدرك فارطة، وعلم أن إيدكوا خلبه عقله وغالطه، فأنفذ إليه قاصدا أن يكون إليه عائدا. الأمر قد سنج ورأى قد جتج، فلما قدم القاصد عليه وبلغ ما أرسل به إليه، قال له وللأمرى الذى معه، وقد نهى كلا منهم أن يتبعه أقضيا ماربكما وألقا صاحبكما وقبلا يديه، وأبلغاه أن أمد اجتماعنا هذا منتهاه، وإنى برىء منه إننى أخاف الله، ولم يمكنهما مخاشته، ولا وسعهما فى تلك المضايقة الشديدة إلا ملاينته، وفدعاه وانصرفا وما وقفا.

ولما بلغ تيمور ذلك تصرف تضرم وتبرج وتبرم، وحرق عليه الأرم وتندم ولات حين مندم، وكاد يقتل نفسه حنقا عليه وتجرع كاسات ويوم يعرض الظالم على يديه، ولم يمكنه التقيد به فلم يتحرك له بحركة وتوجه إلى ممالكه، ثم إلى سمرقند وتركه، فكان هذا آخر أمره من دشت بركة، حتى قيل إنه لم يخدع تيمور ويدهيه ويخلبه قولا وفعلا يظغيه سوى إيدكوا المار ذكره. أقول وسوى قاضى القضاة ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون المالكى الآتى حكايته وأمره.

قصة ما جرى فى نواحى الشمال بين توقتاميش وايدكوا من الجدل والقتال إلى أن تغير أمر كل منهم وجال

ولما انفصل تيمور بما حصل، واستقر فى مملكته بعدما وصل، اتصل إندكوا بحاشيته وابتهج بصاغيته وغاشيته، أخذ فى التفتيش عن أمور توقتاميش، وتحفظ منه وتحرز، ولناولته انتصب وتجهز، إن لم يمكنه رتق ما فتحه ولا رقع ما خرقة، وأيضاً ما أمكنه الاستقلال بادعاء السلطنة إن لم أمكن ذلك لادعاء تيمور الذى ملك الممالك، فنصب من جهته سلطاناً وشيد فى دار الملك حاناً، ودعاد رؤوس الميسرة ووجوه قبائلها إليه فلبوا دعوته وأقبلوا عليه، أن كانوا أقوى من غيرهم آمنين من ضرر الجغتاي وضيهرهم، فقوى بذلك سلطانه وعمر بقفول الجنود خانة، وثبت فى ذلك دار الملك أساسه وعلت أركانه.

وأما توقتاميش فبعد أن تراجع وهله، واستقر فى دماغه عقله، ورحل عدوه وحصل هدوه، جمع عساكره واستنجد قومه وناصره، فلا زالت ضروب الضراب لحراب الحروب بين وبين إيدكوا قائمة، وعيون السكون كجفون لزمان المتعamy عن صلحهما نائمة، إلى أن بلغ مصافهم خمس عشرة مرة، يدال على هذا على ذاك تارة وذاك على هذا كرة، فأخذ أمر قبائل الدشت فى التناقص والشتات، وبواسطة قلة المعقل والحصون وقعوا فى الانبثاث والانبثات، لا سيما وقد تناوسهما أسدان وأظلم عليهما نكدان، وقد كان جلهم ذهب مع تيمور، وأمسى وهو فى أمره محصور، وفى حصره

مأسور، فانفلت منهم طائفة لا تحصى ولا تحصر، ولا يمكن ضبطها بديوان ولا دفتر، وانحازت إلى الررم والروس وذلك لحظهم المشئوم وجدهم المعكوس، فصاروا بين مشركين نصارى ومسلمين أسارى، كما فعله جبلة بنى غسان واسم هذه الطائفة قرا بوغدان.

فبواسطة هذه الأسباب آل عامر الدشت إلى الخلا والخراب والتفرق والتياب والانفلات والانقلاب، وصارت بحيث لو سلكها أحد من غير دليل ورصد فإنه يهلك على الحقيقة لإضاعه فى المجاز طريقه، أما صيفًا فلأن الرياح للرمال تسفى فتخفى الطريق على المارة وتعفى، وأما شتاء فلأن الثلج النازل فيها يتراكم عليها فيغطيها.

إن كل أرضها مجاهل ومنازلها مداهل ومراحلها مهامة ومناهل، فعلى كل تقدير سلوكها مهلك عسير، فكانت الوقعة الخامسة عشر على إيدكوا فتشت وتشرد وتبدر وتبدد وغرق هو ونحو من خمس مائة رجل من أحظائه فى بحر الرمل، فلم يشعر به أحد واستبد توقتاميش بالملكة وصفا له دشت بركة، وكان مع هذا متشوقًا لأخبار إيدكوا وأحواله، متشوقًا لمعرفة كيفية هلاكه فى رماله، ومر على ذلك نحو من نصف سنة، وانقطع أثره عن الأعين وخبره عن الألسنة، وإيدكوا كان دميمص تلك الأعقاص والأحقاف، ومن قطع بسير أقدامه أديم تلك النعال والأخفاف، فصار يتربص ويتبصر ويتفكر معنى ما قلته ويتدبر، وهو أرقب الأمر وانتظر فرحا وانتهاز وقتها، إذا ما جاء وأمزع الصبر بالحجى فيه ورق. التوت صار يباجا، فلما تيقن أن توقتاميش آيسه وتحقق أن ليث المنايا افترسه، شرع يتجسس أخباره، ويتتبع ويستشرف آثاره، ويتطلع إلى أن تحقق من الخبر أنه فى منتزه منفرد عن

العسكر، فامتطى جناح الخيل وارتدى جنوح الليل ووصل السير بالسرى، واستبدل السهر بالكرى، فارعاً إلى الهضاب فروع الجناح ممترعاً من الرى اقتراع الندا حتى وصل إليه تيمور، وهو لا يعلم وانقض عليه كالقضاء المبرم، فلم يبق إلا والبلايا احتوشته، وأسود المنايا انتوشته، وثعابين الرماح وأفاعى السهام نهشته، فحاولهم قليلاً وجاولهم طويلاً ثم انجدل قتيلاً، وكانت هذه المرة من الوقعات السادسة عشر خاتمة التلاق وحاكمة الفراق.

فاستقر أمر الدشت على متولى إيدكوا وصار القاصى والدانى والكبير والصغير إلى مراسيمه يصغوا، وتفرقت أولاد توقتاميش فى الآفاق: جلال الدين وكريم بردى فى الروس، وكوبال وباقى إخوته فى سغناق.

واستمر أمر الناس على مراسيم إيدكوا يولى السلطنة من شاء ويعزله منها إذا شاء، ويأمر فلا يخالفه أحد، ويحد فلا يجاوز ذلك الحد، فمن ولاء قوبليغ تيمور خان أخوه رشادى بيك خان، ثم فولاه خان بن توليغ تيمور، ثم أخوه تيمور خان. وفى أيامه تخبطت الأمور فلم يسلم لإيكوا زمامه وقال: لا كيد له ولا كرامة، أنا الكبش المطاع فى الكون مطيعاً، والثور المتبوع فكيف أصير تبيعاً، فالتحم بينهما الشقاق ونجم من ذوى الضغينة مخبو النفاق، وجرت شرور ومحن وحروب وأحن، وبيننا ظلمات الفتى احتبكت ونجوم الشرور فى دياجى الدشت بين الفريق اشتبكت، وإذا بيدى الدولة الجلالية من مشارق السلالة التوقتاميشية بزغ متهللاً، ففزع من بلاد الروس مقبلاً، وكانت هذه القضية فى شهور سنة أربعة عشرة وثمانمائة، فتعاظمت الأمور وتفاقت الشرور، وضعف حال إيدكوا وقتله تيمور.

واستمر النفاق والشقاق بين ملوك ممالك قبجاق، إلى أن مات إيدكوا

غريقًا جريحًا، وأخرجوه من نهر سيحون ببر الحوق وألقوه طريحًا رحمه الله .
وله حكايات عجيبة وأخبار ونوادر، وسهام ذراه فى أعدائه مصيبة، وأفكار
مكائد وواقعات مصائد وله فى أصول فقه السياسة نقود وردود البحث فيها
يخرج عن محصول المقصود.

كان أسمر شديد السمرة، ربعة مستمسك البدن شجاعًا مهابًا، ذا رفعة
جوادًا حسن الابتسامة، ذا رأى مصيب وشهامة، محبًا للعلماء والفضلاء مقربًا
للصلحاء والفقراء، يداعبهم بالطف عبارة وأظرف إشارة، وكان صواما
وبالليل قواما متعلقًا بأذيال الشريعة، وقد جعل الكتاب والسنة وأقوال العلماء
بينه وبين الله تعالى ذريعة، له نحو من عشرين ولدًا كل منهم ملك مطاع وله
ولايات على حدة، وجنود وأتباع وكان فى جماعات الدشت إمامًا نحوًا من
عشرين عامًا، وأيامه فى جبين الدهر غرة، وليالى دولته على وجه العصر
طرة.



رجعا إلى ذكر من أمور تيمور ودواهييه

ولما وصل تيمور إلى أذربيجان وأثبت عساكره فى ممالك سلطانية
وهمدان، واستدعى المل الظاهر سلطان ماردين وأطلقه وأنعم عليه، كما ذكر
واستوثقه وولاه ما بين الشام والعراق، وأحكم تلك الممالك بما وسعه من
المكر والنفاق، ولم يمكنه الإقامة بملك العجم لما معه من الدشت من أمم.

وجه عنان قصده إلى ممالك سمرقند فنفض فيها أوطابه وفرغ عن ما كان ملا به من الدشت جرابه، ثم خرج من غيسر. توان وقطع جيحون بالوظفان، ووصل إلى خراسان وواصل السير إلى أذربيجان وتوجه إليه ظهر بن حاكم أذربيجان متلقيا طوق مراسيمه بحبل الإطاعة والإذعان، وأهمل أمر ماردین وتناساها ولم يتعرض إلى ما يتعلق بها من مدنها وقراها.



ابتداء ثوران ذلك القيام فيما يتعلق بممالك الشام

ثم إنه قصد الرها ورام نهبها، فخرج إليه شخص من أعيانها ورؤساء قطانها، يقال له الحاج عثمان ابن السكشك، فصالحه واشتراها بجمل من الأموال وحملها إليه وأداها، فعند ذلك أرسل إلى القاضي برهان الدين أبي العباس أحمد الحاكم بقيصرية وتوقات وسيواس من الرسل عدة، ومن الكتب شدة، يبرق فيها ويرعد ويرغى في بحرها ويزبد، ويقيم بفحاويها ويقعد، ومن جملة فحواه ومضمون ذلك وما حواه أن يخطبوا باسم محمود خان أو سيور غتمش خان، وباسمه ويضربوا السكة على طرز ذلك ورسمه كما هو دأبه، ويتحمله رسوله وكتابه فلم يؤمن له السلطان برسول ولا بكتاب ولا يتقيد له بجواب عن خطاب، بل قطع رؤوس الرؤوس من قصاده، وعلقها في أعناق الباقيين وأشهرهم في بلاده.

ثم جعلهم شطرين وقسمهم نصفين وأرسلهم إلى جهتين، للسلطان

الملك الظاهر أبى سعيد برقوق منهم جزء مقسوم، والجزء الآخر إلى السلطان أبى يزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان حاكم ممالك الروم، وأخبرهما بالقضية عن حلية، وما ورد عليه من خطاب تيمور الممقوت، وأنه جعل فى ذلك جواباً بالسكوت، وقتل قاصديه نكاية ولم يزد على هذه الحكاية، وإنما فعل ذلك برسله وقصاده استهواناً به واستعظماً لما فعله بعباد الله وبلاد.

ثم قال القاضى: اعلموا أنى جاركما وديارى دياركما، وأنا ذرة من غباركما، وقطرة من بحاركما، وما فعلت معه هذا مع ضعف حالى وقلة مالى ورجالى وضيق دائرتى وبلادى ورقة حاشيتى طريفى وتلاذى إلا اعتماداً على مظاهرتكما واتكالا على مناصرتكما، وإقامة لإعلام حرمة دولتكما، ونشر الرايات هيبة صولتكما، فإنى حبة ثغركما ووقاية نحركما، وجاوش جنودكما، وجالس بنودكما، ورتبة طلائعكما، وطليلة وقائعكما، وإلا فمن أين لى مقاومته وإنى تيسر لى مصادمته، وقد سمعتم أحواله عرقتم مشاهدته وأفعاله.

فكم من جيش كسر وقتل وأسر، وملك ملك وملك أهلك، وستر هنك ونفس سفك، وحصن فتح وفتح ومنع ومال ونهب وعز سلب وصعب أذل، وخطب أحل وعتل أزل، وفهم أخل، وخيل هزم وأس هدم، وسول قطع وقصد منع وطود ثلغ، وطفل فجع ورأس شدخ وظهر فصخ، وعقد فسح ونار أشب وريح أهب وماء أغار ورهج أثار، وقلب شوى وكبد كوى، وجيد قصم وطرفى أعمى وسمع أصم، فإنى لى ملاطمة سيل العرم ومصارمة الفيل المغتلم، فإن نجدتمانى وجدتمانى، وإن خذلتمانى بذلتمانى، ويكفيكما هيبة وشهرة وناهيكما أبهة ونصرة، إن من خدامكما قدامكما من

كافكما وهاكما، وإن أصابني والعياذ بالله منه ضرر، وإن تطاير إلى مملكتي
من جمرات شره شرر، ربما تعدى ذلك الفعل بواسطة الحوادث إلى مفعول به
ثان وثالث. قلت شعراً بسبب الشدائد:

والشر كالنار تبدو حين تقدحه

شرارة فإذا بادرته خمدا

وإن توانيت عن إطفائه كسلا أورى

قبائل تشوى القلب والكبد

فلو تجمع أهل الأرض كلهم

لما أفادوك فى أخمدها أبدا

وإنما أهملت خطابه وأمهلت جوابه لترسما فاقتفى وتآمرا فاكتفى،
وثوسا فأبى عليه وتجاوبا فيصل ذلك كذلك منى إليه.

ذكر ما أجاب به السلطان أبو يزيد للقاضى برهان الدين أبو العباس سلطان ممالك سيواس

فأما السلطان أبو يزيد بن عثمان، فإن هذا الفعل أعجبه، ونعم هذا
القول أطربه، واستحسن هذا الحكم من القاضى واستصوبه، وأرسل إليه يقول
إن ارتدع تيمور عنه وانتهى، وإلا لنأتينه بجنود لا قبل له بها، فليقابله بعين

قريرة وليثبت له بحسن البصيرة وإخلاص السريرة، ولا يجزع من جنوده الغزيرة، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، وإن اقتضت آراؤه السديدة وأحكامه السعيدة، توجه بنفسه إليه وقدم بالغزاة والمجاهدين عليه ليرفع أعلامه وينفذ أحكامه، ويكون لسيفه يداً ولجناحه عضداً، ثم أرسل له كتابه وانتظر جوابه، وأما الملك الظاهر فما رأيت له كتاباً ولا حققت منه له جواباً، والظاهر أن جواب الملك الظاهر أبى سعيد كان شقيق جواب السلطان المغازى أبى يزيد، إن أفعالهما وأقوالهما فى الباطن والظاهر كانت من باب توارد الخاطر، ثم إنى رأيت كتاباً يتضمن خطاباً وجواباً، وذكر أن الخطاب من ذلك الغادر والجواب من الملك الظاهر، وكلامهم سوى أى الكتاب غير زاه ولا زاهر.

أما صورة الخطاب فهو قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه، لا نرق لشاكي ولا نرحم عبدة باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل كل الويل لمن لم يمثل أمورنا، فإننا قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد، وأظهرنا فى الأرض الفساد، قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، خيولنا سوابق ورماحنا خوارق، ملكنا لا يرام وجارنا لا يضام، فإن أنتم قبلتم شرطنا وأصلحتم أمرنا، كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا.

فإن أنتم خالفتم وأبیتم، وعلى بغيكم تماديتم فلا تلومن إلا أنفسكم، فالحصون منا لا تمنع، والعساكر لدينا لا ترد ولا تدفع، ودعاكم علينا لا يستجاب ولا يسمع، لأنكم أكلتم الحرام وضيعتم الجمع، فأبشروا بالذلة

والجزع، فالיום تجزون عذاب الهون، وقد زعمتم أننا كفرة، فقد ثبت عندنا أنكم فجرة، قد سلطنا عليكم إله له الأمور مقدرة، والأحكام مدبرة، كثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل، قد ملكنا الأرض شرقاً وغرباً، وأخذنا منها كل سفينة غصبا، وأرسلنا إليكم هذا الكتاب فأسرعوا في رد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء ولم يبق لكم باقية فينادى عليكم منادى الفناء، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا، وقد أنصفناكم أن راسلناكم ونثرنا جواهر هذا الكلام عليكم والسلام. وهذه هي صورة الجواب.

وقيل هو أنشأ القاضى علاء الدين بن فضل الله، وما أظن لذلك صحة وهو بسم الله الرحمن الرحيم قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير، حصل الوقوف على كتاب مجهز من الحضرة الإيلخانية، والسدة العظيمة الكبيرة السلطانية، قولكم إنا مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه، لا نرق لشاكى ولا نرحم عبدة باكى، قد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فهذا من أكبر عيوبكم، وهذا من أقبح ما وصفتم بأنفسكم وكيفيكم بهذه الشهادة واعظاً إذا تعظمت، قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ففى كل كتاب ذكرتم وبكل قبيح وصفتم وزعمتم، إنكم كافرون ألا لعنة الله على الكافرين.

من تشبه بالأصول لا يبالى فى الفروع، نحن المؤمنون حقاً لا يصدنا عيب، ولا يداخلنا رب، القرآن علينا نزل، هو رحيم بنا لم يزل، وقد عمنا ببركة تأويله، وقد خصنا بفضل تحريره وتحليله، إنما النار لكم خلقت ولجلودكم أضمرت، إذا السماء انفطرت، ومن عجب العجائب تهديد الليث

بالثوث والسباع بالضباع، والكماة بالكراع، نحن خيولنا عريية، وهممنا عليه ولقناة شديدة المضارب ذكرها فى المشارق والمغارب، إن قتلناكم نعم البضاعة، وإن قتلتمونا بيننا وبين الجنة ساعة، ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، وقولكم قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالجزار لا يبالى بكثرة الغنم، وكثير من الحطب يكفيه قليل من الضرم، فلم من فئة قليلة غلبة فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين.

الفرار لا من الرزايا نحن من المنية فى غاية الأمنية، إن عشنا عشنا سعدا، وإن متنا متنا شهداء، ألا أن حزب الله هم الغالبون، أبعد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا، فهذا الكلام فى نظمه تركيك، وفى سلكه تفكيك، أو كشف لبان قبل البنيان، أكفر بعد إيمان، أم اتخذتم رباً ثانياً، لقد جبتم شيئاً إذا تكاد السموات ينفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً، قل لكاتبك الذى رصع رسالته ووصف مقالته، حصل الوقوف على كتاب كصرير باب أو طنين ذباب، وسنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً، وما لكم عندنا إلا السيف بقوة الله تعالى.

ثم إنى وجدت فى نسخة محا مر الدهور، بتقادمة مدادها ويض كر العصور، على وجه الزمان من شبيها سوادها، صورة هذا الكتاب وهية هذا الخطاب من إنشاء نصير الدين الطوسى على لسان هولاكوا التترى، مرسلأ ذلك إلى سلطان مصر وصورة الجواب بعينه إنشاء من كان فى ذلك العصر.

ولما بلغ تيمور ما فعله السلطان برهان الدين بقصادة حتى ورنق بجناحي الغضب، وفار دم قلبه ورفق، وغضب غضباً فكاد من الغيظ أن يختنق،

ولكن علم أن فى الزوايا خبايا وللإسلام جنودا وسرايا وفى عزيز الدين من
نيوٲ المسلمين بقايا، وإن أمامه أسوداً هوامر وجوارح كواسر فتصبر للزمان،
ورجع القهقري وتربص بهم الدوائر.

ذكر توجهه العساكر الشامية لدفع تلك الداهية

مع أن ملك الأمراء بالشام، هو تنم خرج بالعساكر إلى أرزنجان، ورجع
وهى مغتنم، ولم يروا فى ذلك ضيراً ورد الله الذين كفروا يغيظهم لما ينالوا
خيراً، وعاد من جيش الإسلام كل أسد هصور، وقد اصطاد من دوركى ما
ضاهى صورته وما جاء نور على نور.

ذكر رجوع ذلك كنود وقصده استخلاص بلاد هنود

ثم إن تيمور بلغه أن سلطان الهند فيروز شاه انتقل من زحمة الدنيا إلى
رحمة الله، ولم يكن له ولد يكون له خليفة، فسعى تيمور لأن يتولى بحكم
الوفاة والشعود بتلك الوظيفة، ولما فاض صاحب الهند صارت الناس فوضى
ومرج بحر أمر الهند وماج، فجعل كل يخوض خوضاً، فعز بعض الناس
وبعضهم ذلوا، ثم اتفقوا على تولية وزير اسمه ملوا فراب من أمر الناس ما

انصدع، ورفع من استحق الرفع، وخفض من بغير استحقاق ارتفع، فعصى عليه أخوه شارنك خان متولى مدينة مولتان، ووقع بينهم التخالف وافترق ملأ الهنود فرقاً وطوائف، فكان اختلافهم لتيমور أحسن مساعد وأقوى عضد وساعد. قلت وتشتت الأعداء فى آرائهم سبب لجمع خواطر الأحاب، وحين وصل تيمور إلى مولتان، عصى عليه شارنك خان، فأقام يحاصرها وقعد يضاجرها، وكانت عساكرها جمّة وليالى كتائبها السود مالمهمة، حتى قيل إن من جملة عسكرها الثقيل، كان ثمان مائة فيل، مع أن كل أمير من أمراء الهند، ورئيس من أكناف السند كان قد لفلق أذياله ولملم رحاله ورجاله وضبط لحوائجه أقياله، وربط لحوائجه أفياله. واستمر ذلك اللزد والحام نحواً من ثلثى عام إلى أن استخلصها ومن بده خلصها.

فصل

ولما استولى مدة واستقرار الهند عليه، وبلغه توجه تيمور إليه، جد واجتهد واعدد العدد والعدد واشتد الإمداد والمدد، وأهلك ما لا لبدأ، وحسب أن لن يقدر عليه أحد، وفرق الأموال وجمع الخيل والرجال، وأحضر ما فى مملكته من الأفيال، ثم حصن مدائنه ومكن كمائنه، وشيد على الأفيال للمقابلة أبراجاً واحكم فى تحرير المناضلة طريق فضة فيها وذهب ومنهاجاً.

وجد تيمور فى السير حتى كاد يسبق الطير إذا لم يكن له فى ذلك الإرث من يحجبه، ولا فى عساكر سلطان الهند من يقربه، فلما بلغ الهنود بالجنود برزت إليه بالجنود الهنود، وقدموا الفيول لتفنى الخيول، وقد بنوا على كل فيل من الأتراس برجاً، وعبوا فى كل برج من المقاتلين من يخشى فى المضائق ويرجى، بعد ما جعلوها من أكبر كسوانات فى حصار، وعلقوا عليها

من القلافل والأجراس الهائلة ما يدعوا العفاريت إلى الفرار، وشدوا فى خراطيمها سيوفًا يصلح أن يقال إنها سيوف الهند تدعو الرءوس شعلة لئيبها فتخر لهما ساجدة، فيحق أن يقال ها نار الستد، وهذا خارج عما لتلك الأفيلة من الأنياب التى هى فى الحروب كالحراب، إن هى فى أداء ما وجب عليها نصاب كامل وسهامها التى هى مصيبة فى نحور من يقابلها، تقصم كل نابل وذابل، فكانت تلك الأفيال فى وصف القتال كأنها غيل بأسودها ماشية، أو صياص بجنودا جارية وأطواد بنمورها عادية، أو بحار بإفراج أمواجها رائحة جابية جابية، أو ظلل من الغمام بصواعقها هامية، أو لياالى الفراق بنوائبها السود سارية، وخلفها من الهنود فوارس الحرب، فى أبطال الطعن والضرب سود الأسود، وطللس الدياب ونمش الفهود بالذابل الخطى، والصارم الهندى، والنبل الخلتجى مع قلب ذكى وجنان جرى، وعزم قوى وصبر رضى.



ذكر ما فعله ذلك المحتال فى خديع وصبر فى أجفان الأفيال

وحين اطلع تيمور على هذه الحال وتحقق أن شقة عساكر الهندى نسجت على هذا المنوال، أعمل المكيدة فى فلع هذه المصيدة، ومرق لهم بمرقة قدر طبخها أخثر من العصيدة، فبدا أولا فى الاختيال بدفع مكيدة الأفيال

فاستعمل الفكر الجديد فى اصطناع شوكات من حديد مثلثة الأطراف، مستبدعة الأوصاف كأنها فى شكلها الخبيث طرق القائلين بالتثليث، أو وضع أصحاب الأوفاق أعدادهم المنسوبة إلى الوفاق، فصنعوا له من ذلك الألوف، ثم عمد إلى مجال الفيول فى الصفوف.

نشر ذلك لها ليلا ولأهلها حربا، وويلا ورقم لذلك حدا، ورسم أن فعل ذلك الفعل لا يعدى، ثم ركب أطلابه وأبطاله، ورتب أسوده وأشباله وهذب خيله وشذب رجاله، وارصد يمينا وشمالا من عسكره للعدو كميناً، حين بت سلطان السيادة فى جوانب الآفاق خيله، وصم جيش الظلام رجاله أنجمه، وشمر للهزيمة ذيله، مشى عسكره إلى ذلك الحدر وبدأ حتى وصل إليه.

ولما تراءى الجمعان نكص على عقبه، ثم نكب بالخيول على طريق الفيول، فتصوروا أن خيوله جفلت ولشمس نصرته انكسفت، وكواكب جيشه أفلت، فأقلعوا قلع الفيول فاهزمت انهزام السيول، وساقوها خلف عساكره سوقاً على ذلك الشوك الملقى واتبع الفيالة من الهنود الرجالة والخيالة، فلما وصلت سيول الفيول من مطارح الشوك إلى المقاسم، وأخذ ذلك الشوك فى تقبيل أيديها وأرجلها وتشبث بتلك المناسم، وأحست قوائمها بشوكها رجعت القهقرى، بل وولت الأدبار لعدم عقلها فنههوها ونهوها عن التولى، فلم يفدها النهى والنهضة وحازت فى التقدم إلى جهة العدو، كفيل أبرهة، ثم لم يسعها لما أضرها الشوك فى تلك الحرار إلا التولى من الزحف والفرار فحطمت الفيول الرجال والخيول، وصارت القتلى كالجبال والدماء فى أوديتها سيول وخرج عليهم الكمين من ذات الشمال وذات اليمين فأبادوا سائرهم

وألحقوا بأولهم آخرهم، وقيل إن بلاد الهند ليس فيها أباعر، وإن منظرها
يجفل الفيل فيصيروا أبعد نافر.

فأمر تيمور أن يهيا خمس مائة بعير جفول وتعباً رواحلها والحمول قصباً
محشواً بفتايل وقطن بالدهن مبلول، وأن تساق أمام الركبان إلى أن يترأى
الجمعان، فلما تصافوا ولم يبق إلا القتال أمر أن تطلق النيران فى تلك الحشايا
والأحمال، وتساق إلى جهة مواجهة الأفيال فلما أحست البعران بحرارة
النيران رغت ورقصت ونحو الفيول شخصت وصارت كما قيل:

كأنك بين جمال بنى أقيش يقعقع بين رجليها بشن

فلما رأت الفيلة النيران، وسمعت رغاء البعران ونظرت إلى الإبل كيف
خلقت وشاهدتها، وقد غنت ورقصت وبإخفاقها صففت الوت على عقبها
ناكسة لسائقها وأنهصه، ولراكبها واقصة، فحطمت الخيالة وهشمت الرجالة،
وتلا الكافرون آية النصر على أصحاب الفيل، وأرسلوا عليهم من السهام طيراً
أبابيل، فلم ينتفعوا بالأفيال بل أفنت الأفيال غالب الخيل والرجال، ثم
تراجعت عساكر الهنود وأبطال الخيالة من الجنود، وكتبوا الكتابائب ونبذوا
النبوذ، ثم تراموا وتصافوا وتضاموا وتخافوا، وهم ما بين مجوسى ومسلم
ومبارز منتسب وبالشعار معلم، وكل فى سواد اللون من الحديد كقطع الليل
المظلم، ثم تدانوا مع التتار وتراجعوا.

وبعد المراسقة بالسهاد بالرماح تنافقوا ثم بالسيوف تضاربوا، ثم تلوا
وتواثبوا ثم تراموا عن ظهور الخيل، واعتكر فى ذلك القتام النهار بالنبيل، ولا
زالت تختلف بينهم الضربات وتصور فيهم الحملات وتحمد منهم الصولات
حتى حتى شلا لسان القضاء والقدر، إن فى اختلاف الليل والنهار لآيات، ثم

تناهى الاقتحام وانفرج الازدحام، وأسفرت القضية عن أن برد حامى الهند،
فانهزم جيش حام وحل بالهنود الويل ومحا الله آية الليل .

ولما تفرقت الهنود وقلوا وثب تيمور وحكمه فى هنده وإلى الآن كما
ثبت أوتاده فى سمرقنده فجمع أقيالها وربط أفيالها، وضبط أحوالها وما غفل
عن ضبطه ما عليها وما لها، وسلم أفيالها ثم توجه نحو تحتها وهى مدينة
دهلة، مصر عظيم جمع فنون الفضل وأهله معقل التجار ومعدن الجواهر
والبهار، فتمنعت عليه بالحصار فأحاط بذلك لسواد الأظم من عساكره السواد
الأعظم، ومن معه من الخلائق والأمم، فقليل أن هذه العساكر والخلائق مع
عظمتها وكثرها لم يقدروا أن يكتنفوها لسعة دائرتها، وإنه أخذها من أحد
جوانبها بالمحاصرة، وتم الجانب الآخر ثلاثة أيام فى المجاذبة والمكاشدة، لم
يدر من فى الجانب المحاصر لبعده المدى وكثرة الأمم ما فعل بالجانب الآخر .



وصول الخبر إلى ذلك المعقوق

ب وفاة الملكين أبى العباس أحمد والملك الظاهر برقوق

وبينما هو قد استولى على كرسى الهند وأمصاره، واحتوى على ممالكه
وأقطاره، وبلغت مراسيمه أعماق أنجاده وأغواره، وانبث جيشه فى ولاياتها
سهلا ووعرا وظهر، فسادهم فى رعايها براً وبحراً، ثم ورد عليه المبشر من
جانب الشام أن القاضى برهان الدين أحمد السيواسى والملك الظاهر أبا سعيد

برقوق، انتقلا إلى دار السلام فسر بذلك صدره وانشرح وكاد أن يطير إلى دار السلام، فسر بذلك صدره وانشرح، وكاد أن يطير إلى جهة الشام من الفرع، فنجز بسرعة أمور الهندي، ونقل إلى مملكته من فيها من العساكر والجند بما أخذه من الأثقال، ونفائس الأموال، ووزع ذلك الجمهور من ذلك الجند المأسور، على أطراف ما وراء النهر من الحدود والشغور، وأقام في الهند نائباً، من غير وجل ثم حذر عن سمرقند، قاصداً إلى الشام على عجل ومعه من الهند رءوس أجنادها ووجوه أعيانها وسلطان أفيالها وأفيال سلطانتها، ثم إه صار قرير العين بتلك الطوائف الطافية في أوائل سنة اثنين وثمانمائة، وانصب بذلك الطوفان من جيحون إلى خراسان.

وكان قد قرر إلى ولده لصلبه أمير إنشاء مملكة تبريز، وتلك الديار والسلطان أحمد قد رجع إلى بغداد، وهو مستوفر للفرار وسبب حركته إلى بلاد الشام، وكان في إهلاك الحرث والنسل مالكي الالتزام ما فعله القاضي برهان الدين حاكم سيواس بقصادة الإغتمام، لكنه أراد أن يعمه مقصده ويغطي عن الناس مصدده ومورده. قلت بديهاً:

وأنى يختفى للشمس ضوء	عن الأبصار في ضحو النيار
وكيف يسر ذفر المسك يخشى	خياشيم الورى في يوم حار
وأنى يختفى للطلبل صوت	عن الأسماع في وقت النفر

فإن قصده كان بعيد المدد طويل الأمد محتاجاً إلى إعداد أهبة السلوك، ويخشى أن تضاهى غزاة تبوك، وأظهر سبباً أبطن فيه ما رامه من فكره ودواهيته، وأشاه ذلك وأذاع فامتألت منه القلوب والأسماع.

ذكر معنى كتاب وفد وهو فى الهند عليه زعموا أن ولده أميرانشاه المذكور راسله، وأنهى إليه

يقول على ما قيل فى بعض ما قالوه وحاوله، إنك قد عجزت لكبر
سبك وشمول الضعف بيدك ووهنك، عن إقامة شعائر الرئاسة والقيام بأعباء
الإيالة والسياسة، والأولى بحالك إن كنت من المتقين أن تقعد فى زاوية
مسجد وتعبد ربك، حتى يأتىك اليقين، وقد ثم فى أولادك وأحفادك من
يكفيك أمر رعيتك وأجنادك، ويقوم بحفظ مملكتك وببلادك، وأنى لك بلاد
وأنت عن قريب هالك.

فإن كان لك عين باصرة وبصيرة فى نقد الأشياء ماهرة، فاترك الدنيا
واشتغل بعمل الآخرة، ولو ملكت ملك شداد، ورجع إليك اقتدار العمالقة
وعاد وساعدك النصر والعون، حتى بلغ مقام هامان وفرعون ورفع إليك
خراج الربع المسكون، حتى تفوق فى جمع المال قرون، وصرت فى خراب
البلاد كبختنصر الذى طول الله تعالى له فقصره وبالجمل فلو بلغ سلطانك
الأقطار، وقضيت من دنياك غاية الأوطار، وصار عمرك فيها أطول الأعمار
وخدامك فيها ملوكها الأعمار، فقصر جنالك قيصر، وكسر كسرى فانكسر،
وتبعك تبع النجاشى وأوساط الملوك والأقيال، غدوا لك خداما وحواشى
وقعد لك فغفور بالثنافة، وأجنبى على الخان وخاقان، فوجه كل فى رقعة
دستك شاه، وأذعن لك فرعون مصر وسلطانها، وهى لك على يد خير
الدين إيران الدنيا وتورانها، وآل أمرك إلى أن كان لك سكان الأقاليم

وقطانها، أليس قصارى تطاول قصورك إلى القصور، ونهاية كمالك النقص
وحياتك الموت وسكانك القبور. قلت :

فعش ما شئت فى الدنيا وأدرك

بها ما رمت من صيت وصوت

فخيطة العيش موصول بقطع

وحبل العمر معقول بموت

ويل :

قميص من القطن من حلة

وشربة ماء قراح وقوت

ينال به المرء ما يرتجى

وهذا كمثير على من يموت

فأين أنت من نوح وطول عمره ونياحته على قومه، وحسن عبوديته
وشكره ولقمان، ووعظه ولده، وتربيته لطول الحياة لبده، وداود فى ملكه
الفسيح مع قيامه بأوامر الله تعالى وكثرة الذكر والتسبيح وسليمان بعده،
وحكمه على الإنس والجن والطير والوحش والريح وذى القرنين الذى ملك
الشرقين وبلغ المغربين، وبنى السد بين الصدفين، وداح البلاد وملك العباد،
وأين محلك من سيد الأنبياء وخاتم الرسل وصفوة الأصفياء المرسل رحمة
للعالمين الكائن نبياً، وآدم بين الماء والطين محمد المصطفى ورحمى المجتبى اذى
زويت له مشارق الأرض ومغاربها، ويمثل بين يديه شاهداً وغائبها وفتحت
له غرائبها، وعرض عليه ظاهرها وكامناتها، وكانت جنوده الملائكة الكرام،

وآمن به الإنس والجن والطير والوحش والهوام، وأيده الله تعالى المتعال بأن أرسل لطاعته ملك الجبال وكان حامل رايات نصره، نسيم الصباء باليمين والشمال، فملك الجبابرة بالهيبة والقهر، وكانت الأكاسرة والقياصرة تهابه منمسيرة شهد، وأيده بنصره وبالمؤمنين من المهاجرين والأنصار، وتولى نصره إذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنین إذ هما فی الغار، وبلغ ركابه الشريف أن الله سبحانه به أسرى فی بعض ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وكان مركوبه الشريف البراق، ثم عرج به إلى السبع الطباق، وقرن اسمه الكريم مع اسمه وتعبد عبادة بما شرعه إلى يوم القيامة عن غير تغير لحده ورسمه، وخلق لأجله الكائنات وأنار بوجهه الموجودات، ولم يخلق في الكون أشرف منه ولا أفخر، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأظهر من معجزاته أن أشبع الجمل الغفير من القرص الصغير، وسقى الكثير من الرعاع، مما نبع من بين أصابعه من الماء الزلال، وانشق له القمر وسعت إليه الشجر، وآمن به الضب وسلم عليه الحجر، وهل تحصي معجزاته وتخصر كراماته، وناهيك بمعجزته المؤيدة وكرامته المؤيدة المخلدة على عمر الزمان الباقية، ما دار الحدثان الساكنة ما تحرك الملوان، وهو القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وهذه منازل في الدنيا غير ما ادخر له في العقبى، وبشره بقوله: وللآخرة خير لك من الأولى ولنسوف يعطيك ربي فترى، مع أن الله تعالى أخذ ميثاق النبيين بالإيمان به وبنصره، فلو أدركوه لم يسعهم إلا اتباعه وامثال أمره، فهو دعوة إبراهيم الخليل ومتوسل موسى وعلماء بنى إسرائيل والمبشر بقدمه على لسان عيسى في الإنجيل، وحامل لواء حمد ربه يوم لقائه.

فآدم ومن دونه تحت لوائه، وهو صاحب الخوض المورد، والمخاطب من ربه في موقف الشفاعة والمقام المحمود، ولمعنى ما قلت معرماً مقتبساً، قل يسمع أشفع تشفع سل تل، ستجد تفويف خلعة عز واقتبس نعمى فانظر إلى هؤلاء السادة معادن الخير ومفاتيح السعادة هل رغبوا في الدنيا واعتمدوا عليها أو نظروا إلا بعين الاحتقار إليها، أو هل كان نظرهم غير التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وناهيك بالخلفاء الراشدين وأعظم بالعمرين، الذين كانوا في هذه الأمة بمنزلة القمرين، وهلم جرا بالخلفاء العادلين، والملوك الكاملين والسلاطين الفاضلين، الذين تولوا فرعوا حقوق الله تعالى في عباده، وحموا عباد الله عن الظلم في بلاده وأسسوا قواعد الخير وساروا في نهج العدل والإنصاف أحسن سير، فمضوا على ذلك وبقيت آثارهم وأجبت بعد موتهم أيامهم أخبارهم، فمضى على ذلك مثل الأولين، وبقي لهم لسان صدق في الآخرين أن صنعوا بموجب ما سمعوا:

فكن حديثاً حسناً ذكره فإنا الناس أحاديث

وأنت وإن كنت تسلطت على الخلق، فقد عدلت أيضاً ولكن عن الحق ورعيت، ولكن أموالهم وزروعهم وحميت ولكن بالنار قلوبهم وغملوعهم وأسست، ولكن قواعد الفتن وسرت ولكن على سير إمارة السنن، ومع هذا فلو عرجت إلى السبع الشداد ما بلغت منزلة فرعون وشداده، ولو رفعت قصورك على شوامخ الأطواد ما شاهيت إرم ذات العماد التي لم تخلق مصلها في البلاد، فانظر لمن نهى وأمر، ثم مضى وغبر، ولكن عن طغى وفجر وتولى وكفر، وأقنع لهذا الخطاب عن الجواب، وأعطى القوس بارئها، وأنزل الدار بانيها، وتولى الله ورسوله والذين آمنوا وإلا فأنت إذاً ممن تولى

فى الأرض لىفسد فىها فإنى إذ ذاك أمشى عليك، وأضرب على يدىك وأمنعك من السعى فى الفساد، بأن أسوى بين رجلتك مع قلة آداب كثيرة وعبارات ذنوبها كبيرة، فلما وقف تيمور على هذا الكتاب، وجه إلى تبريز عنان الركاب وكان عند أميران شاه من المعتدين جماعة سعوا فى الأرض مفسدين، منهم قطب الموصلى أعجوبة الزمان الدوار، وأستاذ علم الموسيقى والأدوار، إذا استنطقوا البراعة أسكت أهل البراعة، وإذا وضع الناي بغية سحق عود إسحق وأبيه، وإن أخذ فى الأغاني أغنى عن الغواني. تقول النفس لنفسه الرخيم خفف عني أننى فتشير براعته بالأصبع، وتقول على عيني ثم ينفخ فيها الروح فيسقى كل قلم مجروح ويداوى كل فؤاد مقروح، فإن قامت قامتها الرثيقة راقصة فى سماعها يحنى الجنك ظهره خاضعاً لطيب استماعها، وإن فتحت فاهها لتقرير أسماع القلوب ألحانه، يميل العود عنقه مصغياً إليها عاركاً بأنامل الأدب أذانه.

قيل أنه كان يؤدى جميع الأنعام الفروع والمركبات والشعب والأصول من كل ثقب من ثقب الماصول وله مصنفات فى أدوار المقامات، وجرى بينه وبين الأستاذ عبد القادر المراغى مباحثات، وكان أميران شاه به مغرمًا بعد صحبته والعشرة معه مغنماً، وكان تيمور لا يعجبه العجب ولا يستهويه اللهو والطرب، فقال: إن القطب أفسد عقل أميران شاه كما أفسد عبد القادر أحمد بن الشيخ أويس وأطغاه.

فوصل سابع عشر شهر ربيع الأول سنة اثنين وثمانمائة إلى قراباغ فأناخ بها ركابه، وأراح بها دوابه، وضبط ممالك أذربيجان وقتل أولئك المفسدين وأهل الدعوان، ولم يتعرض لأميران شاه لأنه ولده وهو إنشاء وبينهما أمور

متشابهات، لا يعلم تأويلها إلا الله، ثم توجه بذلك الجيش ثانی جمادی
الآخرة يوم الخميس وأخذ مدينة تفلّيس وقصد بلاد الكرج وهدم ما استولى
عليه من قلعة وبرج وقلعهم إلى الصياصى والقلاع العواصى، وقتل من ظفر
به من طائع وعاصى، وجزهم ما بين رءوس ونواحي، ثم ثنى عنان الفساد
وحرش البقاة على بغداد، فهرب السلطان أحمد من ذلك اللجب إلى قرا
يوسف فى ثامن عشرین شهر رجب، فسكن تيمور زعازعه، وطمن بذلك
مراقبه ومنازعه، وتمهل فى السير واستعمل فى نحوه مع مناظرية مباحث
سوى وغير، وصار يتجاوز وستحاول ويتشد وهو متعاقل:

أموه عن سعدى بعلوى وأنتم مرادى فلا سعدى لزيد ولا علوى

فتراجع السلطان أحمد وقرا يوسف يوماً إلى مدينة السلام، متصورين
أنه لم يرح من بلاد الكرج اللثام، فلما تحققا منه الخروج، وكأنا حقاً أنه إذا
عرج على شيء فما يعوج وطار طائرهما نحو الروم، وتركنا ديارهما ينقع
فيها الغراب واليوم، فتوجه ذلك القشيمان إلى مصيف التركمان، فأغمد
السيف وكف عن الحيف وتصرم السيف.



ذكر ما وقع من الفتن والبدع وما سل للشرور من حسام بعد موت سلطان سيواس وأقام

وكان إذ ذاك وقد تخبط أمر الناس، ووقع الاضطراب ببلاد مصر والشام
وإلى سيواس، أما مصر والشام فلموت سلطانها، وأما سيواس فلقطل برهانها

وكان موتهما متقارب الزمان، كموت قرا يوسف والملك المؤيد شيخ وأبى الفتح غياث الدين محمد بن عثمان، فإن مدى ما بين موت هؤلاء الملوك العظام كان نحواً من نصف عام، وكذا كان ما بين موت ذينك السلطانين.

ذكر نبذة عن أمور القاضى وكيف استيلائه على سيواس وتلك الأراضى

وسبب قتل القاضى برهان الدين مخالفة وقعت بينه وبين عثمان قرابلوک رأس المعتدين، سيزداد بيانها إذا أتى مكانها، وهذا السلطان أبوه كان قاضياً عند السلطان أرتنا حاكم قيصرية، وبعض ممالك قرمان، وكان بين الأمراء والوزراى ذا مكانة وإمكان.

وكان ابنه برهان الدين أحمد المذكور فى عنفوان شبابه من طلبة العلم الشريف وأصحابه، المجتهدين فى تحصيله واكتسابه، فوجه إلى مصر لاقتناء العلوم وضبطها من طريقى المنطوق والمفهوم، وكان ذا فطنة وقادة وقريحة نقادة ومقلة غير رقادة، فحصل من العلوم عدة، فى أدنى مدة، فبينا هو فى مصر يسير، وإذا هو بفقير، جالس على الطريق كسير، فناوله شيئاً يسد به خلته، وجير به فقره وكسوته، فكاشفه ذلك الفقير بلفظ معلوم، وكشف له عن السر المكتوم، وقال له: لا تقعد فى هذه الديار، فإنك سلطان الروم.

فصدع بهذا الكلام قلبه، فأخذ فى إعداد الأهبة وقطع الأعلاق، ودخل

الطرق صحبة الرفاق، ولما وصل إلى سيواس ابتهج به والده وأعيان الناس، وشيد له بنى الخلق أشد بنيان وأشد أساس، وشرع فى إلقاء الدروس ومصاحبة الأعيان والرءوس، ذا همة أبية وراحة سخية ونفس زكية وخصايل رضية وشمائل مرضية، وتحرير شاف وتقرير واف، يحقق كلام العلماء يدقق النظر فى مقالات الفضلاء، وله مصنفات فى المعقول ولطائف فى المنقول، ينظم الشعر الرقيق ويعطى عليه العطاء الجزيل، ويعجبه اللفظ الرقيق ويثيب عليه الثواب الجزيل، وهو فى ذلك يتزيا بزي الأجناد، وسلك طريقة الأمراء من الركوب والاصطياد، ويلازم أبواب السلطان، ويتخذ الخدم والأعوان.

فمات السلطان عن ولد صغير، فأجلسوه على السرير، وكان عنده من أعيان الأمراء ورءوس الوزراء أناس منهم : غضنفر بن مظفر، وفريدون، وابن المؤيد، وحاجى كلدى، وحاجى إبراهيم وغيرهم.

ومن أكبرهم أبو القاضى برهان الدين، فصار هؤلاء الأمراء والرءوس، من الوزراء والكبرى يدبرون مصالح الرعية، ولا يفصلون إلا بالاتفاق ما يقع من كل قضية. فمات أبو القاضى برهان الدين، وتولى ولده مكانه، وفاق بالعلم وحسن السياسة أباه وأقرانه، ففرق ولايات ذلك الإقليم على ابن المؤيد وحاجى كلدى وحاجى إبراهيم، فبقى حوالى السلطان محمد فريدون وغضنفر وبرهان الدين أحمد.

ثم توفى السلطان محمد من غير ولد، فبقيت الولاية بين الثلاثة على سبيل الاشتراك وراثته، وقلما اتفقت ضرتان على زوج واحد والتقتا، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، ومائة فقير يلتفون فى حصير، وملكان لا يسعهما إقليم كبير، فأراد برهان الدين الاستبداد بالملك والاستقلال، فنصب لشريكه

أشراك الاحتياى، إذا الملك عقيم فرصد لذلك الطالع المستقيم، ونظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم، فرأى شريكاه أن العيادة عبادة، فطلبها بعيادته الحسنى، ورام هو الزيادة، فعاده وقد عاداهما وما راعاه، ولكن راعهما وما راعاهما فدخل عليه وقد أرصد لهما رصدا، وأعد لهما من الرجال المعدة عددا، وقتلها وقد حصلا فى قبضة الاشتراك، وخلص توحيد السلطنة الأحمدية عن الإشراك، فقوى بالتوحيد سلطانه، وأضاء به للدين حجته وبرهانه، ولكن ما رآه أنداده وعى عليه من النواب أكفاؤه وأضداده، وأظهر كان العداوة أعداؤه وحساده، وقالوا هذه مرتبة لم ينلها آباؤه وأجداده، ونحن كلنا سواسية إذا انتمينا، فأنى له الملك علينا، وجد الرئاسة هو الغل القمل، ونحاسد الأكفاء جرح لا يندمل.

فمنهم شيخ نجيب صاحب توقات القاشية، ومنهم حاجى كلدى وكان نائب أماسية، فلما استقل بالملك تلقب بالسلطان، وكان قد استولى إذ ذاك السلطان علاء الدين على ممالك قرمان، فقال السلطان برهان الدين: إن رواة التاريخ حدثنا وأسمعتنا وكتب السير أنبأنا وأخبرتنا، أن ما حوالينا من الممالك متعلق بنا من سلطاننا وإرثنا، ثم شرع فى استخلاص ما كان متعلقا بسلطانه، وجعل يشن الغارات على من يتمادى فى عصيانه، فقلع قلع توقات من الشيخ نجيب قسرا، واستصحبه معه طيبة وقهرا، وانحازت تار الروم إليه، وهم الجم الغفير، وعثمان الملقب بقرابلوك قال له: أنا تحت أوامرك، أمشى وفى قيد طلاعتك أسير، فكان قرابلوك من جمعة خدمه، وفى حساب تراكمته وحشمه، فكان ترحل هو ومن معه من الناس، شتاء وضيفا بضواحي سيواس.

ذكر محو قرابلوك عثمان آثار أنوار برهان الدين السلطان

بسبب ما أظهره من العدوان وأضره حالة العصيان، وقبض عليه لما غدر به الدهر وخان، ثم إنه وقع بين قرابلوك السلطان منافرة أدت إلى المشاجرة، وانتهت إلى المرامحة والمناقحة، فنقض العهد والذمم، وامتنع من حمل التقادم والخدم، وتمنع في الأماكن العاصية بمن معه من التراكمة والحشم، فلم يكثر به السلطان لأنه كان أقل الأعوان، وجعل يتوجه تارة إلى أماسية وأخرى إلى أرزنجان، وكان بالقرب من سيولس مصيف منظره ظريف وترابه نظيف، وماؤه خفيف وهواؤه لطيف، كان الخلد خلع على أطراف كناف رياضه سندسه الأخضر، والفردوس فجر في خلال أشجاره من نهر الكوثر على حدائقه من روضات الجنات شبه، وفي ربوة جبهته الأبصار الأبصار دهشات وللبصائر نزه. قتل:

عليه شقيق قد زها كأنه صحنون عقيق أترعت بالعنابر

فقصده قرابلوك ورام في طريقه السلوك، فمر على سيواس، وبها القاضي أبو العباس فجاز بركابه ولم يعبأ به، فالتهب تموز قيظه، وكاد يتميز من غيظه، وقال: بلغ من هذا العوا أن يلج برج الأسد، ويقدم قدم أقدامه، وأحل بهذا البلد، ثم أمر جماعته بالركوب وقصد عليه الوثوب وساتفزه الغضب والعطش أن ركب وسبق الجيش، فقال له بعض من معه من الجماعة

لو يلبث مولانا السلطان ساعة حتى يتلاحق العسكر، كان أحزم وأوفق وأظهر وأجدر، وإن كان حرقه مولانا السلطان فيها كفاية ولها أيد، لكن قرابلوك تركماني ذو دهاء وكيد، فلم يلتفت السلطان إلى هذا الكلام، ولم يزل هاجماً وراءه حتى هجم الظلام، فكر عليه قرا بلوك بجماعته، فقيض عليه باليد من ساعته، ولم يدر بحاله العسكر وتفرق أمراؤه وجنده شذر مذر.

ذكر ما كان نواه قرابلوك من الرأى المصيب ورجوعه لسوء طويته بشيخ نجيب

ثم إن قرابلوك عزم أن يجدد معه العهد والميثاق، ويقطع غراس الخلاف ويؤسس بنيان الصداقة والوفاق، ويرده إلى مكانه ويصير كما كان، أولاً من أنصاره وأعوانه، ولعلم بذلك السلطان أنه له ناصح، فلا يسمع فيه كلام واش وكاشح، وإذا شيخ نجيب الذى كان متولى قلع توقات، وحاصره السلطان وضيق عليه مسالك الطرقات، وثم قهره وغلبه وأخذ قلعتيه، وبالكراهة استصحبه، وجد فرصة فانتهازها، وكان فى قلبه كمائ شحيمة فأبرزها، فجاء إلى قرابلوك ووقف فى خدمته كالمملوك، وقال: أعيد عالم عقلك أن يزل ودليل فهمك أن يضل، ومصيب رأيك أن يصاب، وجميل فكرك أن يعاب، قد أمكن الله من العدو، وأنى لك مع هذا سكون وهدوء. قلت:

ما الدهر إلا ساعة وتنقضى والمرء فيها حازم أو نادم

فلئن أبقيت عليه لا يبقى عليك، ولئن نظرت إليه بعين الرحمة فالله لا ينظر إليك، فإنه رجل غبى وبأنواع انكر وأصناف الخديعة عبى، عسر القياد وأبيك لا ينجع فيه الخير وأنى وهبك، والعياذ بالله مكانه منك أكان يرق لك، أو يصفح عنك هيهات، هذا والله محال فقد وقع لك مجال، فما كل أوان يسمح بالمراد الزمان، والدهر فرص وأكثره غصص، فإياك أن تقوت الفرصة فتقع فى الغصة، ولا ينفك الندم إذا زلت بك القدم، وتفكر فيما أقول واستنبط دليل هذه المسألة من المعقول، واستبق شرفك الرفيع بإراقة دمه، وحسن أستار حرمك بابتدال حرمه.

وتذكر يا أمير أمور قابوس وشمكير، ولا زال ذلك الشيطان يحسن له الرأى فى قتل السلطان، ويقول هذا الرأى أنفع لك وعليك أعود، كما فعل بسطام أمير الكرد بقرا يوسف لما قبض على السلطان أحمد، فرجع قرابلوك من رأيه لما خدعه ودماه، فقتل السلطان من غير إمهال ولا توقف رحمه الله.

وكان قتل قرا يوسف سلطان أحمد بن الشيخ أويس فى عاشر شهر رجب سنة ثلاثة عشرة وثمان مائة والقصة مشهورة، وكان السلطان رحمه الله كما ذكر أولاً عالماً فاضلاً كريماً، متفضلاً محققاً فى التقرير مدققاً فى التحرير، قريباً من الناس مع كونه شديد البأس، رقيق الحاشية أديباً شاعراً ظريفاً لبيباً أريباً، جواداً مقدماً قرماً هماماً، يهاب الدنيا وهابها، يهب الألوف ولن يهابها، يحب العلماء ويجالسهم، ويدنى الفقراء ويكاسيهم، قد جعل يوم الاثنين والخميس والجمعة للعلماء وحفظه القرآن خاصة، لا يدخل عليه معهم غيرهم، من تلك الأمم الغاصة، وكان قد أفلح قبل وفاته عن جميع ما كان عليه وتاب إلى الله تعالى ورجع إليه.

وله مصنفات منها: الترجيح على التلوين، وكان عنده نديم للفضل حريز، بغدادى الأصل يدعى عبد العزيز، وكان أعجوبة الزمان وفى لطائف الشر والنظم فارسياً وعربياً، أطروفة الدوران، سرقة من بغداد ومن السلطان أحمد بن الشيخ أويس فكان عنده رأس ندمائه، وعين أهل الفضل والكيس والقاضى، كان يربى الفضلاء متطلباً من كل جهة الأدباء والشعراء، وكان أهل الفضل والأدب يعرفون عليه من كل فج فجاج، حتى صار مقامه كعبة الحاج لا كعبة الحجاج، وصورة سرقة له أنه لما سمع بأوصافه أحبه، فأراد قربه فالتمس من مخدومه، فلم تسمح نفس السلطان أحمد بفارقة نديمة، ثم اختشى من القاضى رغبة وخاف لشدة رهته هربه، فوصى به وخرج عليه، وأقام له معقبات يحفظونه من خلفه ومن بين يديه.

فأرسل القاضى إليه رسولا ذكياً، فناداه نداءً خفياً، وأجزل له العظية ووعد مواعيد سنية، وفرق ما بين السلطانين من الحسن والقبح، كفرق ما بين البحرين العذب والملح والمليين المساء والصبح، فلبى دعوته بالقبول ووعد للخروج بعض الفقول، ثم خرج ولهيب الحر قد وقْد، والسلطان أحمد عند الحريم قد رقد ووضع ثيابه على ساحل دجلة، ووجه إلى داخل النهر فى الطين رجله، ثم غاص فى الماء وتأخر وخرج من مكان آخر، ولحق برفقائه واختفى بينهم اختفاء اليربوع فى نافقائه، فطلبه السلطان أحمد ففتشوا عليه فلم يوجد فبالغوا فى طلبه إلى أن وقفوا على ثيابه، ورأوا آثار رجليه فى الطين، فلم يشكوا أن الموج اختطفه، فكان من المعرقين فكفوا قدم السعى عن طلبه، ولم يضيقوا على أحد بسببه، ثم بعد أيام يسيرة أخرج غريق بغداد رأسه بسيواس عند القاضى برهان الدين من تحت الحصيرة، فغرقه فى أبحر

نواله، وأسبغ عليه ذيل كرمه وأفضاله، فصار عنده مقدماً ولديه مبعجلاً معظماً، ألف له تاريخاً بديعاً سلك فيه مهيعاً رفيعاً، وانتهج منهجاً منيعاً ذكر فيه من بدء أمره إلى قرب وفاته، مع مواقعه ووقائعه ومضافاته، ووشحه بظريف كنياته ونسخه بظريف كتاباته ولطيف استعاراته، وفصيح لغاته وبلغ كلماته ورشيق إشاراته ودقيق عباراته، مد فيه عنان اللسان، وهو موجود في مالك قرمان في أربع مجلدات، ذكر ذلك لى من غاص بحره واستخرج دره، ووقفت على تاريخ العتبي في اليمين السلطان محمود بن سبكتين، وإن هذا أحسن من ذلك أسلوباً وأغزر معبوءاً وأعذب مشروباً، مع أنى لم أقف عليهما ولا وصلت لقصر الباع إليهما.

ثم إن الشيخ عبد العزيز هذا بعد لهيب هذه النائرة، انتقل إلى القاهرة، ولم يبرح على الانشراح، ومعاقرة راح الأتراح، حتى خامرته نشاط الوجد فصاح، وترى من سطح عال فطاح، ومات منكسراً ميتة صاحب الصحاح والله أعلم.



ذكر ما وقع من الفساد في الدنيا والدين

بعد قتل قرا بلوك السلطان برهان الدين

ولما قتل السلطان برهان الدين لم يكن في أولاده من يصلح للرئاسة، وينفذ لأحكام السلطنة والسياسة، فرجع قرا بلوك إلى سيواس، ودعا إلى نفسه

الناس، فلم يجيبوه ولغيره رسبوه، فأخذ يحاصرهم وينكادهم، ويضيق عليهم ويعاندهم، فاستمدوا عليه التار فأمدوهم، وأتت طائفة منهم فنجدوهم، فكسرهم قرابلوك ففروا واستنجدوا طوائفهم وكروا وأقبلوا بالقض والقضيض، وملأوا البقاع والحضيض، فلم يكن لقرابلوك على جبة قتالهم طوق، فدخل فيهم من تحت رداهم من فوق، وتوجه إلى تيمور وكان بحر جيشه في أذربيجان تمور، وقبل يديه وانتمى إليه، وجعل يناديه إلى هذه البلاد، ويدعوا كما فعل معه الأمير إيدكوا، فحك له في الدبرة فأجابه إجابة برصيصة أبا مرة.



مشاورة الناس من أهل سيواس أنى يسلكون ومن يملكون

ثم إن أهل سيواس والأعيان من رؤسائها والأكياس، تشاوروا فيمن يملكون قيادهم، وإلى من يسلمون بلادهم لسلطان مصر أم لابن قرمان، أم للسلطان المغازي أبي يزيد بن عثمان، ثم اتفق رأيهم السيد على المرحوم يلزريم بايزيد، فأرسلوا إليه قاصدا واستنهضوه إليه وأفدا، وأنشدوه وقد استنجدوه:

وكم أبصرت من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري
فتوجه من ساعة إليهم وقدم بالعساكر والجنود عليهم، ومهد للقواعد

والأركان، وولى عليهم أكبر أولاده أمير سليمان، وأضاف إليه خمسة أنفار من أمرائه الكبار: يعقوب بن أورانييس، وحمزة بن بجار، وقروح على، ومطفي وداوادر، واستمال خواطر الأعيان، وتوجه إلى أرزنجان، فهرب منها طهرتن المذكور، وقصد في انهزامه تيمور.

فاستولى ابن عثمان على مدينة أرزنجان وأخذ أموال طهرتن وذخائره وحرمه، ومكن منهن سواسه وغلمانه وخدمه، ورجع بالأموال والحمول واشتغل بمحاصرة استنبول، فنبه قرايلوك وطهرتن من تيمور نائى الفتن، وإن كان المتحرك منه فى الفساد ما سكن، حتى توجه إلى هذه البلاد وعم فسادة البلد والعباد، فوصلوا إلى أرزنجان وأردين، ثم ارتحلوا ونزلوا مفسدين ماردين، فعصى عليه الملك الظاهر لما كان قاساه أولاً من طاعة ذلك الغادر فندم على إطلاقه أول مرة، كما سيندم يوم القيامة ولم تنفعه الندامة والحسرة، وكان ذلك فى سنة اثنين وثمانائة والخلف قد وقع بين العساكر الشامية والمصرية، وانحاز إلى فئة وتفرقت آراؤهم أياذى سبا ومال هوا، كل منهم إلى دبور وشمال وصبا، وأهملوا أمور الرعايا وغفلوا عن حلول الرزايا. قلت:

من يهمل الأعداء ويأمن كيدهم مثل النؤوم وراءه مستيقظ

قلت:

واللص ليس له دليل سائر نحو الذى ييغى كنوم الحارس

ثم قتل تنم ملك الأمراء بالشام المحروس أعيان الأمراء والأعلام الرؤوس، فى شهر رمضان من العام المذكور، وبيان هذه الأمور فى كتب التواريخ مسطور. قلت:

وإذا العريت نضرعت أساده عوت الثعالب فيه أمنة الردى



ذكر قصد ذلك الغدار

سيواس وما يليها من هذه الديار

ثم إن تيمور وجه عناس الباس نحو مدينة سيواس، وبها كما ذكر أمير سليمان بن أبى يزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان، فأرسل يخبر أباه هذا الأمر المهول، ويستنجده وهو إذ ذاك محاصر استنبول، فلم يطق أن يمد إليه - يداً لاحتياجه إلى المدد ولبعد المدى، فاستخصر من جنده أهل المنعة، وحصن المدينة والقلعة، واستعد للقتال واستمد للحصار وفرق رءوس أمرائه على أبدان الأسوار، وجهاز تيمور من جيشه العيون ليتحقق ما هو عنده مضمون.

ولما كشفت جيوشه لأمر سليمان زينها فسر لما أن رأى عينها، فعزم على التوجه إلى أبيه، واشترط مع أمرائه وذريه، أنهم يحفظون له البلد، بينما يجهز لهم العدد والعدد، فلم يسعهم إلا الموافقة والتخلف وعدم المرافقة، فرام لنفسه الخلاص وأقلت له حصاص، فوصل إليها تيمور بتلك السيول الهامية سابع عشر ذى الحجة سنة اثنين وثمانمائة، ومل أحلب سيواس رجله الشومى، قال: إنا فاتحوا هذه المدينة فى ثمانية عشر يوماً.

ثم أقام فى محاصرتها علامات الحشر وفتحها فى اليوم الثامن عشر، بعد ما عثى فيها وعاث، وذلك يوم الخميس خامس المحرم سنة ثلاث، وبعد

أن حلف للمقاتلة أن لا يريق دمهم، وأنه يزكى ذمهم ويحفظ حرمهم وحرمتهم، ولما فرغت المقاتلة واستمكن من المقاتلة، ربطهم فى الوثاق سرباً، وحفر لهم فى الأرض سرباً، وألقاهم أحياء فى تلك الأخاديد، كما ألقى فى قليب بدر الصناديد، وعدد من ألقى فى تلك الحفر، كان ثلاثة ألف نفر، ثم أطلق عنان النهاب، وأتبع النهب الأسر والخراب.

وكانت هذه المدينة من أطرف الأمصار فى أحسن الأقطار، ذات عمائر مكيئة وأماكن حصينة، ومآثر مشهودة ومشاهد للخير معهودة، مأواها رائق وهواها للأمزجة، موافق وسكانها من أحشم الخلائق، يتعانون التوقير والاحتشام، ويتعاطون أسباب التكف والاحترام، وهى متاخمة ثلاث تخوم: الشام وأذربيجان والروم، وأما الآن فقد حلت بها الغير وتفرق أهلها شذر ومذر، وانمحت مراسم نقوشها فهى خاوية على عروشها.



ذكر انسجام صواعق ذلك البلاء الطام من غمام الغرام على فرق مالك الشام

ولما استنقى سيواس لحماً ونقياً واستوفاه حصد ورعياً، فوق سهام الانتقام إلى مجىء ممالك الشام بجنود، إن قيل كالجراد المنتشر فالجراد كان من أعوانها أو كالسيل المتهمر، فسيل الدماء جار من فرندها وخرصانها، أو كالفراش الميثوث فالفراش يحترق عند تطاير سهامها، أو كالقطر الهامى،

فالديم تضحك عند انعقاد قتامها رجال توران، وأبطال إيران وغور تركستان وميور بلخشان، وصقور الدشت والخطا ونسور المغول، وكواسر الجثا وأفاعى خجند وئعاين أبدكان، وهو خوارزم وجوارح جرجان، وعقبان ضغانيا وضواری حصار شادمان وفوارس فارس وأسود خراسان، وضیاع الجیل وليوث مازندران، وسباع الجبال وتماسيح رستمدر وطالقان، وأصل قبائل خوز وكرمان وطلس أرباب طيالة أصفهان وذئاب الرى وغزنى وهمدان، وأفيال الهند والسند ومولتان وكباش ولايات اللور، وثيران شواهيف الغور، وعقارب شهرزور وحشرات عسكر مكرم وجندى سابور.

قوم إذا الشر أبدى ناجديه لهم طاروا إليه زرافات واحداً

مع ما أضيف إليهم من عابر الخدم وفراعل التراكمة والأوباش والحشم، وكلاب النهاب من رعاع العرب وهمج العجم، وحثالة عباد الأوثان وأنجاس مجوس الأمم، ما لا يكتنفه ديوان ولا يحيط به دفتر حسابان. وبالجمله فإنه الدجال ومعه يأجوج ومأجوج، والرياح العقيمة الهوج، فتوجه والنصر قائده، والسعد رائده، والقضا موافقه والقدر مساعده، ومشية الله تعالى سائقته، وأراد الله عز وجل فى تدبر العباد والبلاد سائقته، فبلغ خبره البلاد الشامية، واتصل ذلك بالديار المصرية.

فورد مرسوم شريف إلى نائب الشام وسائر النواب والحكام وغزة الدين وكماة الإسلام أن يتوجهوا إلى حلب، وينموا عليه الجلب، ويجتهدوا فى دفعه ويتعاونوا على منعه، فتجهد نائب الشام سيدى سودون مع النواب والعسكر، ورحلوا إلى حلب سنة ثلث وثمانمائة فى شهر صفر، ووصل تيمور إلى بهنسا، فنهب ضواحيها ولم يبق لها سناً وحاصر قلعتها ثلاثة

وعشرين ليلة فأخذها، ولكن كف عنها للطفة ربانية ثبورة وريلة، ثم أوطأ مدينة ملطية فأبأها ودك أطواها، ثم حل كعبه المسوم بقلعة الروم، وكان نائبها الناصري محمد بن موسى بن شهري، وسنذكر ما جرى له معه مشبعاً وكيف اجتهد في مجاهدته وسعى، وأقام لها يوماً، فلم يفتح له روما فلم يحتفل لها بحصار وهياج، وقال هي أهون على من نباله على الحجاج، وذلك أنه لما رآها من بعيد قال فيها ما قاله، من لم يصل إلى العنقود والحق أنه لما رآها، قال: إن الله لما بناها ادخرها لنفسه واصطفأها، ثم انجاب ذلك السحاب إلى عين تاب، فكان نائبها أركماس رجلاً شديداً البأس، فحصنها واستعد بواش للقتال بنفسه واستبد، ثم جرح فهرب إلى حلب، فلم يرسل وراءه الطلب.



ذكر ما أرسل من كتاب وشنيع خطاب إلى النواب بحلب وهو في عين تاب

ثم أرسل إلى النواب قاصده وهو في عين تاب، وصحبته مرسوم بأنواع التفخيم موسوم، وبأصناف التهويل مرقوم، ومن جملة أن يطيعوا أوامره، ويكفوا عن القتال والمكاشرة، ويخطبوا باسم محمود خان، وباسم الأمير الكبير تيمور كوركان، ويرسلوا إليه أعلاميش الذي كان عنده فخان، واقتبضه وأرسله التركمان وأرسله إلى مصر لحضرة السلطان.

وأطلاميش هذا زوج بنت أخت تيمور، وكان جاء إلى الشام قبل وقوع هذه الشرور، وفيما بين ذلك الأمور، كان لها بطون فصار ظهوراً، وكان أولاً فى مصر محبوساً ونال ضرراً وبؤساً، ثم صار معزراً مكرماً معظماً مقدماً، وكان تيمور عليه مغضباً، وجعل ذلك حجة للمعاداة وسبباً، ثم شرع يقول وهو يجول فى ميدان هذه الرسالة ويصول، إنه هو أولى بسياسته الأنام، وأن من نصبه هو الخليفة والإمام، وأنه ينبغي أن يكون هو المتبوع، وما سواه من ملوك الأرض له خدام وأتباع، وإنى لغيرة درية الرئاسة وكيف تعرف الجراكسة طرق السياسة، مع كثير من التهويل والحشو والتطويل، وكان يعلم أن إجابتهم سؤاله محال، وأنه طلب منهم ما لا ينال، ولكن قصد بذلك قرع باب الجدل وتركيب الحجة عليهم فى فتح حجرات القتال، فلم يجيبوه بالمقال، ولكنهم قضوا مراده بالفعل ولم يلتفت سيدي سودون لما يقول، وضرب على رءوس الأَشهاد عنق الرسول، واستعدوا للمبارزة واستمدوا للمناجزة.

ذكر ما تمألاً عليه النواب

وهم فى حلب وتيمور فى عين قاب

ثم إن النواب والأمراء ورءوس الأجناد والكبراء، تشاوروا كيف يكافحونه، وفى أى ميدان يناطحونه، فقال بعضهم: عندى رأى الأسد أن نحصن البلد، ونكون على أسوارها بالرصد نحرس بروك أفلاكها حراسة

السماء بأملأكها، فإن رأينا حواليتها من شياطين العدو أحداً أرسلنا عليه من رجوم السهام ونجوم المكاحل شهاباً رصداً، وقال آخر: هذا عين الحصر وعلامة العجز والكس، بل نحلق حواليتها ونمنع العدوان يصل إليها ويكون ذلك أفسح للمجال، وأشرح للجدال ثم ذكر كل من أولئك ما عن له في ذلك، وخلطوا غث القول بسمينه، وساقوا هجان الرأي مع هجينه، فقال الملك المؤيد شيخ الخاصكى، وكان ذا رأى مسدد، وهو إذ ذاك نائب طرابلس: يا معشر الأصحاب وأسود الجراب وفوارس الضراب، اعلموا أن أمركم خطر وعدوكم داعر عسر داهية دهيما ومعضلة عضلا، جنده ثقيل وفره وبيل، ومصابه عريض طويل، فخذوا حذرکم واعملوا في دفعه بحسن الحيلة فکرم، فإن صائب الأفكار يفعل ما لا يفعله الصارم البتار، ومشاورة الأذكياء مقدحة الفكر ومباحثة العلماء مقدمة النظران هذا البحر ما يحمله بر، وجيشه عدداً كالقطر والذر، وهو وإن كان كالرابل الصيب، لكنه أکمی لأنه فى بلادنا غريب.

فعندى أن رأى الصائب أن تحصن المدينة من كل جانب، ونكون خارجها مجتمعين فى جانب واحد، وكلنا له مراقب مراصد، ثم نحفر حولنا خنادق، ونجعل أسوارها البيارق والبوارق، ونطير إلى الآفاق أجنحة البطائق، إلى الأعراب والأكراد والتراکمة وعشران البلاد، فيتسلطون عليه من الجوانب، ويثب عليه كل راجل وراكب، ويصير ما بين قاتل وناهب وخاطف وسالب، فإن أقام أنى له ذلك ففى شر مقام، وإن تقدم إلينا صافحناه بسواعد الأُسنة وأكف الذرق وأنامل السهام، وإن رجع وهو المرام رجع بخيبة وأقيمت بنا عند سلطانتنا الحرمة والهيبة، وإن كان بلطافه علينا عرج، فلنا بحمد الله سلطان

وفى سلطاننا فرج وأقل الأشياء أن بمادة ونتححرر من جنده، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده.

وهذا رأى الأسد بعينه كان رأى شاه منصور الأسد، فقل تمرداش وهو نائب المدينة ما هذه الآراء مكينة، ولا هذه الأفكار رصينة، بل المناضلة خير من المطاولة والمناجزة فى هذا الموطن قبل المحاجزة، ومقام المنازلة لا تجدى فيه المعازلة، ولكل مقام مقال ولكل مجال جدال، وهذا طير فى قفص وصيد مقتنص، فاغتنموا فيه الفرص وناوشوه الحرب، وسابقوه بالطعن والضرب ليلا يتوهم فينا الخور، ويستنشى من ركون ريحنا عن الطفر فاجمعوا أمركم واعجلوا ولا تنازعوا ففتشلوا، وانهضوا وثابروا واصبروا وصابروا، فأنتم بحمد الله أهل النجدة وأولوا البأس والشدة، وكل منكم فى فقه المناضلة مغن ومختار، وعلمه فى إفاضة دماء الأعداء منار، وله فى ذلك كفاية وهداية ونهاية، وغيره له بداية، وهو لجمع الإسلام كنز واف وجامع كاف ووقاية تنحو السنة سيوفكم إلى تكليم الروس، فهى فى لفظها شافية كافية وتصرف أستتكم أسنانها، فى مضاعفة كل ذى فعل معتل فهى فى تصريف عللها شافية كافية.

فإن كسرناه فزنا بالمنال، وكفى الله المؤمنين القتال، وتلك من الله معونة، وقد كفينا عساكر المصريين المؤونة، ، وكان ذلك أعلى لحرمتنا وأقوى فى ورود النصر لشوكتنا، وأذكى لريح نصرنا وأزكى وأبكى لعينه السخينة .إنكى، وإن كانت والعياذ بالله الأخرى فلا علينا إن بذلنا مجهوداً وأقمنا عذراً ومخدومنا يدرك ثارنا، ويحى آثارنا، فتوكلوا على الله العزيز الجبار، واستعدوا لملاقاة هؤلاء الأشرار، وإذا لقيتموهم زحفاً، فلا تولوهم الأدبار،

ولا زال تمرناش يحسن لهم هذا الرأي للأشياء، حتى أجمعوا عليه واتفقوا على الخروج، لأنه كان صاحب البلد وعلى كلامه المعتمد، وكان تمرناش قد خالف الجمهور، ووافق في الباطن تيمور، وهذه كانت عادته وعلى المراوغة جبلت طبيعته فإنه كان كالشاة العائرة، والمرأة الحائرة الغائرة، إذا التقى عسكريان فلا يكاد يثبت في أحدهما جينا منه ومكرًا، بل يعبر إلى هذا مرة وإلى هذا أخرى، مع أنه كان صورة بلا معنى ولفظًا بلا فحوى، فاعتمد تيمور عليه وفوض الأمور إليه، وكذلك عساكر الشام وجنود الإسلام.

ثم حصنوا المدينة وأوصدوا أبوابها، وضيقوا شوارعها ورحابها، ووكلوا بكل حارة ومحلة أصحابها وفتحوا الأبواب التي تقابل ملتقاء، وهى باب لانصر- وباب الفرج وباب القناة.



ذكر ما صبه من صواعق البيض واليلب على العساكر الشامية عند وصوله إلى حلب

ثم إن تيمور نقل الركاب فوصل إلى سبعة أيام إلى حلب من عين تاب، فحل بذلك الخميس تاسع شهر ربيع الأول يوم الخميس، وبرز من ذلك العسكر طائفة نحو من ألفى نفر، فتقدم لهم من الأسود الشامية، نحو من ثلثمائة ففلوهم بالصفاح وسلوهم بالرماح، فبدوهم وطردوهم وحذروهم وشردوهم، ثم اصحبوا يوم الجمعة فبرز من عسكريه نحو من خمسة آلاف إلى

مصاف الثقاف، فتقدم إليهم طائفة أخرى أرسالاً ونثرى، فالتحم منهم النطاح واشتبكت بين الطائفتين أنامل الرماح، فازدحموا واقتحموا واشتدوا والتحموا، ولا زالت أقلام الخط فى ألواح الصدور، تخط والقصب الصمصام لرؤوس تلك الأقلام بالأعلام تقط، ومشاريط النبال لدماميل الدمال تبط، والأرض من أثقال أجبال القتال تاط، حتى سجي ليلا الظلام والقتام وأغطشا فتراجعوا، وقد أعطى الله النصر لمن يشاء وأجرى من دماء العدو، مع قويق نهران، وفقد من العساكر الإسلامية نفران.

ثم أصبحوا يوم السبت حادى عشر وقد تعبت الجنود الشامية والعساكر الإسلامية السلطانية بالعدة البالغة، والأهبة السابغة، والخيول المسومة والرماح المقومة والأعلام المعلمة.

ولم يعوز أولئك الصناديد سوى شمة من النصر والتأييد، ونحو قصده وقصدوا رده وصدده وأقبلت عساكره والسعد الميمون طائره، والقضا مؤازره والقدر مظاهره، بالجنود المذكورة والجيوش المعهودة المنصورة، تؤمهم الأفيال وأفيال القتال، وإذا به قد أضمر لهم الويل، وعبى عساكره تحت جناح الليل وبثهم فيهم، وأرسل عليهم عزاليهم وقابلهم بمقدمتهم وشغلهم بأوائلهم وأحاط الباقون بهم، فأتوهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيانهم وعن شمائلهم، فمشى عليهم مشى الموس على الشعر، وسعى سعى الدبا على الزرع الأخضر، وكان هذا الجولان على قرية حيلان، ولما اهتمش أمر الناس، وهاش وجاشت الهوشة والامتحاش، وتهارشت الأسود وانتطحت الكباش، فرت الميمنة فكان رأسها تمرداش، فانكسر العسكر وطاش، وأخذ الأبطال من الدهشة الارتعاش، وغلبتهم الحيرة والانبهار، فلم يلبثوا ولا ساعة من نهار،

ثم ولوا الدبر وصارت لزقلام رماحه ظهورهم الزبر، واستمروا أمامهم يتواثبون وعسكره وراءهم يتخاطبون بمعنى ما قلت:

جعلنا ظهور القوم فى الحرب أوجهًا رقمنا بها ثغرًا وعينا وحاجبا

فقصدوا المدينة من الباب المفتوح، ما بين مهشوم ومجروح، والسيوف تشقهم والرماح تدقهم، وقد سالت بدمائهم الأباطح، وتم من سائر لحمهم كل كاسر وجارح، فوصلوا إلى باب المدينة، وانكسروا وهجموا فيه يدا واحدة، وتكردسوا ولا زال يدوس بعضهم بعضًا، حتى صارت العتبة العيل من ألباب أرضا، فاستدت الأبواب بالقتلى، ولم يكن الدخول منها أصلا، فتشتتوا فى البلاد وتفرقوا فى المهامة والأطواد، وكسر باب أنطاكية الممالك الاغتام، وخرجوا منه قاصدين بلاد الشام، فوصل فلهم إلى دمشق فى أشع صورة، وحكوا فى كيفية هذه الواقعة أشع سيرة، وصعد النواب إلى قلعة حلب وتحصنوا، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فاستأمنوا ونزلوا بواسطة تمرداش إليه، وقد غسل كل منهم من الحياة يديه.

ثم إنه مشى على هيئة مع وقاره ورزاقته وسكينته، ودخل حلب ونال منها ما طلب وفاز بالروح والسلب، ولما نزل النواب إليه قبض على سيدى سودون وشيخ على الخاصكى، وأما تمرداش فخلع عليه وقبض على التونبغا العثمانى نائب صفد، وعلى عمر بن الطحان نائب غزة، وجعل الكل فى صفد وشرع فى استخلاص الأموال وضبط الأثقال والأنفال، وقد ملأت القلوب هواجس هيئته وانتشر فى الآفاق شرار صولته، ثم إنه لم يكتف بما أزهقه من النفوس، حتى بنى الميادين من الرءوس، وسبب ذلك أن ذا قرابة البريدى الذى أرسله إلى حلب وضرب نائب الشام عنقه، وسلبه السلب ذكر

تيمور بقصته، وأراد القود من أهل حلب لذى قرابته، فأجاب سؤله، فمكثه
فيمن يختار منهم أن يفعل فيه ما استحسنته، فقتل طائفة منهم وبنى من
رءوسهم كذا وكذا ميدنه.



زيادة إيضاح لهذه المحنة مما نقلته من تاريخ ابن الشحنة

قال: أخبرني الحافظ الخوارزمي أن من كتب في الديوان من عساكر
تيمور ثمانمائة ألف نفس، ومنه أن تيمور قصد قلعة المسلمين، وكان نائبها
الناصرى محمد بن موسى بن شهرى، وأنه عصى عليه وكان يخرج
للغارات، ثم قال ما نصه بحروفه، وكان قد بدع بجمائع تيمورلنك وطراشته
مدة إقامته على بهنسا، وقتل منهم جماعة وأرسل رءوسهم إلى حلب وكسر
توماننا، كان جهزه إليه أقبح كسرة، حتى رمى غالب جماعته بأنفسهم فى
الغزاة وجهز تيمورلنك كتانه إلى المشار إليه ونصه يقول فيه: إني خرجت من
أقصى بلاد سمرقند، ولم يقف أحد أمامى وسائر ملوك البلاد حضروا إلى،
وأنت سلطت على جماعى من يشوش عليهم، ويقتل من ظفر به منهم،
والآن فقد مشينا عليك بعساكرنا، فإن أشفقت على نفسك ورعيتك فأحضر
إلينا لترى من الرحمة والشفقة ما لا نزيد عليه وإلا نزلنا عليك وخربنا بلدك،
وقد قال الله تعالى: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة
وكذلك يفعلون، فاستعد لما يحيط بك إن أبيت الحضور.

فأمسك المشار إليه الرسول وجبسه، ولم يلتفت إلى كلام تيمورلنك
فمشى إليه أوائل عسكره، فبرز إليهم المشار إليه وقتلهم وكسرهم.

وفى اليوم الثانى حضر تيمورلنك على قلعة المسلمين وبرز إليه المشر إليه
وقاتله قتالاً شديداً، وكانت وقعة عظيمة رأى فيها منه تيمورلنك شدة حزم
ورجع عن محاربتة وأخذ فى مخادعته وملاطفته، وطلب منه الصلح وأن
يرسل إليه خيلاً ومالاً لأجل حرمة، فلم يتخدغ منه وتنازل معه إلى أن طلب
منه خادماً فلم يعطه ورد خائباً، وأخذ المشار إليه فى أواخره قتلاً ونهباً
وأسرًا، كل ذلك وباب قلعته مفتوح لم يغلقه يوماً واحداً وأنشد فيه لسان
الحال:

هذا الأمير الذى صحت مناقبه ليث الوغى عمت الدنيا مفاخره

ولى تيمورلنك مسكوراً أوائله منه مراراً ومذعوراً أواخره

وكان حصول تلك السعادة المشار إليه دون غيره من الملوك وأصحاب
الحصون، لما كان فيه من العلم والديانة والإخلاص والصيانة، ولكونه من
السلالة الطاهرة العمرية رضى الله عنها، ولما كان يوم الخميس تاسع ربيع
الأول نازل تيمورلنك حلب، وكان نائبها المقر السيفى تمرداش، وقد حضرت
إليه عساكر البلاد الشامية: عسكر دمشق مع نائبها سيدى سودون، وعسكر
طرابلس مع نائبها المقر السيفى شيخ الخصاصكى، وعسكر حماة مع نائبها المقر
السيفى دقماق، وعسكر صفد وغيره. فاختلفت آراؤهم فمن قائل ادخلوا
المدينة وقتلوا من الأسوار، وقائل اخرجوا ظاهر البلد بالخيام.

فلما رأى المقر السيفى اختلافهم أذن لأهل حلب فى إخلاتاً والتوجه
حيث شاءوا، وكان نعم الراى فلم يوافق على ذلك، وضربوا خيامهم ظاهر

البلد تلقاء العدو، وحضر قاصة تيمورلنك فقتلهنائب دمشق قبل أن يسمع كلامه، ويوم اجمعة حصل بين الأطراف تناوش يسير، فلما كان يوم السبت حادى عشر ربيع الأول زحف تيمورلنك بجيوشه وقبيلته، فولى المسلمون نحو المدينة وازدحموا فى الأبواب، ومات منهم خلق عظيم والعدو وراءهم يقتل ويأسر.

وأخذ تيمورلنك حلب عنوة بالسيف وصعد نواب المملكة وخواص الناس إلى القلعة وكان أهل حلب قد جعلوا غالب أموالهم فيها، وفى يوم الثلاثاء رابع عشر شهر ربيع الأول أخذ القلعة بالأمان والأيمان التى ليس معها إيمان. وفى ثانى يوم صعد إليها وآخر النهار طلب علماءها وقضاتها فحضرنا إليه، ثم أوقفنا ساعة، ثم أمر بجلوسنا وطلب من معه من أهل العلم، فقال لأميرهم عنده، وهو المولى عبد الجبار بن العلامة نعمان الدين الحنفى، والده من العلماء المشهورين بسمرقند، قل لهم إنى سألهم عن مسألة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهرات وسائر البلاد التى فتحتها، فلم يحص الجواب، فلا تكونوا مثلهم ولا يجاوبنى إلا أعلمكم وأفضلكم، وليعرف ما يتكلم فإنى خالطت العلماء ولى بهم اختصاص وألفة، ولى فى العلم طلب قديم، وكان بلغنا عنه أنه يتعب العلماء فى الأسئلة، ويجعل ذلك سبباً لقتلهم أو تعذيبهم.

وقال القاضى شرف الدين موسى الأئصارى الشافعى عنى: هذا شيخنا ومدرس هذه البلاد ومفتيهم، سلوه وبالله المستعان، فقال لى عبد الجبار: سلطاننا يقول إنه بالأمس قتل منا ومنكم، فمن الشهيد قتلنا أم قتلناكم. فوجم الجميع وقلنا فى أنفسنا هذا الذى بلغنا عنه من التعبث وسكت القوم،

ففتح الله على بجواب سريع بديع وقلت : هذا سئل عنه سيدنا رسول الله ﷺ وأجاب عنه وأنا مجيب بما أجاب به سيدنا رسول الله ﷺ، قال لى صاحبي القاضى شرف الدين موسى الأنصارى، بعد انقطعت الحادثة والله العظيم لما قلت هذا سؤال سئل عنه رسول الله ﷺ وأجاب عنه، وأنا محدث زمانى هذا عالمنا قد اختل عقله وهو معذور، فإن هذا سؤال لا يمكن الجواب عنه فى هذا المقام، ووقع فى نفس عبد الجبار مثل ذلك، وألقى إلى تيمورلنك إلى سمعه وبصره، وقال لعبد الجبار سيسخر من كلامى، كيف سئل رسول الله ﷺ عن هذا وكيف أجاب، قلت : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله إن الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليرى مكانه فأينا فى سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ : من قاتل ليكون كلمة الله هى العليا فهو الشهيد.

ثم قال تيمورلنك : خوب خوب، وقال عبد الجبار : ما أحسن ما قلت، وانفتح باب المؤانسة وقال إني رجل نصف آدمى، وقد أخذت بلاد-كذا وكذا وعدد سائر ممالك العجم والعراق والهند وسائر بلاد التتار، فقلت اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الأئمة ولا تقتل أحداً، فقال : والله إني لا أقتل أحداً قصداً، وإنما أنتم قتلتم أنفسكم، والله لا أقتل أحداً منكم وأنت آمنون على أنفسكم وأموالكم.

وتكررت الأسئلة منه والأجوبة منا فطمع كل من الفقهاء الحاضرين وجعل يبادر لى الجواب ويظن أنه فى المدرسة والقاضى شرف الدين بينهما ويقول لهم بالله سكتوا ليجواب هذا الرجل، فإنه يعرف ما يقول وكان آخر ما سأل عنه ما تقولون فى على ومعاوية ويزيد، فأسر إلى القاضى شرف الدين وكان إلى جانبى أن أعرف كيف نجابوه فإنه شيعى، فلم أفرغ من سماع كلامه

إلا وقد قال القاضى علم الدين القفصى المالكى كلامًا معناه أن الكل مجتهدون فغضب لذلك غضبًا شديدًا، وقال على: الحق ومعاوية ظالم ويزيد فاسق وأنت حليبيون تبع لأهل دمشق، وهم يزيديون قتلوا الحسين، فأخذت فى ملاطفته والاعتذار عن المالكى فإنه أجاب شىء وجده فى كتاب لا يعرف معناه، فعا إلى دون ما كان عليه من البسط وأخذ عبد الجبار يسأل منى ومن القاضى شرف الدين، فقال عنى هذا عالم مليح وعن شرف الدين وهذا رجل فصيح .

فسألنى تيمورلنك عن عمري، فقلت: مولدى سنة تسع وأربعين وسبعمائة، وقد بلغت الآن أربعًا وخمسين سنة، فقال للقاضى شرف الدين: وأنت كم عمرك، فقال: أنا أكبر منه سنة. فقال تيمورلنك: أنت فى عمر أولادى، أنا عمري اليوم بلغ خمسًا وسبعين سنة، وحضرت صلاة المغرب وأقيمت الصلاة وأما عبد الجبار، وصلى تيمورلنك إلى جانبى قائمًا يركع ويسجد، ثم تفرقنا وفى اليوم الثانى غدر بكل من فى القلعة وأخذ جميع ما كان فيها من الأموال والأقشنة والأمتعة ما لا يحصى .

أخبرنى بعض كتابه أنه لم يكن أخذ من مدينة قط ما أخذ من هذه القلعة، وعوقب غالب المسلمين بأنواع من العقوبة وحبسوا بالقلعة ما بين مقيد ومزنجر ومسجون ومرسم عليه، ونزل تيمورلنك من القلعة وأقام بدار النيابة، وصنع وليمة على زى المغل وقف سائر الملوك والنوابين فى خدمته وأدار عليه كؤوس الخمر والمسلمون فى عقاب وعذاب وسبى وقتل وأسر، وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم فى هدم وحرق وتخريب ونش إلى آخر شهر ربيع الأول، طلبنى ورفيقى القاضى شرف الدين وأعاد السؤال عن على ومعاوية،

فقلت له : لا شك أن الحق كان مع علي وليس معاوية من الخلفاء ، فإنه صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، وقد تمت بعلي ، فقال تيمورلنك : قل علي علي الحق ومعاوية ظالم لنفسه . قلت : قال صاحب الهداية يجوز تقليد القضاء من ولاية الجور ، فإن كثيراً من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية ، وكان الحق مع علي في نوبته فانسر لذلك وطلب الأمراء الذين عينهم للإقامة بحلب ، وقال : إن هذين الرجلين نزول عندكم بحلب فاحنوا إليهما وإلى إلزامهما وأصحابهما ومن ينضم إليهما ، ولا تمكنوا أحداً من أذيتهما رتبوا لهما علوفة ولا تدعوهما في القعة ، بل اجعلوا إقامتهما في المدرسة ، يعنى السلطانية التى تجاه القلعة ، ففعلوا ما أوصاهم به إلا أنهم لم ينزلونا من القلعة ، وقال لنا الذى ولى الحكم منهم بحلب وكان يدعى الأمير موسى بن حاجى طغاي : إني أخاف عليكمما والذى فهمته من ما ساق تيمورلنك أنه إذا أمر بسوء فعل بسرعة ولا محيد عنه ، وإذا أمر بخير فالأمر فيه لمن ولىه .

وفى أول يوم من ربيع الآخر برز إلى ظاهر البلد متوجهاً نحو دمشق ، وثانى يوم أرسل بطلب علماء الباء فرحنا إليه والمسلمون فى أمر مريح وقطع رءوس ، فقلنا ما الخبر ، فقل إن تيمورلنك أرسل بطلب من عسكره رءوساً من المسلمين على عادته التى كان يفعلها فى البلاد التى أخذها ، فلما وصلنا إليه جاءنا شخص من علمائه يقال له المولى عمر ، فسألناه عن طلبنا فقال : يريد يستفتيكم فى قتل نائب دمشق الذى قتل رسوله ، فقلت : هذه رءوس المسلمين تقطع وتحضر إليه بغير استفتاء ، وهو حلف أن لا يقتل منا أحداً صبراً فعاد إليه ، ونحن ننظره وبين يديه لحم سليق فى طبق يأكل منه ، فتكلم

معه يسيراً ثم جاء إلينا شخص بشيء من ذلك اللحم، فلم نفرغ من أكله ولا وزعجة قائمة، وتيمورلنك صوته عال وساق شخص هكذا وآخر هكذا، وجاءنا أمير يعتذر ويقول: إن سلطاننا لم يحضر بإحضار رءوس المسلمين، وإنما أمر قطع رءوس القتلى وأن يجعل منها قبة إقامة لحرمة على جرى عادته، ففهموا منه غير ما أراد وإنه قد أطلقكم فامضوا حيث شئتم.

وركب تيمورلنك من ساعته وتوجه إلى دمشق فعدنا إلى القلعة ورأينا المصلحة في الإقامة بها، وأخذ الأمير موسى أحسن الله إليه في الإحسان إلينا وقبول شفاعتنا، وتفقد أحوالنا مدة إقامته بحلب وقلعتها، وتحينا الأخبار أن سلطان المسلمين الملك الناصر فرج قد نزل إلى دمشق، وأنه كسر تيمورلنك ومرة تحيى بالعكس، إلى أن انجلت القضية عن توجه السلطان إلى مصر بعد أن قاتل مع تيمورلنك قتالاً عظيماً، أشرف تيمورلنك منه على الكسر والهزيمة، وإنما حصل من بعض أمراءه خيانة كان ذلك سبب توجهه أخذاً بالحزم.

ودخل تيمورلنك إلى دمشق ونهبها وحرقها وفعل فيها فوق ما فعل بحلب، ولم يدخل طرابلس، بل أحضر له منها مال ولا جاوز فلسطين، وعاد نحو حلب راجعاً طالباً بلاده، ولما كان سابع عشر شعبان من السنة المذكورة، وصل تيمورلنك عائداً من الشام إلى الجبول شرقي حلب ولم يدخلها، بل أمر المقيمين بها من جهته بتخريبها وإحراق المدينة ففعلوا.

وطلبني الأمير عز الدين وكان من أكبر أمرائه وقال: إن الأمير أمر بإطلاقك وإطلاق من معك، فاطلب من شئت وكثر لأروح معكم إلى مشهد الحسين وأقيم عندكم، حتى لا يبقى من عسكرنا أحد.

وكان القاضي شرف الدين لا يفارقنى فطلبنا باقى القضاة واجتمع معنا نحو من ألفى مسلم وتوجهنا إلى مشهد الحسين صجة المشار إليه، وأقمنا ننظر إلى النار وهى تضرم فى أرجائها، وبعد ثلاثة أيام لم يبق بها أحد فنزلنا إليها فلم نر بها أحداً، فاستوحشنا وما قدرنا على الإقامة بها من النتن والوحشة، ولم نقدر على السلوك فى الطرقات من ذلك:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
وكانت نواب بلاد الشام معه مأسورين وانفلتوا أولاً بأول ومات سودون
بالطن معه فى قبة يلغا، واستقر فى نيابة دمشق تنكرى وردى والله أعلم،
هذا ما نقلته من كلام ابن الشحنة كما وجدته.

ذكر ورود هذا الخبر الذى أقلق

ووصول استنبوغا الدوادار وعبد القصار إلى جلق

فورد من حلب استنبوغا الدوادار، والفتح الماهر المدعو بعبد القصار،
وقالا معاشر المسلمين الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين، من يقدر على
حدى فليطلب لنفسه طريق النجا، ومن أطاق أن يشمر ذيله فلا يبيت فى
دمشق ليلة، ولا يغالط نفسه بالمداينة فليس الخب كالكعابنة، ففرقت الآراء
واختلفت الأهواء، وماج أمر الناس موجاً، وتفرقوا كما هو دأبهم فوجاً
فوجاً، فبعض الناس انتصح وجهز أمره وانتزع، وبعضهم كابر وأصر وكسر

أنياه لاستنبوغا وعبد القصار واهر، وأرادوا رجم هذين الناصحين وأن يسقوهم كأس حين، وقالوا إنما أردنا بذلك تبديد الناس وتشريدهم، وأجلاهم عن أوطانهم وتجريدتهم وتفريق كلمتهم وتمزيق جلدتهم، وإلا فالأمن حاصل والسلطان بحمد الله واصل، والنواب في حلب كانوا شرذمة قليلة، ولم يتم لهم معه الفكر والحيلة، مع أنه حصل من بعضهم مخامرة، ولم يوجد في الباقين مناصحة ومظاهرة، ولم يكن لهم رأس فلا تأخذوا في هذه المسألة بالقباس.

وأما عساكر مصر فإنهم كاملون العدة وسابغوا العدة، وفيهم للمسلمين فرج بعد الشدة، فقالا نحن بعد اللتيا والتي من شره سلمنا، وما شهدنا إلا بما علمنا، وكل منا أفصح عما أدى إليه اجتهاده وأبان، والله إنه في نصحته المسلمين النذير العرفان، وقد نصحناكم إن كنتم مفلحين، ولكن لا تحبون الناصحين، واستمر أمر الناس في التريد والتشاغل والتفرق والتبديد والتشاغب، فبعضهم توجه نحو الأماكن القدسية، وتوجه بعض إلى الديار المصرية وبعض تثبت بأذيال الجروف العاصية، وتحصن آخرون بالأماكن الغامضة القاصية.

ذكر خروج السلطان الملك الناصر من القاهرة بجنود الإسلام والعساكر

ثم إن السلطان خرج من غير توان، وتوجه بالعساكر والاستعداد التام إلى بلاد الشام، فلما بلغ الناس ذلك تسكن جأشهم وزال استيحاشهم، ورد غالب من كان برح منهم وانفرج الكرب والضيق عنهم، وأما أولو العزم وذوو الرأي السديد والحزم، فلم يلتفتوا إلى قدوم السلطان، بل طلبوا لنفسهم الأمان وانتظروا ما يتوعد من حادثات الزمان وكان أنامل لادهر الدائر، كتبت لهم على مرآة الخاطر ما أنشده الشاعر:

ألا إنما الأيام أبناء واحد وهذى الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذى مرت به السنوات
وقلت:

إن اختفى ما فى الزمان الآتى فقس على الماضى من الأوقات

فصل

ولما نجز تيمور أمر حلب ضبط أثقالها، وما أخذ منها من مال وسلب ووضعه فى القلعة، ووكل به بعض أمرائه من ذوى الجشاعة والمنعة، وهو الأمير موسى بن طغانى، وكان ذا عزم شديد ورأى وتوجه بذلك البحر الطام عشرة شهر ربيع الآخر إلى جهة الشام، ووصل إلى حمّة ونهب ما حوت يده، ولم يحتفل بها من نهب وأسر، ولا بإسراع فى مسير، بل سار رويداً وهو يكيد كيداً.

حكاية

رأيت حين توجهت إلى بلاد الروم فى أوائل شهر ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وثمان مائة عند وصولنا إلى حماة بالجامع النورى بها، من جانب الشرقى على حائطه القبلى نقشًا على رخامة بالفارسى ما ترجمته، وسبب تصوير هذا التسطير، هو أن الله تعالى يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا الممالك إلى العراق وبغداد، فجاوزنا سلطان مصر ثم أرسلناه وبعثنا إليه قصادنا بأنواع التحف والهدايا، فقتل قصادنا من غير موجب لذلك، فكان قصدنا بذلك أن تنعقد المودة بين الجانبين وتتأكد الصداقة من الطرفين، ثم بعد ذلك بمدة قبض بعض التراكمة على أناس من جهتنا وأرسلهم إلى سلطان مصر برقوق فسجنهم وضيق عليهم فلزم من هذا أنا توجهنا لاستخلاص متعلقينا من أيدي مخالفينا، واتفق لذلك نزولنا بحماة فى العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثمائة.

فصل

ثم رحل إلى حمص فلم يتعرض بها يتشتت وتبديد ووهبها لسيدي خالد بن الوليد رضى الله عنه قلت بديهاً:

ألا لا تجاور سوى الخيرين	أحياء وكن جارهم فى القبور
ألم تر حمص وسكانها نجوا	من بحار بلايا تمور
لأنهم جاوزوا خالداً ومن	خاور الأتقياء لا يبور

وخرج إليه شخص من آحاد الناس يدعى عمر بن الراس، فاستجلب خاطره، وكان قدم إليه مقدمة فاخرة فولاه أمور البلد وركن إليه واعتمد ووى

قضاء تلك البلاد رئيساً يسمى شمس الدين بن الحداد، ونادى بالأمان للقاضى والدان وتبايعوا بها وتشاوروا وفى استفادة ربح الأمن لم يتماروا .

ثم إن نائب الشام ضعف معه ومات على قبة يلبغا ونائب طرابنس هرب منه وللخلاص ابتغى فوصل إلى مدينته واستقر فى ولايته فاضطرم غضبا واستشاط لها واشتعل قيظ غيظه، وقتل كل من وكله بحفظه واسعر بهم سقر وكانوا ستة عشر، وأما تمرdash فإنه داراه ومارى وهرب منه فى قارا .

واستمر علاء الدين التونبغا العثمانى نائب صفد، وزين الدين نائب غزة وغيرهما معه فى صفد، ثم سارا وما ارتبك حتى نزل على بعلبك، فخرج أهلها ودخلوا عليه، وتراموا طالبين الصلح بين يديه، فلم يلتفت إلى هذا المقال، فأرسل فيهم جوارح النهب والاستصال وقرب السلطان أيضاً، ثم ارتحل مجرياً ذلك البحر الزخار والسييل التيار والطوفان الترتار، حتى أشرف على دمشق من قبة سيار، ووصلت العساكر المصرية والجنود الإسلامية، وقد ملأ الفضاء وأشرق الكون منهم وأضاء، فتأتى سهامها لحب قلب من نوى الخلاف فالقة، وصواعق سيوفها فى عقاص كل عقص صاعقة، ونصال رماحها لرتق سماء الأرواح عن أرض الأشباح فائقة، وقد طلبوا الإطلاب وحربوا الأحزاب وعينوا الميمنة والميسرة، ورتبوا المقدمة والمؤخرة وسواوا القلب والجناح، وملأوا البطاح والبراح، وساروا بالمقانب المكية والكتائب المقنية، والمراكبة المكوكية والمراتب المقربة والقربات المرتبة والسلاهب المجنبه، والنجائب التى هى على أكل اللحم مستلهبة وفى كل كتييج من الأوسد الضراغم ومن النور القشاعم قلت :

ورب ذى لجب كالطود ذى حنق كأنه البحر فى أثناء غابات
بحران فى كل موج منهما أسد يلعب الموت فى كفيه حيات
كل يرى العين معناه وصورته عند النزال وأن يتزل فشطعات
إن يسر تلق السماء فى الأرض دائرة أو سار تعقد أرضاً منه غبرات

وقد تنكبوا حنايا المنايا وتقلدوا سيوف الحتوف واعتقلوا الذوابل
النواهل، وثبتوا حيث نبتوا وكأنهم خلقوا من كواهل الصواهل وقلت:

كان الجو ثوب لازوردى يزرکش نسجه قصب الرماح
فإن عقد القتام عليه ليلاً أرتك صفاحه لمع الصباح
وكان نجومه النشاب ترمى شياطين الكفاح لذى النطاح

ولا زالت أفواج هذه الأمواج على هذا المنهاج، ملاطمة وإنتاج هذا
العجاج تحت العجاج، متصادمة وكل يتادى بطريق المفهوم، وما منا إلا له
مقام معلوم، فوصلت غيلان الوغى إلى قبة يلبغا، يوم الأحد العاشر من شهر
ربيع الآخر عام ثلاثة وثمانمائة من الهجرة، فنزل كل من العساكر بمئة ويسرة،
واستقرت العساكر والأمراء الإسلامية فى البيوت والمساكن، ونزلت الجنود
التتارية غربى دمشق من داريا والحولة وما يلى تلك الأماكن، ودخل بعض
أنفال السلطان إلى البلد وتحصنت القلعة والمدينة بالسلاح والعدد.

ثم أخذ كل من الجيشين حذره ونجز للمقابلة والمقاتلة أمره، وحفروا
الخنادق وسد كل على الآخر أفواق المضائق، وشرعوا فى المهاوشة والمناوشة
والمعانشة، ثم أمر السلطان العساكر بالبروز من المدينة إلى الظاهر، وجعل
يخرج من المدينة رؤساء أعيانها وتنحاز فى المقاتلة إلى سلطانها، والأطفال

الصغار يجارون إلى الجبال، وينادون بحرق كل ليلة في الأزقة، يا الله يا
رحمن انصر مولانا السلطان والناس في اضطراب وحركات يستزلون النصر
والبركات ويستغيثون الليل والنهار يا مجاهدون الأسوار واستشهد من رؤساء
البلد في تلك الأيام قاضى القضاة برهان الدين التادكى المالكى، الحاكم
بالشام، وثلث يد قاضى القضاة شرف الدين عيسى المالكى بضربة حسام،
وجعلوا يأتون بمن يظفرون به من الدعو، فيقتلونه ربما غنموا منهم من ناطق
وصامت فيشهرونه

ذكر واقعة وقعت ومعركة صدعة لرو أنها نفعت

ثم إن فى بعض الأيام تقدم من أولئك الأغتام نحو من عشرة آلاف
وزحفوا إلى ميدان المصاف فنهض لهم من العساكر الشامية نحو من خمس
مائة، ثم أتبعهم الأمير السنبلى فى نحو من ثلاث مائة:

أسود إذا لاقوا ظباء إذا عطوا جبال إذا أرسوا بحار إذا ساروا

شموس إذا لاحوا بدور إذا انجلوا رياح إذا هبوا غمام إذا هموا

صقور إذا انقضوا ونمور إذا سموا رعود إذا صاحوا صواعق إذا رموا

مغ كل منهم خطار تسجد قدرد الملاح لخطراته، وبتار يتعلم سفك
الدماء من لحظاته، وحنية تضاهى حاجبه وسهام فى تشبهها بأجفانه صائبة،
وترس لين الملمس إذا تغطى به رأيت البدر على شمس وعليه خوذة كأنها من

لمعان وجتته مأخوذة، أو من بوارق طلعتة مفلوذة إذا نظر الطرف إليها يأخذه الانبهار، يكاد سنا برقتها يذهب بالأبصار ولبوس أشبه لابسه وصار ملابسه ظاهرة، حرير ناعم كبشرته وباطنه حديد كقلبه من قسوته، وقد امتطوا الفحول من نجائب الخيول، فكان يدور تلك الجموع مع الرماح الملتهبة الأسنة، عروس تجلى تحت الشموع وتوجهوا إلى حومة الوغا وتلاقوا فى واد خلف قبة يلبيغا.

فصل

ولما رأت هذه الأسود تلك الذئاب والكلام، كانوا كالمؤمنين وقد رأوا الأحزاب، فبان منهم صحيح الضرب وعليه، وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، فأحاط أولئك بهؤلاء لكثرة الغلبة وأداروا لقرضهم على هذه البحور الدائرة، كالعروض اشتغلوا بالضرب وتقطيع الدائرة بالحرب العضوض، فأول ما أضمروا لهم فى ذلك الزحف قطع الرأس وخبل العقل وقطع الكف، فصلمواب الرمح الطويل عقلهم، وثلموا بالرشق المديد شكلهم، وبتروا بالعضب البسيط وافرهم، وشتروا بالسهم السريع كاملهم فحدوهم وقصموهم وخرموهم وشعثوهم وشرموهم وجموهم ووقصوهم وعصبوهم وعقصوهم وخزلوهم ونقصوهم، فردوا صدورهم على الأعجاز، وشدوا حقيقة الخلاص منهم المجاز، فانكشفوا عنهم وهم ما بين مشطور ومقطوع ومحدوف ومجرور ومنهوك وموقوف، ورجع اسنباى المشار إليه وقد اقتضبت بحربه المتدارك خفيفهم واجتث بضربه المتقارب التماسك ثقلهم وخفيفهم وتيسبغ سوابغهم بالنصر مرفل وبالتمكين التام مزيل، وبیت دائرهم المتفقة أمن الخلل وعروضه وضربه سائم من الزحاف والعلل.

ذكر ما افتعله سلطان حسين ابن أخت تيمور من المكر والمين

ثم إن سلطان حسين وهو ابن أخت تيمور أظهر أنه خامر على خاله، وجاء إلى السلطان وفي باطنه أمور، وكان شاباً ذا شجاعة وعنده طيش ورقاعة وأظهروا بقدومه الفرح واستشعروا النصر والمرح، وكان في رأسه جمعة شعر فأزالوه وخلعوا عليه وفي زيهم أظهروه.

فصل

ثم إن تيمور أشاع أنه خار وتتعط فرحل قليلاً ورجع القهقري وتكعكع كل ذلك من مكائده، وجبائل مصائده وبيان ذلك أنه بلغه أن الخلاف واقع بين العساكر المصرية وأنهم سيفرون فيفوتونه إذ ذاك، وأظهروا الخوف وشيع أنه راحل ليثبتهم، وعن الفرار يثبطهم فلما عزموا على الفرار لم يبين لهم ثبات ولا قرار.

ذكر ما نجم من النفاق بين العساكر الإسلامية وعدم الاتفاق

وكان أتابك العساكر وكافل الملك الناصر الأمير الكبير باش بيك، وتحت يده الأكابر والأصاغر والجنود، وإن كان مدده كثيراً والجيش وإن تراءى عدده غزيراً، لكن كان كل منهم أميراً، ولم يكن شئ منهم سوى الرأس صغيراً، فتشتت آراؤهم وتصادمت أهواؤهم وانتقلت أشعار شعارهم من الدائرة المؤتلفة إلى الدائرة المختلفة، ونقل كل منهم فى وزن بيته إلى عروض وأخذ فى عرض صاحبه بالتقريض.

وظهرت تلك الساعة آيات الرحمن فى اختلاف الألسنة والألوان، وصاروا فى رعاية الرعية كالذئب والضبع، وسلطوا على رعى هزيلها النمر لغضوب والسبع، ولحق فى عند هذا الحديث الأصاغر بالأكابر والأسافل بالأعلى والأوائل بالآواخر وصاروا كما قال الشاعر:

تفرقت غنمى يوماً فقلت لها يا رب سلط عليها الذئب والضبع

وتوجه منهم رءوس إلى القاهرة، تاركاً كل منهم قوته وناصره وصدقوا تيمور فى نفيه عنهم معرفة السياسة والدرية فى سلوك طرائق الرئاسة.

فصل

ولما علم الغابرون ما فعله السائرون، لم يسعهم غير تشمير الذيل وأتباعهم تحت الليل ومن تحلف عن قوم أو أخذته سنة، أو نوم وقع فى

الشرك وهوى إلى أسفل الدرك، وكان الناس فى الليل والنهار ملازمين الإقامة على الأسوار، وكل قد فرح وابتهج وتيقن أنه حصل له من سلطانه فرج، ففى بعض الليالى صعد الناس إلى مكان على، وإذا بأماكن مخيم السلطان قد ملئت من النيران، ولم يعرف أحد ما الخبر غير أن الدنيا ملئت بالشر والشر وأصبحوا وقد خلت الديار، ولم يبق فى قبة يلغا نافع نار فخشعت أصواتهم وسكنت حركاتهم فجعلوا يتهافتون، وفيما بينهم يتخافتون وماج الشر واضطرب، وقال الناس السلطان هرب فانقصم ظهر الناس وأيقنوا حلول البأس، وتفاقت الهموم وتعاضمت الغموم، وتقطعت بهم الأسباب، وشمل الخلائق أنواع العذاب، وضائق الحيل كالصدور وتخبطت الأوامر الأمور.

فصل

ثم إن تيمور حمد ربه ورحل من مكانه ونزل القبة وألقى عصاه، ونام مستريحاً على قفاه، ونادى بمعنى ما قلت الحمد لله لننا ما نؤمله والصد أدبر، والمأمول قد حصل وحفر الخنادق حوله، وبث فى الأطراف رجله وخيله، وأرسل الطلب وراءهم من هرب، وصار كلما أتى بأحد من أجناد الرجال أمر بإلقائه بين يدى تلك الأفيال، فتفعل معه الأفيان فى تلك الفلاة ما تفعله المواشى يوم القيامة فى مانع الزكاة.

فصل

وأما السلطان فإنه لم يصبه من أحد ضيم لأنه نشر نشوز الغيم وانساب انسياب الأيم، وتوجه على وادى التيم فانتشرت شياطين تيمور فى الأرض، وملأت الطول والعرض ودخلت طراشتهم إلى أطراف البلاد وضواحيها، وعامة القرى ونواحيها، وجعلوا من كل حدب ينسلون فى مسارب الأرض

ومغاربها، التى بارك الله فيها وتقدموا إلى المدينة، وكانت كما ذكر بالأهبة
حصينة وأنواع الاستعداد مكيّة، مسدولة الحجاب مغلقة الأبواب، فتمنع
أهلها عليهم ولم يسلموها إليهم، رجاء أن يشموا من النجدة الأرج، أو يمن
الله عليهم بعد الشدة بفرج، فاستمروا على ذلك نحواً من يومين، ثم استيقنوا
من رحابهم الخيبة، ومن ظنهم المين، فكان قدوم السلطان وذهابه بالعساكر
كما قال الشاعر:

كما أبرقت قومًا عطاشًا غمامة فلما راءوها أقشعت وتجلت

ذكر خروج الأعيان بعد ذهاب السلطان

وطلبهم من تيمور الأمان، ولما خانتهم الظنون وعلموا أنه حل بهم ريب
المنون، اجتمع من المدينة الكبر والموجود من الأعيان والرءوس، وهم قاضى
القضاة محيي الدين محمود بن العز الحنفى وولده قاضى القضاة شهاب
الدين، وقاضى القضاة تقى الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلى، وقاضى القضاة
شمس الدين محمد الحنبلى النابلسى، والقاضى ناصر الدين محمد بن أبى
الطيب كاتب السر، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشهيد الوزير. وكان
منصب الوزارة إذ ذاك له أبهة ما فى الجملة، والقاضى شهاب الدين الحبانى
الشافعى، والقاضى إبراهيم بن انقوشة الحنفى، نائب الحكم رحمهم الله،
فأما القاضى الشافعى وهو علاء الدين ابن أبى البقاء، فإنه هرب مع السلطان،

وقاضى القضاة المالكي وهو برهان الدين الشاذلي فإنه استشهد كما ذكر، فخرج هؤلاء الأعيان وطلبوا منه الأمان بعدما وقع منهم المشاورة والاتفاق ونظمت كلمتهم فى سلك الوفاق.

فصل

ولما أقلع السلطان بفلك عساكره المشجون، وقع فى بحر العساكر التيمورية قاضى القضاة ولى الدين بن خلدون، وكان من أعلام الأعيان، ومن قدم مع السلطان فلما قتل السلطان وفرك، فكأنه كان غافلاً فوقع فى اشرك، وكان نازلاً فى المدرسة لعادلية فتوجه هؤلاء الأعيان إليه فى تدبر هذه القضية، فوافق فكرهم فملكوه فى ذلك أمرهم، فما وسعهم إلا استصحابه معهم، وكان مالكي المذهب والمنظر، أصمعى الرواية والمخبر، فتوجه معهم بعمامة خفيفة وهيئة ظريفة وبرنس كهو رقيق الحاشية يشبه من دامس الليل الناشئة فقدموه بين يديهم، ورضوا بأقواله وأفعاله لهم وعليهم.

وحين دخلوا عليه وقفوا بين يديه، واستمروا واقفين وجلين وخائفين حتى سمح بجلوسهم وتسكين نفوسهم، ثم هش إليهم ومنّ ضاحكاً عليهم، وجعل يراقب أحوالهم ويسبر بمسبار عقله أقوالهم وأفعالهم، ولما رأى شكل ابن خدون لشكلهم مبايناً، قال هذا الرجل ليس من هاهنا، فانفتح للمقال مجال فبسط لسانه، وسنذكر ما قال.

ثم طووا بساط الكلام ونشرو سباط الطعام، فكروما تلالا من اللحم السليق، ووضعوا أمامه كل ما به يليق، وبعض تعفف عن ذلك تنزها وبعض تشاغل عن الأكل بالحديث والها، وبعض مد يده وأكل وما جبن فى مصاف الالتهام ولا نكل، وإلى الأكل أرشدهم وناداهم وأنشدهم، كلوا أكل من إن

عاش خير أهله وإن مات يلقى الله وهو بطين، وكان من جملة الآكلين قاضى
القضاة ولى الدين .

وكل ذلك وتيمور يرمقهم وعينه الخزرا تشرقهم، وكان ابن خلدون أيضاً
يصوب نحو تيمور الحديق، فإذا نظر إليه أطرق، وإذا ولى عنه رمق، ثم قال
بصوت على يا مولانا الأمير الحمد لله الكبير، لقد شرفت بحضورى ملوك
الأنام، وأحييت بتواريخى ما ماتت لهم من الأيام، ورأيت من ملوك العرب
فلانا وفلانا، وحضرت كذا وكذا سلطانا، وشهدت مشارق الأرض ومغاربها،
وخالطت فى كل بقعة أميرها ونائبها، ولكن الله المنة إذا امتد بى زمانى، ومن
الله على بأن أحيانى، حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة، والمسلك شريعة
السلطنة على الطريقة، فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف. فطعام مولانا
الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف.

فاهتز تيمور عجباً وكاد يرقص طرباً، وأقبل بوجه الخطاب إليه، وعول
فى ذلك دون الكل عليه، وسأله عن ملوك الغرب وأخبارها وأيام دولتها
وآثارها، فقص عليه من ذلك ما خدع عقله وخلبه وجلب لبه وسلبه، وكان
تيمور فى سير الملوك والأمم أمة، وأبا التاريخ شرقاً وغرباً وأمة. وسنذكر
بهذه المعانى بديع بيان .

فصل

وبينما هم يوماً قاعدون فى حضرة ذلك البصير، وإذا بالقاضى صدر
الدين المناوى فى أيديهم أسير، وكان قد تبع السلطان فى الهرب فأدركه فى
ميسلون الطلب، فقبضوا عليه وأحضروه بين يديه، وإذا هو بعمامة كالبرج
واردان كالخرج، فتخطى الرقاب وجلس من غير إذن فوق، الأصحاب،

فاشتاط تيمور غضباً، وملأ المجلس لهبا، وانفتح سحره وشجر غيظاً بحره
وشخر ونخر ومخر بجسد حنقه وزخر، وأمر طائفة من المعتدين بالتكيل
بالقاضي صدر الدين فسحبوه سحب الكلاب، ومزقوا ما عليه من ثياب،
وأوسقوه سباً وشتماً وأشبعوه ركلاً ولكماً، ثم أمرهم بتشديد أسره وتجريد
كسره، وترادف الإساءة إليه، وتضاعف الكسرات على رغم التصريفين عليه،
فأخرج إخراج الظالم يوم يولى مديراً، ماله من الله عاصم، ثم تراجع تيمور
إلى ما كان فيه من ترتيب غوائله ودواهيته، فألبس كلا من هؤلاء الأعيان
خلعة، وأقامه عنده فى عزة ورفعة، ثم ردهم نشرحى الصدور فى دعة
وسرور، وفى خاطره شرور وأمور تمور، فساروا وقد حاروا قلت:

كالهدى زينه المهدي وعظمه وعن قريب لضيف الموت أطعمه

وشرط لهم ولذويهم الأمان على أن يدفعوا له أموال السلطان، وماله
وللامراء من أثقال وتعلقات وأموال ودواب ومواش وممالك وحواش، ففعلوا
ما به أمر ورفعوا إليه ما بطن من ذلك وما ظهر، فأما القلعة فإنها استعدت
للحصار وكان نائبها يدعى ازدار فحصنها، وبالأهبة الكاملة مكنها، وانتظر
من السلطان نجدة أو مانع ربانى يفرج عنه الشدة، فلم يلتفت تيمور فى أول
الأمر إليها ولا احتفل لها ولا عرج عليها، واستعان على استخلاصها بهؤلاء
الأعيان، فلما حصل الثقل وإلى خزائنه انتقل، طرح على المدينة أموال
الأمان، واستعان على استخلاصها بهؤلاء الأيان، وأقام عليهم دواوينه وأهل
الضبط والحرص من مباشره وحسبه، وفوض ذلك إلى كفاية الله داد أحد
أركان دولته، ومن عليه الاعتماد، وهو أخو سيف الدين المار ذكره فى أول
الكتاب لاهه وأقام معهم كل جبار عنيد، ومن نشأ فى حجر الفظاظة ووضع

ثدى ظلمه ونادى بالأمان والاطمئنان، وأن لا يبغى إنسان على إنسان، فمد بعض الجفثاى يدهم إلى غارة بعد ما سمعوا هذا النداء واشتهاره، فبلغ ذلك تيمور فأمر بصلبهم فى مكان مشهور، فصلبوههم فى الحريرين برأس سوق البزورين، ففرح الناس بهذه لاعفلة وأملوا خيره وعدله، وفتحوا من أبواب المدينة باب الصغير، وشرعوا ليحررون أمر المدينة على النكير والقطمير، فوزعوا هذه الأموال على الحارات، وتنادى أهل الظلم والعدوان من القريب والغريب، يا للشارت وجعلوا دار الذهب مكان المستخلص، وطفقوا يلقون الناس فى ذلك المقنص وتسلط بعض الناس على البعض، واصطاد أرانب الأرض بكلاب الأرض.

وكان فصل الخريف كجيش مصر قد قفل، وفصل الشتاء بزمهريره مجند تيمور بنيرانه على العالم قد نزل، فانتقل إلى القصر الأبلق، ثم إلى بيت الأمير تبخاص، وأمر بالقصران يهدم ويحرق، ودخل إلى المدينة من باب الصغير فى جمع كثير، وصلى الجمعة فى جامع بنى أمية، وقدم الحنفية على الشافعية، وخطب به قاضى القضاة محى الدين محمود بن العز الحنفى المذكور، وجرى ما يطول شرحه من أمور وشرور، ووقع بين عبد الجبار بن عبد الجبار الرحمن الخوارزمى المعتزلى، وبين علماء الشام لا سيما قاضى القضاة تقى الدين إبراهيم بن مقلح الحنبلى مناظرات ومناقشات ومباحثات ومراجعات، وهو فى ذلك كترجمانه يخاطبهم فى جميع ذلك بلسانه.

فمنها وقائع على ومعاوية، وما مضى بينهم فى تلك القرون الخالية، ومنها أمور يزيد وما يزيد، وقتله حسين العسيد الشهيد، وإن ذلك ظلم وفسق بلا نكر، ومن استحله فهو واقع فى الكفر ولا شك أن ذلك الفعل الحرام كان

بمظاهرة أهل الشام، فإن كانوا مستحليه فهم كفار، وإن كانوا غير مستحليه فهم عصاة وبغاة وأشرار، وإن الحاضرين على مذهب الغابرين فحصل منهم في ذلك أنواع الأجوبة، فمنها ما رده ومنها ما أعجبه، إلى أن أجاب كاتب السر وأجاد وأصاب فيما قال، لو أفاد أطل الله الكبير بقاء مولانا الأمير، أما أنا فنسبى متصل بعمر وعثمان، وإن جدى الأعلى كان من أعيان ذلك الزمان، وحضر تلك الوقائع وخاض هاتيك المعامع، وكان من رجال الحق وأبطال الصدق، ومما تواتر من فعله ووضعه الشيء فى محله، أنه توصل إلى رأس سيدنا الحسين ونزّهه عما حصل له من ابتدال وشين، ثم نظفه وغسله وعظمه وقبله وطيبه وبجله، وواراه فى تربة، وعد ذلك عند الله تعالى من أفضل قربه.

فلذلك أيها الغمام الصيب كنوه بأبى الطيب، وعلى كل حال أيها الأمير فتلك أمم قد خلت وهموم غاب عمومها انجلت، وبما جرعت انقضت وبما أذاقت مرت أو حلت، وفتن أراحنا الله إذا زاحنا عنها، ودماء طهر الله سيوفنا منها. وأما الساعة اعتقادنا اعتقاد أهل السنة والجماعة، فلما سمع هذا لكلام قال: يا لله العجب وما سميتم بأولاد أبى الطيب إلا لهذا السبب. قال نعم ويشهد لى بذلك القاصى والدانى، وأنا محمد بن عمر بن محمد بن أبى القاسم بن عبد المنعم بن محمد بن أبى الطيب العمرى العثمانى، فقال: لك المعذرة يا طيب الأسلاف، لولا أنى طاهر العذر لحملتك على عاتقى والأكتاف، ولكن سترى ما أفعله معك ومع أصحابك من التكريم والألطف، ثم إه ودعهم وبالتعظيم والاحترام شيعهم، ومنها أنه سألهم كناية سؤال إضرار ونكاية، فقال: ما أعلى الرتب درجة العلم، أو درجة النسب فأدركوا قصده

وفهموا، ولكن عن رد الجواب وجموا، علم كل منهم قد ابتلى فابتدر بالجواب القاضى شمس الدين النابلسى الحنبلى، وقال: درجة العلم أعلا من درجة النسب ومرتبتهما عند الخالق والمخلوق أسنى الرتب، والهجين الفاضل يقدم على الهجان الجاهل والمقرى المنيف، أولى الإمامة من السيد الشريف، والدليل فى هذا جلى، وهو إجماع الصحابة تقديم أبى بكر على، وقد أجمعوا أن أبى بكر أعلمهم وأثبتهم قدما فى الإسلام وأقدمهم، وإثبات هذه الدلالة من قول صاحب الرسالة، لا تجتمع أمتى على الضلالة.

ثم أخذ فى نزع ثييه مصيخاً لتيemor وما يصدر من جوابه، ففكك إزاره وقال لنفسه إنما أنت عاره، وكأس الموت لا بد من شربها، فسواء ما بين بعدها وقربها والموت على الشهادة من أفضل العباد، وأحسن أحوالها لمن اعتقد أنه إلى الله صائر كلمة حق عند سلطان جائر، فسأل ما يفعل هذا المهمل، فقال: يا مولانا الجليل إن فرق عساكر كأمم بنى إسرائيل وفيهم من ابتدعوا وكانوا شيعاً، ولا شك أن مجالس حضرتك تنقل وعقائل مباحثها تحل الصدور فتعقل، وإذا ثبت هذا الكلام عنى ووعاه أحد غير سنى خصوصاً من ادعى موالاته على ويسمى فى رفضة أبى بكر بالرافضى، وتحقق منى يقينى، وأنه لا ناصر لى يقينى، فإنه يقتلنى جهاراً وبريق دمي نهاراً، وإذا كان كذلك فأنا أستعد لهذه السعادة، وأختتم أحكام القضاء بالشهادة، فقال لله هذا ما أفصححه وأجرأه فى الكلام وأوقحه، ثم نظر إلى القوم وقال لا تدخلن هذا محلى بعد اليوم.

فصل

وهذا الرجل أعنى عبد الجبار كان عالم تيمور وإمامه، ومن يخوض فى دماء المسلمين أمامه، وكان عالماً فاضلاً فقيهاً كاملاً بحائناً محققاً أصولياً مدققاً، وأبوه النعمان فى سمرقند كان، وهو فى الفروع من أعلم أهل الزمان، حتى يقال له النعمان الثانى وكان من القائلين بعدم الروية فى الآخرة، فأعنى الله بصره كبصيرته فى الدنيا وأكثر علماء عصره بما وراء النهر قرأ عليه الفروع ونقل عنه مسائل الشروع، ولا خلاف فى الفروع بين أهل السنة وأهل الاعتزال، وإنما اختلافهم فى أصول الدين فى مسائل معدودة سلكوا فيها سبيل الضلال.

فصل

وتصدى لاستخلاص الأموال من أهل الشام، كل غشوم ظلام وكفور صدام، وكان فى قلة وفاقه كصدقة ابن الحارثى وابن المحدث وعبد الملك بن التكريتى المنبوز بسماقة وغيرهم من نظرائهم من عواقب الظلم وأبنائهم، مع حضور أكابر المدينة وأعيانها المار ذكرهم ورؤساء قطانها، فإنه لم يمكنهم فى ذلك إن تخلفوا، ولا يتقاعسوا لحظة ولا يتوقفوا، وبحضور دواوينه وحسابه وضابطة أمور خزانته وكتابه، ومنهم خواجه مسعود السمنانى، ومولانا عمر وتاج الدين السلمانى، كل ذلك فى دار الذهب وهو مكان مشهور، بركة الله داد داخل باب الصغير فى دار ابن مشكور، وجعل كل من فى قبله من أحد ضغينة، أو سخيمة دفينه، أو غل، أو حسد أو حقد أو نكد يغمر لى إخوته أولئك الظلمة الفظاظ والزبانية الشداد الغلاظ، لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النيات على من قال برهياً، بل بأدنى إشارة وأقل عبارة، ينون على

أرض وجود ذلك المسكين من جبال النكال قصوراً شواحق، وينشئون على حدائق ذاته من سماء العذاب سحب عقاب ترعد عليه صواعق وتبرق له من الدمار والبوار بوارق.

فصل

ثم إنه صار في هذه المدة يحاصر القلعة، ويعد لها ما استطاع من عدة، وأمر أن يبنى مقابلها بناء يعلوها ليصعدوا عليه فيهدموها فجمعوا الأخشاب والأحطاب وعبوها وصبوا فوقها الأحجار والتراب ودكوها، وذلك من جهة الشام والغرب، ثم علوا عليه وناوشوها الطعن والضرب، وفوض أمر الحصار لأmir من أمرائه الكبار يدعى جهان شاه، فتكفل بذلك وعاداه، ونصب عليه المجانيق ونقب تحتها وعلقها بالتحاليق، وكان فيها من المقابلة فيه غير طائفة أمثلهم شهاب الدين الزردكاش الدمشقي، وشهاب الدين أحمد الزردكاش الحلبي، فأبليا في عسكره بلاء حسناً، وكانا على جيشه كلما فاء إلى فنائهم وباء مصيبة وفنا، فأهلكا من جيشه بالإحراق وإرعاد المدافع والأبراق ما فات العد، وتبدد عن دائرة الجد، ولكنه لما أحاط بها من بحار بحريته، سيل عرم سائلها وأمطر عليها من سهام غمام رماته، وصواعق بوارق كماته صيب وابلها، أتاها العذاب من فوقها ومن تحتها وعن أيمانها وعن شمائلها، وكلت عن المجادبة والمنازمة أيدي مقاتلها فطلبوا الأمان، ونزلوا إليه من غير توان.

وكل هذا الأمر المهول والقضاء العجب في أوائل شهر ربيع الآخر وجماديين وشهر رجب، ولكن ما نال من القلعة روما إلا بعد محاصرتها ثلاثة وأربعين يوماً، وصار في هذه المدة تتطلب الأفاضل وأصحاب الحرف الصنائع وأرباب الفضائل، ونسج الحريريون له قباء بالحرير والذهب، ليس له درز فإذا

نرى نساء عجب، زيني في سقابر باب لصغير بين ملاحقين على ربه
زوجات النبي ﷺ، وأمر بجمع العبيد الزنج واعتنى بجمعهم أكثر من غيرهم
١٠٠-١



ذكر ما صنعه بعض الأكياس من الناس خوفاً من أن يحل بهم الباس ووقى بنفائيس النفوس والأنفاس

وكان في صنف تاجر من أهل البلد، أحد الرؤساء والتجار يدعى علاء الدين، ينسب إلى دوادار كأنه تقدمت له خدمة على السلطان، فولاه حجة ذلك المكان، فلما توجه النراب إلى حلب، والعادة أن ينوب عن نائب البلدة في غيبته من حجب، ناب عن نائبها التونبغا العثماني حاجيها علاء الدين الدواداري، فغرق في أسر ذلك الطوفان كل النواب، ومن جملتهم العثماني وابن الطحان، ومات منهم من مات وفر واستمر في قيد الأسر التونبغا وعمر.

فلما قدم تيمور الشام وحل بها منه ما يحل من فضاة السوء بأموال الأيتام، شرع كل متول في بلدا يفعل ما أدى إليه الاجتهاد، فبعض حصن أماكنه، وبعض مكن مكائنه، وطائفة استجرت للنفار، وفرقة استوفرت للفرار، وقوم سالموا وساكنوا وهادوا وهادنوا، ففكر علاء الدين المذكور وقدر وتأمل في خلاص صاحبه وبلده، وتبصر وكان من أبناء الناس وعنده ذوق

الأكياس، واستشار مصيب عقله في ذلك واستنطقه، فقال داره بما معك من مال، واترك سرب الفرار ونفقه وما كذبه أن قال له كل مداراة عن العرض ستر له وصدقة، وكان ذا مال ممدود، فقال ما ادخرت الدنانير الصفر والدراهم البيض إلا للأيام السود، فطلب من تيمور الرياضة وأراد أن يجس أولاً بمجاملته المخاظة، فعالج هذا الأمر علاج النطس المريض، وبادر بالمهادنة حول الجريض دون القريض، فأرسل إلى تيمور أجناساً من ماله الطويل العريض، واستمال خاطره واستدعى أوامره ثم أردفها بأضعافها وأضعف خواصرها بأردافها، فشكر تيمور له صنعه وزاده ذلك عنده منزلة ورفعة، وأرسل إليه مرسوم أمان، وأن يعامل هو وأهل بلده بالمجاملة والإحسان، فليؤمن روعهم وليسكن جنسهم ونوعهم، ولتؤنس وحشتهم ولتذهب دهشتهم، بحيث إنهم يتبايعون ويتشاورون، وإلى معاملتهم من عساكره تجأرون، وإن استطال أحد من أجناده، ولو أنه من إخوته وأولاده، فليقابله بالمنع والإنكار والضرب والإشهار.

وصار يطلب منه ما أراده فيرسله إليه بزيادة، وكلما زاد فيما يقترحه عليه من نقد وجنس طلباً زاد علاء الدين لذلك نشاطاً وطرباً. ومن جملة ما اقترح عليه في ذلك المقبض حمل بصل أبيض بناء على أن ذلك لا يوجد في الشام بأسرها فضلاً عن صفد، ففي الحال وجد من ذلك ثلاثة أحمال فرسلها إليه كما هي، وكان ذلك من الفضل الإلهي حتى أحبه وتمنى قربه وقال فيه معنى ما قلت:

داريت وقتك واحتميت	بيذل مالك يا بشر
لو كان مثلك آخر في	الشام ما سميت بشر

وتوجه طوائف من العسكر إليهم وباعوا منهم واشتروا عليهم، واستمرت عقود المصادقة لم تحل إلى أن قوض خيامه عن دمشق ورحل، فلما أقشع عن الشام ضباب ضيره وامتد في ميدان الرحيل ركاب مسيره، أعقب علاء الدين الدوادارى قاصداً إلى ذلك الأسد الضارى، ومعه تحف سنية ومنتف ملوكية ومطالعه فحاويها رائقة، ومعانيها فائقة، وألفاظها بالخضوع والخضوع ناطقة، فيها من الترفيقات ما تقشعر منه الجلود ويلين له الحديد والصخر الجلمود، ويجرى في الأبدان اليابسة جرى الماء في العود، وطلب في أثنائها مراحمه في أمر العثماني وابن الطحان، وجز ناصية عبوديتهما بمقراض الإعتاق والامتنان، وأن يجعل العفو عنهما شكر القدرة ويفيض عليهما من بحار مراحمه قطرة، وأنهما أقل من أن ينسبا إلى أسرة، إذ ملوك الأرض تود لو كانت أطفالاً تحت حجره ورأيه الشريف أعلى وامثال ما يديه من المراسيم أولى.

فلما اطلع تيمور على فحواه وفهم ما أبداه وما أنهاه، وشاهد تحفه وهداياه وتفكر في أول أمره ما الحمد معه من الخدم، وما أسداه والخير له تأثير والبادى أكرم والشر كله تقصير والبادى أظلم. قلت:

ترقب جزاء الحسنى إذا كنت محسناً

ولا تخش من سوء إن أنت لا تسيء

وقيل:

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه

لا يذهب العرف بين الله والناس

لأن قلبه وإن كان حديدًا، وهان صعبه الذى لم يزل شديدًا فدعاهما وأكرم مشواهما، وذكر لهما شفاعاة علاء الدين فيهما، ثم أمنهما البأس وأعطاهما ثلاثة أفراد للعثماني اثنان وواحدة لعمر بن الطحان، ثم أضاف إليهما من بلغهما المأمن فوصل كل منهما إلى دار عزته، وحل ذاك فى صغده وهذا فى غزته.

فصل

ولما تنجز لتيemor أخذ القلعة جهز أمره ورام الرجعة وقد استخرج منها ما أراد من نفائس وأموال بأنواع العقاب وأضعاف العذاب والنكال

ذكر معنى كتاب أرسل إليه

على يد بيسق بعد ما فروا من بين يديه

رقيـل أن الساطان لما هرب أرسل إليه كتابًا أقام فيه على الحرب، فمن معناه وفحوى ما عناه لا تحسب أننا جزعنا منك وفررنا عنك، وإنما بعض ممالكنا قوى أنفاسه وأخرج عن ربة الطاعة رأسه وتصور أن كل من خرج عرج، ولم يعتبر بمن رام للارتقاء سلمًا فدرج، وأراد بذلك مثلك القاء الفساد وهلاك العباد والبلاد، وهيهات فإن دون مراره خرط القتاد، والكريم إذا بد مجسمه مرضان داوى الأخطر ورأيناك أنت أهون الخططين وأحقـر، فثنى عزمنا الشريف عنانه لنعرك من ذلك القليل الأدب أذانه، ويقيم فى نظم طاعته

مميزاته، وأيم الله لنكرن عليك كرة الأسد الغضبان، ولنوردن منك ومن
عسكرك نواهل القنا موارد الأضغان ولنحصدكنم حصد الهشيم ولنردوسنكم
دوس الخطيم، فلتلفظنكم رحى الحرب فى كل طريق لما تعانون من غليظ
الطعن وجليل الضرب لفظ الدقيق، ولنضيغن عليكم سبل الخلاص فلتنادن
ولات حين مناصر، أو عن هذه الترهات ومثل هذه الخرافات التى هى كالملاح
على الجروح، وكالريح عند خروج الروح، ولو كان بدن هذا الكلام الذى لا
طائل فيه والخطاب الهذيان الذى توجه الأذن وترميه ما يستميل خاطره،
ويطفئ من لهيب غضبه البائرة، مع شئ من الهدايا والتقدم وإبراز قضاياهم
فى صورة المعتذر النادم، ربما كان كسر من غيظه أو حمد من حنقه ويرد من
قيظه، وإنما فعلوا تلك المعذرة بعد حريق دميشق وخراب البصرة وأرسلوا
الخدم والهدايا صحبة النعام والزرافات، وقد أعجز التدارك وفات رصادروا
كما قيل:

دوا الجهل ما ذوا العقل يفعلوه

فى النايبات ولكن بعدما افتضحنا

وكما قيل:

مصراع وجادت بوصل حين لا ينشع الوصل

فصل

ذكر بيسق هذا قال: لما مثلت بين يديه ودايت الرسالة، وقرئ الكتاب
عليه، قال لى: قل الحق ما اسمك، قلت: بيسق، قال: ما مدلول هذا اللفظ
المزرى، قلت: يا مولانا لا أدري، فقال: أنت لا تعرف مدلول اسمك

بأنقاله، فكيف تصلح تحمل الرسالة، ولولا أن عادة الملوك أن لا يهجوا الرسل وقد مهدوا على ذلك القواعد وسلکوا السبل، وأنا أولى من يتبع آثار السلاطين ويحيى سلوك الملوك الماضين لفعلت معك ما يجب فعله، ولأوصلتك ما كنت أهله، وبعد هذا فلما عتب عليك، وإنما اللوم على من تقدم بهذا الأمر إليك، ولا حرج عليه أيضاً، لأن ذلك مبلغ علمه ومدرك عقله وفهمه، وقد ظهر بفعله الوبيل نتيجة ما قيل :

تخير إذا ما كنت فى الأمر مرسلًا فمبلغ آراء الرجال رسولها

ثم قال لى توجه إلى قلعتكم مكان عزتكم ومنعتكم، فذهبت فوجدتها قد دكت دكا، وسيم حرمها وحريمها خسفا وهتكا، ثم أتيت ذكوت له ما رأيته فقال : إن مرسلك أقل من أجامله وأذل من أن أراسله، ولكن قل له : إنى واصل إليه على عقبك، وهأنا منشب مخالب أسودى بذنبك، فليشمر للفرار أو للفرار الذيل، وليعد لأيهما اختار ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل، ثم أمرنى فأخرجت وما صدقت أن تصوبت إلى جهة مصر ودرجرت.

فصل

وحين ملأ جراب طمعه من نفائس الأموال رده واستدر خلفائها شيئاً فشيئاً صافيا ورنقا حتى صفاها بقطنة، أمر بتعذيب هؤلاء الأمراء الكبار فعذبوهم بالماء والملح وسقوهم الرماد والكلس وكووهم بالنار، واستخرجوا خبا الأموال منهم استخراج الزيت بالمعصار، ثم أطلق عنان الأذن العساكره بالنهب العام والسبي الطام والفتك والقتل والإحراق والتقييد بالأسر على الإطلاق، فهجمت أولئك الكفرة الفجرة على ذلك أشد الهجوم، وانقضوا

على الناس بالتعذيب والتثريب والتخريب، انقضا ض النجوم واهتزوا وربوا
وفتكوا وسبوا وصالوا على المسلمين وأهل الذمم، صولة الذئاب الضواری
على ضوانی الغنم، وفعلوا ما لا یلیق فعله ولا یجمل ذكره ونقله وأسروا
المخدرات وكشفوا غطاء المسترات واستنزلوا شمس الخدور من أفلاك
القصور، وبدور الجمال من سماء الدلال وعذبوا الكبار والأصاغر بأنواع
العذاب، وبد للخلق ما لم یکن فی الحساب، واستخلصوا بأصلاء للنار
جواهرًا للناس منهم خلاصات الذهب، وصنفوا فی استخراج النفائس من
النفوس بأصناف العذاب مسائل یقضی منها العجب، وفرقوا بین الوالدة
وولدها والروح وجسدها وذهلت کل مرضعة عما أرضعت، وجازوا کل نفس
بما صنعت ولغير ما صنعت، وفر المرء من أخیه وأمه وأبیہ وصاحبته وبنیه
وصار لكل منهم یومئذ شأن یغنیه، وذلل العزیز والکریم وهان الخطیر
والجسیم، وطم البلاء وعم القضا رطاشت اللحوم وتبلدت الفهوم وتراکمت
غیوم الغم، فما قسم بالله لقد كانت تلك الأيام علامة من علامات یوم
القیام وأسفرت تلك الساعة عن أشراط الساعة واستمر هذا النهب العام نحوًا
من ثلاثة أيام.



ذكر القائم النار فی البلد لمحو الآثار

ثم إنهم لما انهبوا العیث والعبث وقضوا فی حج فسادهم التفث، وأتموه
بالفسق والجidal والرفث، وطافوا وسعوا فی المنكرات ورموا فی البیوت النار

وفى القلوب الجمرات وأفاضوا ما أراقوا من دماء المسلمين الواقعين فى الإحصار رملوا فى أشواط الإحراق فأرسلوا فى حرم المدينة شواطئ من نار، وكان فيهم من روافض الخراسانية فأطلقوا النار فى جامع بنى أمية، فتشبثت النار بلهيبها وساعدت الريح بهبوبها، فتساوقا فى محو الآثار ريحاً وناراً واستمر على ذلك بإذن الله تعالى ليلاً ونهاراً، فاحترق ما بقى من النفائس وانمحي بلسان النار ما سطر على لوح وجود المدينة من الدروس، فأمت تلك المغانى لا تسمع فيها لاغية ولا الهمس وأصبحت حصيداً كأن لم تغن بالأمس وذلك بعد أن أظهروا ما أخذوا من أموال وأوسقوا منه الأحمال.



إقلاع هاتيك الرزايا وإقشاع غمام تلك الدواهي والبلايا عن بلاد الشام بما تحمله من أوزار وخطايا

ثم ارتحل ذلك الفتان وأقلع صيب بلائه العتان يوم السبت ثالث شعبان، وقد أخذوا من نفائس الأموال فوق طاقتهم وتحملوا من ذلك ما عجزت عنه قوة استطاعتهم، فجعلوا يطرحون ذلك فى الدروب والمنازل ويلقونه شيئاً فشيئاً فى أوعار المراحل، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحامل وأضحت القفار والبرارى والجبال والصحارى من الأمتعة والأقمشة كأنها أسواق الدهشة، وكأن الأرض فتحت خزائنها وأظهرت من المعادن والفلزات كامنها. قلت بديهاً:

وصار لسان شرهم ينادى على فتن الشواحق والبوادي

الأذى شنشنة عرفناها وعادة فساد ألفناها، ومن ملكنا ودينه اقترفناها،
ومع ذلك فلو أخذ من نفائس دمشق أضعاف ما أخذ وفلذ من أكباد
ذخائرها، آلاف ما قلد ما غاض ذلك ما فى عينها، ولا نقص من بحار
معينها، ولكن النار كانت فى البلاء الداهى والمصاب المتناهى، لأنها أحرقت
غالب من كان داخل البلد العدم الغواث، فما ظنك بما يكون من العمائر
والأقمشة والأثاث، وضربت الكلاب يأكل لحوم من مات داخل البلد، فما
صار يجسد على العبور إلى جامع بنى أمية أحد.



ذكر ما جرى فى مصر وسائر الأقطار عند سماعهم هذه الأخبار واستيفائهم هذه الأهوال والأخطار

فأما مصر فما دونها من البلاد فإنها تخبطت وانحلت قواها وأيديها
تربطت وعدمت القرار، واستعدت للفرار فلو رأيت الناس وهم حيارى
سكارى وما هم بسكارى، أبدانهم راجفة وقلوبهم واجفة، وأصواتهم خافية
وأبصارهم باهتة وشفاههم يابسة وصورهم يابسة ووجوههم باسرة، تظن أن
يفعل بها فاقة، وقد استوفز كل من أهل الأمصار وسكان الأنجاد والأغوار،
وقد أصاح لما يرد عليه من جلى الأخبار فيبنى على ذلك ما يكون من
متعلقات الحركة والسكون، فأخذ تيمور على طريقته العوجا ورجع على سبيل

بغية التي اتخذها شرعة ومنهاجاً وقد سدت عساكره الآفاق والأكناف، وعمت
هيئته الأرجاء والأطراف.

ذكر ما أصيب من سهام القضاء بالرشق ووقع فى مخالفات أسره من أعيان دمشق

وأخذ من أعيان الشام ومشاهيرها الأعلام قاضى القضاة محيى الدين بن
العز الحنفى، بعد أن عاقبوه بأنواع العذاب وكووه وسقوه الماء والملح وبالكلس
والنار شووه وولده قاضى القضاة شهاب الدين أبو العباس، فوصلا إلى تبريز
ومكثا بها مدة فى شدة وبأس، ثم رجعا إلى الشام وأخذ أمرهما فى
الانتظام، وقاضى القضاة شمس الدين النابلسى الحنبلى، وقاضى القضاة صدر
الدين المناوى الشافعى، فتوفى إلى رحمة الله الوهاب غريقاً فى نهر التراب،
وشهاب الدين أحمد بن الشهيد المعتبر، وكان متحملاً أوزار الوزر بعد أن
راموا عذابه وطلبوا عقابه، وكان قد جهز متعلقه إلى الأماكن البعيدة، وأقام
هو فى دمشق جريده، فذكر لهم حكايته وبذل لهم فى دفع موجوده طاقته،
فأخذوا ما أخفاه خفية ولم يعذبوه، ولكنهم بالأهبة والقتل استصحبوه،
فوصل إلى سمرقند وقاسى بها من صروف الزمن أنواعاً من غربة وفقر
ومحن، ثم رجع إلى دمشق وتوفى بها رحمه الله تعالى.

ومن الأمراء الخاص الأمير الكبير بتخاص وكان مقيداً معه ومات عند

وصوله إلى الفرات، فأما القاضى ناصر الدين ابن أبى الطيب فإنهم عاقبوه بكل بلية، وكان رقيق البدن لطيف المزاج سوداوية، فما كان عنده لذلك ثبات فأعجزهم عما يرمون منه بالموت، وما فات فات واستراح، وشرب من الشهادة كأس مدام جاءه وراح، فدفنوه عشية بمدرسة الكروسية، ولما شرع فى النهب العام المبرح استشهد غلطا قاضى القضاة تقي الدين ابن مفلح، وبرهان الدين بن القوشة ضعف سبعة عشر يوماً، وانقطع فى حارة تل الجبن ولحق بالأموات قوما وكانوا قد خرجوا على الأحياء والأموات، وخافوا أن لا يكون لأحد منهم من أيديهم الوفاة، فوات بحجة فضبطوا بيوت المدينة بيتاً بيتاً، وخرجوا أن لا يخرج الأحياء ولا جهاز الموتى، فلما مات المذكور تعسرت الأمور فتحيروا فى تجهيزه وتغلبوا فى أمره وتنجزه، ثم بعد جهد بليغ وسعى كثير دفنوه فى الصالحية بعد إخراجه من باب الصغير.

وخرج مع تيمور بالاختيار من الشام عبد الملك بن التكويتى فولاه نيابة سيرام فمكث فيها القليل من الأيام، وهى وراء سيحون وشخص آخر يدعى يلغى المجنون، وكان مقرباً عنده وسبب ذلك أنه بذل فى مناصحه جهده وأخبره على ما قيل بفداوى فخلصه بذلك من المهالك والمهاوى، وحصل له بذلك قربى وزيادة ملازمة وصحبه، فولاه ذلك الجاس نيابة مدينة تدعى ينكى بلاس وراء نهر خجند نحو خمسة عشر يوماً عن سمرقند بينها وبين سيرام نحو من أربعة أيام، وكان اسم ذلك المأبون أحمد فتلقب بيلنغا المجنون.

وخذ من دمشق أربا الفضل وأهل الصنائع، وكل ماهر فى فن الفنون بارع من النساجين والخياطين والحجارين والتجارين والأقباعية والبيطرة واخيمية والنقاشين والقواسيس والبازادارية وفى الجملة أى فن كان وجمع،

كما ذكر لسودان وفرق هؤلاء الطوائف على رؤوس الجند وأمرهم أن يوصلوهم إلى سمرقند وأخذ جمال الدين رئيس الطب وشهاب الدين أحمد الزردكاش وكان فى القلعة كما ذكر، وأباد من عسكره خلقاً لا يحصون ولا يحصرون كثرة ولا يستقصون، وكان فى حدود التسعين وقد احدودب، فلما رآه قابله بالسخط والغضب وقال له: إنك أفنيت صاغيتى وحصيت غاشيتى وقصيت حاشيتى فإن قتلتك مرة واحدة لا يشفى عليلى ولا يروى غليلى، ولكن أعذبك على كبر سنك، وأريدك كسراً على كسرك ووهناً على وهنك، فقيده بقيد من فوق ركبتيه زنة سبعة أرتال ونصف رطل بالدمشقى.

وقصد بذلك التشديد عليه فلم يزل مقيداً مكتوب على قيده، مخلداً أبداً حتى مات تيمور وارتفعت الشرور، وخلص من القيد ذلك المأسور، ثم توفى إلى رحمة الله تعالى، وربما يكون أخذ أناساً من الفضلاء والأعيان والسادات والنبلاء من لا أعرفه كيف أصفه، وكذلك كل أمير من أمرائه وزعيم من زعمائه أخذ من الفقهاء والعلماء وحفاظ القرآن والفضلاء وأهل الحرف والصناعات والعييد والنساء والصبيان والبنات، ما لا يسع الضبط ولا يحل الربط، وكذلك كل من عسكره كبيراً وصغيراً أسيراً وأسيراً، لأنه ما تم خرج على من نهب شيئاً وعزله، وكل من سبقت يده إلى شىء فهو له، وهذا إذا أطلق عنان الأذن بالنهب العام فيه، تساوى الخواص من عسكره والعوام ولو كان الناهب أسيراً فيهم، أو دخيلاً عليهم والسالب من غير طينهم، ولكن أبيع له ذلك لما سار بسيرتهم وتخلق بشيئتهم وأطلق عليه حكمهم وأجرى عليه شكهم، فأما قبل الأذن فلو تعدى أحد على أحد، وكان عند تيمور بمنزلة الوالد أو الولد أو استطال بمقدار حبة، أو تلفظ بغارة أو نهبة،

فإنه يهدر ماله ودمه ويهتك حرمة وحرمه ولا ينجيه استغفاره وندمه ، ولا يجدى أهله وخدمه ، ولا يقال لعالم زلت به قدمه وكانت هذه قاعدة لا تحرم وبنية لا تهدم .



ذكر ما أباد بعده الجراد

ولما فرغ من مستغلات أموال دمشق الحصاد ، وقارب الرحيل عنها أعقبه لقاط الجراد ، وصار يسير معه حتى بلغ ماردين وبغداد . فأعرى كل شجرا ومردا وجرد ما على وجه الأرض جردا ، فوصل إلى حمص وما نهبا وخالد رضى الله عنه كما ذكر وهبها ، ولكن نهبوا قراها وهدموا قواها ، ثم إلى حماة فنهبوا نفائسها واستخرجوا مكائنها وأسروا عرائسها وكنائنها ، وفى سابع عشر شعبان أنصب إلى الجبول ذلك الطوفان وأرسل إلى حلب وأخذ من قلعتها ما استودعها ثم إلى الفرات عبرها بالمراكب وغيرها فقطعها ، ثم إلى الرها فنهبها واستجلب درها ، ثم أرسل ذلك الغادر رسوله إلى ماردين يستدعى الملك الظاهر وديباجة كتابه الدقل على ما نقل :

سلام عليكم والعهود بحالها لقد بلغ الأشواق منا كمالها

فأبى أن ينزل إليه ولا استمع كلامه ولا التفت إليه ، فإنه كان أذاه كما ذكر أول مرة ، فما احتاج إلى تجربته آخر كرة فسلك معه بر السلامة ، وقال شطر بيت من جرب المجرب حلت به الدنامة ، ولكن أرسل إليه قاصداً من

بعض الخدم يدسى الحاج محمد بن خاصك ومعه التّقادّم واخدم، واعتذر عن الحضور بعدة أمور وعنوان جوابه موافق لخطابه وهو:

فشوقى إليك زايد الحد وصفه ولكن تخاف النفس مما جرى لها
فلم يلتفت تيمور إلى هذا الكلام وأخذ يعنف نفسه بأنواع الملام، كيف
خلص من مخاليبه أول مرة بسلام.

ذكر وروده ماردين بالهيبة وصدوره عنها بعد المحاصرة بالخيبة

فوصلوا يوم الاثنين عاشر شهر رمضان واردين ماء ماردين فنزلوا دنيسر
وغدوا للحصار قاصدين، وإذا أهلها وقد أدخلوا المدينة وانتقلوا إلى قلعتهم
الحصينة، صفة هذه القلعة، وهذه القلعة عنقا قلتها تكبر أن تصاد وعرنين
عانسها يأبى أن يدخل الجاطب تحت مقود انقياد لأنها فى قلة من القلل على
ظهر جبل، لم يكن فرق بينة قبة الأفلاك، إلا بأن تلك لا ثبات لها، وهذه
ثابت ليس به حراك بظهره واد بطنه أوسع من صدر الأحرار، فيه جنات تجري
من تحتها الأنهار، وبه مطارح انزروع ومسارح المواشى والضررع، وحدوده
جروف لا تصل همم ذوى الكرامة إلى أرجائها وحروف بعجز قارى التفكير
عن تحديد هجائها وطريقة من القلعة أو على القلعة، والقلعة فى غاية المناعة
والرفعة، والمدينة مبنية حوالها متشبثة بذيلها تأكل من فضلات نعمها،

وتشرب من فائض سيلها، فهم بين نعمهم ونقمهم يترددون، وفي السماء
 رزقهم وما توعدون، فأقم لمحاصرتها على مضايقتها يترشد إلى طرق المضايقة
 وطرائقها، ولم يكن حواليتها مكان للقتال، ولا لنصب المجانيق مجال فعول
 على نقبها بالمعاول والفتوس، واستعان على ذلك بالمعاول والرءوس، وحاشا
 درز ذيل حشمتها وعصمتها أن يسام فتقاً، لأنها وإن كانت عذراً أعجزت
 الفحول لكونها رتقاً، فلا زالت المعاول تقل والغطاطيس تكل، ومناقير
 الفتوس تتعفف وخصور المرازب كهيف القدود تتقصف. قلت:

كان معولهم في نقب تربتها منقار طير على صلد من الحجر
 أو عدل ذي حسد صباة صمم أو غمز عين معنى فاقد البصر
 واستمر على اللدد والخصام إلى العشرين من شهر رمضان، ولم يحصل
 على طائل ولم يظفر بمرام.

ذكر تركه المحاصرة العناد والمكابرة وتوجهه بمارديه ذوى الفساد عن ماردين إلى بغداد

ولما علم أنه رمى منها بالداهية الدهياء، وطلاب ما لا يستطيع عيا
 والمكابرة مع الحق خروج عن المنهج والبلاغة في غير مقامها عى لجلج ست
 عيبه وأبقى بعض الحرمة والهيبة وخرب المدينة وأسوارها ومحا آثارها وهدم
 مبانيها وجوامعها ومنازلها، وفك زساسها وأحجارها ثم انحدر إلى بغداد

بعساكر كالذر والفراش والجراد، وجهاز بعض الثقل إلى سمرقند مع الله داد فوصلوا إلى مدينة صور وليس بها بيت مشاد، ثم إلى خلاط عبد الجور وهي بلاد الأكراد أهلة عامرة البنيان، وأول ما هو جار تحت حكمه من ولايات تبريز وأذربيجان فعيد الثقل بعيد الجور عبد رمضان، ثم دخلوا إلى ولايات تبريز ثم إلى سلطانية ثم إلى ممالك خرسان، وكان إذ ذلك قد خرج فضل الشتاء وفصل الربيع قد تزين وأنى وصفحات الرياض بأنامل صباغ القدرة تلونت، وعروس الروض قد أخذت من صواغ الحكمة زخرفها وازينت والأطيار فى الأزهار ما بين مائة بلبل وألف هزار، قد تشفت الأسماع وأقامت السماع واستمالت الطباغ برخيم صوتها، وأحيت آثار رحمة الله فى الأرض بعد موتها، ولا زال الثقل بين تأويب وإدلاج وسير ولا سير الحاج كل يوم فى مرحلة، وكل ليلة فى مقام، فوصلوا إلى نيسابور ثم إلى جام، ثم قطعوا مغاور باورد وما خان، ثم إلى إندخوى وانتهوا إلى نهر جيحان فعبروه بالمراكب، وساروا سير النجم الثاقب، ولم يزالوا منبعثين على ذلك انبعاثاً فوصلوا إلى سمرقند ثالث عشر المحرم يوم الثلاثاء سنة أربع وثمانمائة وفيهم من أهل الشام فيه أمثلهم القاضى شهاب الدين أحمد بن الشهيد الوزير وباقيهم بياطرة وصباغون ونساجة الحرير.

وهذا أول ما تحمله من الشم من أحمال الأثقال وباكورة ما وصل إلى سمرقند مما جناه، من ثمر الأسارى والأموال، ثم أرسل الأثقال تترا بالأثقال وأحمال الأموال والأسرى.

فصل

ثم إن تيمور ولى أمد قرا أيلوك عثمان وولى عن ماردین يوم الخميس العشرين من شهر رمضان، وكان خامس أيار وجعل يعيث فى تلك الديار حرب نصيين ورعى مغلاتها ثم محى من صحف الوجود صور سورتها وآياتها، وكانت خالية من سكانها خاية من عامرى عمرانها، ثم وجه إلى الموصل همه وأخنى عليها بتكاييه المدلهمة فبعد أن أحلها الحين وهبها الحسين بيك بن حسين، ثم حمر بزمجرة إلى ناحية القنطرة، وأشاع أنه كف فسادة وقصد بلاده ولكن السلطان أحمد كان قد تحقق أنه قاصد بغداد، وقد أوهم وورى كماله بذلك دأب وعاده.



ذكر ما فعله السلطان أحمد بن الشيخ أويس لما بلغه أنه توجه إليه ذلك التجيس

فلما بلغ السلطان أحمد أن تيمور بعد أن تدمشق تمرد ثم عزم على أن يتبغدد، وقال العود أحمد استعد ولكن للفرار واستقر رأيه على أن لا قرار، ثم استناب نائباً يدعى فرج وأوصى إليه وإلى ابن البليقى بأمر وصحبه قرا يوسف إلى الروم وخرج، وكان من جملة ما وصى به أنه لا يخلق فى وجه تيمور باب ولا يسدل دون ما يرومه حجاب، ولا يشهر فى وجهه سيف ولا يقابل فيما يأمر به بلم وكيف.

فبلغ تيمور هذه الأمور فجهز ذلك المخاتل إلى بغداد عشرين ألف مقاتل، وأمر عليهم من أمرائه ورؤساء وزراية والظلمة المعتدين أمير زاده رستم وجلال الإسلامى وشيخ نور الدين، وأمر أن يكون المقدم من الثلاثة الأمير رستم، فإذا تسلموا بغداد يكون هو حاكم البلاد وحين غربت عن سماء بغداد شمس السلطان أحمد فى غرب الغربية، ومد ظلام الظلم جناح العساكر التيمورية على آفاقها، وأرسل عليها شهبة أبى فرج المذكور أن يسلم المدينة طوعاً، واستعد للمقاتلة فجمع ما عنده من أهبة المحاصرة فأوعا، فاطلعوا تيمور على هذا الأمر وانتظروا ما يكون منه من نهى وأمر، فثنى نحوها عنان الخنق وأضمر ما تصل إليه يده من غرق وحرق، وأظل عليهم بغمام غم بعد غم ما عد وبرق، فوصل بتلك الفرق، وأحل بهم البؤس والقلق، وأذاقهم لباس الجوع والفرق، فزجهم أى زج وحاصرهم فى أشهر الخنق، فثبتت مقاتلتهم وأكثروا من عساكره القتلى والجرحى، فخنق أشد الخنق وزحف عليها برجله وخيله، فأخذها عنوة يوم الأضحى، فتقرب على زعمه بأن جعل المسلمين قرايين وعليهم ضحى.

ثم أمر كل من هو فى دفتر ديوانه محسوب والى يذك عساكره من الجنود والجيش منسوب، أن يأتيه من رءوس أهل بغداد برأسين فسقوا كل واحد منهم خمرة سلب الروح والمال كأسين، ثم أتوا بهم فرادى وجملة وجاروا بسيل دمائهم نهر الدجلة، وطرحوا أبدانهم فى تلك الميادين وجمعوا رءوسهم فبنى بها ميادين فقتلوا من أهل بغداد نحو من تسعين ألف صبراً، وبعضهم عجز عن تحصيل البغداديين فقطع رءوس من معه من أهل الشام، وغيرها أسرى وعجز بعض عن رءوس الرجال فقطع رءوس ربات الحجال وبعض لم

يكن معه رقيق فاصطاد من وحده فى طريق واغتال من معه من رقيق، وفدى نفسه بعدو وصديق، ولم يلتفت إلى شقيق وشقيق، إذ لم يمكنهم الخروج عن رتبة الطاعة، ولا يقبل منهم عدل ولا تنفعهم شفاعاة، وهذا العدد المذكور سوى من قتل وهو محصور، أو قتل فى مضيق أو مات فى الدجلة وهو غريق، فقد ذكر أن خلقاً ألقوا أنفسهم فى الماء وماتوا غرقى ومن جملتهم فرج، فإنه ركب سفينة وأبق فاحتوشوه من الجانبين بالسهام فجرحوه، وانقلبت السفينة فأدركه الغرق فبنى من الميادين نحواً من مائة وعشرين.

كذا أخبرنى القاضى تاج الدين أحمد النعمانى الحنفى الحاكم ببغداد كان توفى فى غرة المحرم سنة أربع وثلاثين وثمانمائة بدمشق رحمه الله تعالى، ثم إن تيمور خرب المدينة بعد أن أخذ ما بها من أموال خزينة وأفقر أهلها وأفقر منازلها، وجعل عليها سافلها وصارق بعد أن كانت مدينة السلام دار السلام، وأسروا من بقى م ضعفة أهلها فتمزق وخرقتهم أيدى الزمان كل ممزق بعد أن كانوا فى ظلال ودلال، ومن مساكنهم فى جنتين عن يمين وشمال، فالיום عتش السوم والغراب أماكنهم وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، وهذه المدينة هى أشهر من أن توصف وعرف عارفها وعرفانها أذكى من أن يعرف، وناهيك أنها كاسمها مدينة السلام، وأنه على ما قيل لم يمت بها إمام.

ذكر رجوع ذلك الطاغ وإقامته فى قراباغ

ثم التوى بتلك الأتراك الذى يصح أن يقال لكل منهم أنه فى التركية طاغية طاغ، وعزم أن يشتى فى مكان يصلح أن يكون فى الترك والعرب كصفاته وذاته قراباغ، وأمسى كالبازى المظل بل كاليوم المشؤوم، مراقباً أطراف الآفاق وخصوصاً ممالك الروم.



ذكر مرسله ذلك المريد سلطان الروم إيلدر أبا يزيد

فراسل سلطانها أبا يزيد المجاهد الغازى، وصرح بما يروم من بلاد الروم، من غير كناية وألغاز وجعل السلطان أحمد وقرا يوسف سبباً، وذكر أنهما من سطوات سيوفه هربا، وأنهما مادة الفساد وبوار البلاد ودمار العباد، وسنخ الخمول والأدبار وكهامان وفرعون فى العلو والاستكبر، وأن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين، وقد صارا بمن معهما فى حمى ذراكم لاطيين، وأبما حلوا حلت التعاسة والشؤم، وحاشا أن يكون مثلهما من المغلوبين تحت جناح صاحب الروم، فإياكم أن تأووهم بل أخرجوهم وخذوهم واحصروهم واقتلوهم، حيث وجدتموهم وإياكم ومخالفة أمرنا، فتحل عليكم دائية قهرنا، فقد سمعتم قضايانا مخالفتنا وأضرابهم، وما نزل

بهم منا فى حربهم وضرايهم، وتبين لكم كيف فعلنا بهم فلا تكثروا بيننا وبينكم القيل والقال، فضلاً عن جدال وقتال، فقد بينا لكم البراهين وضربنا لكم الأمثال، وفى أثناء ذلك أنواع التهديد والتخويف وأصناف التهويل والأراجيف.

وكان ابن عثمان عنده رقاعة وشجاعة، ولم يكن عنده صبر ساعة، مع أنه كان من الملوك العادلين، وعنده تقوى وصلابة فى الدين، وكان إذا تكلم وهو فى صدر مكان فلا يزال فى حركة واضطراب، حتى يصل إلى طرف الإيوان، وكان بواسطة عدله ساعده الزمان، وقويت شوكته فى المكان، فاستصفى ممالك قرمان، وقتل ملكها السلطان علاء الدين وأسر له عنده ولدان، واستولى على ممالك هنشا وصاروخان، وهرب منه إلى تيمور الأمير يعقوب بن عليشاه حاكم ولايات كرمان، وصفا له من حدود جبل بالقان من ممالك النصارى وإلى ممالك أرزنجان.

فلما وقف على كتابه وفهم فحوى خطابه، نهض وربض وامتعض وارتمض ورفع صوته وخفض، وكأنه تجرع نقوع الخضض، ثم قال أو يخوفنى بهذه الترهات ويستفزنى بهذه الخزعبلات، أو يحسب أننى مثل ملوك الأعاجم أو تنار الدشت الأغتام، أو فى جمع الجنود كجيش الهنود أو جندى فى الشقاق كجمع العراق أو ما عندى من غزاة الإسلام كعساكر الشام، أو أن قفلة المجمع كجندى أو ما يعلم أن أخباره عندى، وكيف ختل الملوك وختر، وكيف كان كل وقت يستضعف طائفة منهم، وأنا أفصل جمل هذه الأمور، وأكشف ما خزنه فى التامور، وأما أول أمره فحرامى سفاك الدم هتاك الحرم نقاض العهود الذمم، طرف نحرف عن الصواب فى الخطأ، فصالح وجال

وسطا، ثم طال واستطال واتسع له المجال، وغفل عنه الرجال، ومن حين نبغ استصبى حتى شاب الشيب بالغيث، فأدرك ما أدرك وما بلغ، فالتهمت قبيلته بعد أن كانت شرارة، وانتشرت فروع حبه فصارت غرارة، وأما ملوك العجم فإنهم استزلهم بدخله وختله، ثم استقرهم بخيله ورجله وبأدر إلى قتلهم، بعد أن أمكنتهم فرصة قتله، وأما توقاتميش خان فإن غاب عسكره خان، ومن أين للثار الطغام الضرب بالبتار الحسام، وما لهم سوى رشق السهام بخلاف ضراغم الأروام، وأما جنود الهند فإنه ختلهم فى أمرهم ورد كيدهم فى نحرهم فوهت أركانهم لا سيما قد مات سلطانهم، وأما عساكر الشام فأمرهم مشهور وما جرى عليهم فظاهر غير مستور.

ولما مات سلطانهم وتضعضت أركانهم وانفض أمرهم وانقض، وبغى بعضهم على بعض، فقطعت منهم الرؤوس الكبار، ولم يبق فيهم إلا رؤوس صغار فتشر الزمان نظامهم وسام التبدد ملكهم وشامهم، مع أنهم فى الصور ربيع وفى المعانى جمادى يرمون بواحدة، وهى أنهم يبيتون جميعاً ويقومون مثنى وفردى، لا جرم تفرقت أيادى سبا أحزاب تلك الزمر، فاشتغل جيشه فيها بالمحرم، فياض لما خلا له الجو وصفر، ولو كان بينهم اتفاق لفتوه فتاً، ويددوا شمله وبتوه بتاً، ولكنهم تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ومع اتساق نظامهم وتسديد سهامهم وقوة نطاحهم وشدة كفاحهم وسدة رماحهم، وكونهم ظهر الحاج وأسود الهياج، أنى لهم نظام عساكرنا وقوة القيام بتظافرنا وتناصرنا، وكم فرق بين من تكفل بأمر الحفاة العراة، وبين من تحمل أمر الكماة الغزاة، فإن الحرب دأبنا والضرب طلابنا، والجهاد صنعتنا وشرعة الغزاة فى سبيل الله تعالى شرعنا أن قاتل أحد تكالباً على الدنيا فنحن

المقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا، رجالنا باعوا أنفسهم وأموالهم من الله بأن لهم الجنة، وكم لضرباتهم في أذان الكفار من طنة ولسيوفهم في قلائس التوائس من رنة ولنون قسيهم في خياشيم بنى الصليب من غنة، لو سمنهم خوض البحار خاضوها، أو كلفناهم إفاضة دماء الكفار أفاضوها، قد زطلوا من صياصيمهم على قلع قلاع الكفار واحثوا عليها، وأمسكوا بعنان أفراسهم، فكلما سمعوا هيعة طاروا إليها، لا يقولون للمكهم إذا غمرهم في البلاء والابتلاء، إنا هاهنا قاعدون فاذهب أنت وربك فقاتلا .

ومعنا من الغزاة مشاة أفرس من قوارس الكماة، أطبارهم باترة وأظفارهم ظافرة كالأسود الكاسرة، والنمور الجاسرة والذئاب الهاصرة، قلوبهم بودادنا عامرة، لا تخامر بواطنهم لنا مخامرة، بل وجوههم في الحرب ناضرة، إلى ربها ناظرة وحاصل الأمر أن كل أشغالنا وجل أحوالنا وأفعالنا، جم الكفار ولم الأسرى وضم الغنائم، فنحن المجاسدون في سبيل الله الذين لا يخافون لومة لائم، وإن أعلم أن هذا الكلام يبعثك إلى بلادنا انبعاثا، فإن لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثا، وإن قصدت بلادى وفررت عنك ولم أقاتلك ألبتة فزوجانى إذ ذاك طوالق ثلاثة بته، ثم أنهى خطابه ورد على هذا الطريق جوابه، فلما وقف تيمور على جوابه القلق، قال ابن عثمان مجنون حمق، لأنه طال وأساء وختم ما قرأه من كتابه بذكر النساء، لأن النساء عندهم من العيوب وأكبر الذنوب، حتى إنهم لا يلفظون بلفظ امرأة ولا بأنثى، وإنما يعبرون عن كل أنثى بلفظ آخر، ويحثون على الاحتراز عنه حثا، ولو لود لأحدهم بنت يقولون ولد له مخدرة، أو من ربات الحجال أو مسترة أو نحو ذلك .

ذكر طيران ذلك اليوم وقصده خراب ممالك الروم

فوجد تيمور على ابن عثمان السيل، وطلب الرفيق والطريق ورام الدليل، وعرض جنده فإذا الوحوش حشرت وأنبتوا على الأرض، فإذا الكواكب انتشرت وماج، فإذا الجبال سيرت وهاج، فإذا القبور بعثت وسار، وزلزلت الأرض زلزالها ومار، فأظهرت القيامة أهوالها، وأرسل إلى ولي عهده ووصيه من بعده حفيده محمد سلطان بن جهانكير أن يتوجه إليه من سمرقند صحبة سيف الدين الأمير، وركب إلى الروم الطريق، وساعده الاتفاق لا التفوي، وجرى بذلك البحر المطلق والليل الدملمهم، فدار وداخ وعلى قلعة كماخ أناخ.

صفة قلعة كماخ:

فإذا حى فى الوثاقه كيقين موحد وفى الرصانة والمناعة كاعتقاد متعبد لا يقطع خندق مناعتها سهم، وهم لا يهتدون إلى طريق التوصل إليها صائب، فهم مؤسس أركان هضابها معمار القدرة ومهندس بينان قبابها نجار القطرة، ليست بالعالية الشاهقة ولا بالقصيرة اللاصقة، غير أنها فى مناعتها وحمايتها فائقة من إحدى جهاتها نهر الفرات يقبل أقدامها، ومن الجهة الأخرى واد متسع يحفظ أعلامها، لا يمكن للأقدام فيه الثبات، وهو مسيل ماء يصب فى نهر الفرات، وم الجهتين الأخرتين هضاب يتلوا لسان البصيرة عند وقوع البصر عليها، إن هذا لشيء عجاب، فأخذها من غير كلفة وولج حرمها من غير طواف بها ووقفه، وذلك بعد أن قدم بمحمد سلطان عليه ووكل أمر حصارها

وقتلها إليه ، وسبب ذلك أن الوادى الذى وراءها كان يرد بالخبية لوعورته ، - من جاءها لكونه مزلة الأقدام واسع الإفعام ، بعيد مهوى المرام ، لا يثلب لسان السهم له عرض عرض ، ولا يثبت له تحت قدم غواص البصر قرار أرض ، فمجرد ما وقع نظره عليها نظر بعين الفراسة إليها ، ثم أمر بقطع الأخشاب ونقل الأحطاب ، ولم يكن إلا كلمح البصر ، حتى هدموا البيوت وقطعوا الشجر ، ونقلوا جميع ذلك الخشب والأعواد وطرحوها فى قعر ذلك الواد ، فساووا به الأرض وملأوا طوله والعرض ، وحين شعر أهل القلعة بهذه الفعال ، ألقوا النار والبارود على تلك الأخشاب ، فأخذت فى الاشتعال .

وأما أساس القلعة فلم ينال لأنه راكب على فلك الجبال ، فلم يبدد ذلك من أمره ولم يشرد من فكره ، بل أمر فى الحال كل واحد من الرجال ، أن يأتى من تلك القفار بعدل من الأحجار ، فانبشوا كالنمل والجراد فى تلك المنهامة والواد ، والبرارى والمهاد ، وجابوا الصخر بالواد ، ففى الحال ملأوا تلك الدرة من الحصبا والحجارة ، ثم أمر أن يفعل بتلك الحجارة فى ذلك المهوى العبيد ، ما يفعل بهم فى جهنم يوم يقال لها هل امتلأت وتقول هل مزيد ، فألقوا فى ذلك الوادى بعض ما لموه من أكداس ، تلك الحجارة فطموه وبقي فى بيادر ذلك الحجر أضعاف ما رمى من البصر ، ولما امتلأ الوادى من الأحجار مشوا عليها ، وقربوا من الأسوار ونصبوا السلالم وتسلقوا ، وبناصية مراميها تعلقوا ، فأقلع أهل القلعة عن الكلام وطلبوا الأمان ، وقالوا ادخلوها بسلام .

وكان هذا الحصار والتلحية فى شوال سنة أربع وثمان مائة ، ولما استقر فيها أمر بتلك الأحجار أن تنقل من واديهما ، ففى الحال سفوها وفى مكان

أخذوها منه رموها، ثم ولى بها شخصاً يدع الشمس وولى عنها كما ولى
أمس، وهذه القلعة نحواً من نصف يوم عن أرزنجان، ومن القلاع المشهورة
فى الدنيا بالمناعة والعصيان، فلا جرم حين استولى عليها وأفضى بصارمه
الذكر إليها، وفتحها قهراً ومنحها جبراً أبرد بهذا المغنم البارد إلى كل صادر
فى ممالكه ووارد، يكتب ترجم فيها من الأخبار كل سائح وشارد وعنوان هذه
الترجمة بلفظها من غير ترجمة، قال الشاعر:

بحد سيوف داميات لدى الوغى فتحنا بحمد الله حصن كماخ

وذكر فيها ابن عثمان وخطابه إليه وكيف رد جوابه الحمق عليه، ومن
جملته وبعض ترجمته أنا ما جفوناه ولا تعدينا عليه، ولكن رفقنا له القول
وتلفنا إليه، وقلنا له يخرج من قروح مملكته مادة الفساد، وهى أحمد
الجلاليرى وقرا يوسف التركمانى اللذان أخربا البلاد وأهلكا العباد، والرضى
بالمعصية معصية، والإقرار على الكفر كفر، والفساق المحوم البائس شر من
الفاجر الظلوم الملبس، فصارا فى الفساد وزيريه وهو الأمير، وفى العباد
صغيرين وهو الكبير، وعاشراه على ذلك ووالياه، فلبس المولى ولبس
العشير فأفسداه ما انصلحا وخسراره وما ربحا، فكأنه عن شأنهم من أشهر
قولهم وشأنهم بقوله:

ولا ينفع الجرباء قرب صحيحة إليها ولكن الصحيحة تجرب

ولم يزل على طريقته العوجا فأشبهه لما أجارهم محير أم عامر العرجا
فنهيناه فما انتهى، ونهيناه فما أروعى وأريناه العبر فى غمرة فما اعتبر، وناداه
لسن انتقامنا من المخالفين الحذر الحذر، وكنا وضعنا اسمه مع اسمنا على عادة
حشمتنا وأدبنا فى المراسلات، ورسمنا فتعدى طوره وأبدىجوره، وكان فى

بعض مراسلاته وما وضعه فى مكاتباته، كتب اسمه تحت اسم طهرتن، وهذا هو الواجب عليه والحسن ولا شك أن طهرتن بالنسبة إلينا كبعض خدمنا وأقل حشمنا، ثم إنه أعنى أبا يزيد لما طلع كتابنا ورد جوابنا وضع اسمه فوق اسمنا بالذهب، وهذا لما فيه من الحماقة وقلة الأدب.

ثم إنه ذكر أنه توجه يروم استخلاص ممالك الروم، وتشدق فى هذا الكتاب وتفيهق فى هذا الخطاب، فهو أحد دساتير الكتاب والأساطير والمستعان بها فى الخطاب والجواب.

ذكر ما عزم ابن عثمان عليه عند انصباب ذلك الطوفان إليه

فلما بلغ ابن عثمان ما قصده، وأنه جعل طالعه فى سماء الحرب رصده، توجه لقتاله واستعد لاستقباله، وكان على مدينة اسطنبول محاصراً آثمها وكفارها، وقد قارب أن يفتحها وتضع الحرب عنها أوزارها، وإن جنده عنده، ولكن أمر بطارقة الغزاة ولشواهين، من كواسر جيشه والبراة وسراة السرايا وكرام كرميان وإجلال خيل السواحل وقروم قرمان، وأجناد ولايات متشا وأسورة صاروخان، وجميع أمراء التومانات والصناجق وأصحاب الرايات ورءوس الفيالق، ونواب جميع الثغور والأمكنة، مما هو جار تحت تختى بروسا وأدرنة، وكل من وتحت البحر الأخضر من بنى الأصفر، من رايته

البيضاء بالدم الأحمر، وفلق سويد أكل عدو أزرق بسهامه السود على جواده
الأبلى أن يعملوا مصلحتهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم، واستعان في ذلك
بكل طريق وعلج مارجى داخل في أمان المسلمين على قتال كل باع
وخارجى، واستدعى التتار وهم قوم ذوى يمين ويسار، سوادج لهم مواش
نواتج، ملأوا الأقطار بمواشيهم وعلوا الشواحق والبوادي براء وسهم
وحواشيهم، ربما يكون لواحد منهم عشرة ألف جمل، ما منها واحد حمل،
ومثل ذلك أفراس، ما أسرج لها سرج ولا أجم راس.

وأما الغنم والبقر فلا يحصى عددها ولا يحصر، وما يعلم جنود ربك
إلا هو، وما هى إلا ذكرى للبشر لهم فى ممالك الروم وقرمان، إلى ضواحي
سيواس مشتات ومصايف وللملوك والسلطين عليهم اعتماد، كما لهم فى
أنواع المبرات وظائف لو قصدهم فقير أو عنى غريب أو طالب علم أو أديب
جمعوا له من الغنم والبقر والصوف والشعر والأقط والوبر، ما يكفيه وذويه
إلى آخر العمر، وكانوا يسمعون لكثرتهم وما معهم من الأمم، ثمانية عشر
ألف عالم، فلبى كل من صدا هؤلاء الجبال مدا صوته بالإجابة، وبادر إلى
امتثال أوامره بالإاعة والإنابة، انبعث إليه التتار بقضهم وقضيضهم بعثا،
وقئت إليه أطواد عساكرها وبحار جنودها قتا، وحث على ملاقة تيمور
عساكر الغزاة والمجاهدين حثا.

ذكر ما فعله ذلك الخداع المكار

ونمقه فى تفخيده عن ابن عثمان جنود التتار

وتلبث تيمور فى أمره واستورى زناد فكره، فأورى زياد ناره أن يفجد
عن ابن عثمان تتاره، فأرسل إلى زعمائهم والكبار من أمرائهم ورؤسائهم،
وأمرهم يدعى بالفاضل، وكان فى المكرمات من الأفاضل، غير أنه ما مارس
الأيام ولا اطلع على مكائد اللثام.. إن حسبكم حسبى ونسبكم متصل بنسبى،
وإن بلادنا بلادكم وأجدادنا أجدادكم، فكلنا فروع نبعة وأغصان دوحة، وإن
أبانا من قديم العصر وغابر الدهر، نشأوا فى عش متوحد ودرجوا فى وكر
غير متعدد، فأنتم فى الحقيقة شعبة من شعبى، وغصن من أغصانى، وجارحة
من جوارحى وخالصتى وخلانى، وأنتم لى شعار وباقى الناس دثار، وإن كان
الناس ملوكًا بالاكْتساب، فأنتم ملوك بالانتساب، وإن أباكم من قديم الزمان
كانوا ملوك ممالك توران، فانتقل منهم طائفة من غير اختيار إلى هذه الديار،
فاستوطنوها وهم على ما هم عليه من الكرامة، وشعار السلطنة وأسباب
الزعامة، ولم يزالوا على هذا النشاط والهزة، إلى أن اندرجوا إلى رحمة الله
تعالى، وهم على هذه العزة، وكان المرحوم آخر ملوككم وأكبر مالك فى بلاد
الروم أصغر ملوككم وليس بحمد الله فى شوكتكم فلة، ولا فى كثرتكم قلة،
فإنى رضيت لأنفسكم بهذه الذلة، وأن تصيروا مسخرين حتى كأنكم من
المسخرين، وبعد أن كنتم أكابر مكبرين كيف صرتم أصاغر مصغرين، ولستم
بدار هوان ولا مضیعة وأرض الله واسعة، ولم صرتم مرقوقى فى رجل من

أولاد معتوقى على السلجوقى ولا أدرى ما العلة لهذا والسبب، ومن أين هذا الإخاء والنسب يوى عدم اتفاق وانتفاء الاتساق.

وعلى كل حال قأنا أولى بكم وأحق بعمل مصالحكم وتهيئة أسبابكم، وإن كان لا بد من استيطانكم هذه التخوم، وبيع تلك البلاد الفسيحة بمضايق ممالك الروم، فلا أقل أن تكونوا كأسلافكم حكامها مالكى نواصى صياصيها، راقين سنامها باسطى زيادكم فيها قابضين زمامها، وهذا المهم إنما يتم إذا كفينا هذه المنازلة وقضينا الأرب من هذه المناضلة، وتمهد لنا الميدان وارتفع من البين ابن عثمان، فإذا خلا الجو من المنازع وصفت لى فى هذه البلاد المشرع، وطفرت بهذه الممالك وسلكت فيها الطرق والمسالك، أعطيت القوس بارئها وأنزلت الدار بانيها، ورددت المياه إلى مجاريها، وجعلتكم ملوك قراها وصياصيها ومدنها وضواحيها، وقررت كل واحد منكم على قدر استحقاقه فيها، وإن رأيتم أن لا تعينوا علينا وأمكنكم أن تنحاذوا إلينا، فاغتنموا فرصكم وخذوا من انتهازها حصتكم، فأنتم قرييون منا صورة ومعنى.

وأما الآن تكونوا بظاهركم مع ابن عثمان وبياطنكم معنا، حتى إذا التقينا امتازوا وإلى عساكرنا انحازوا، ولا زال فحل كلامه ينزو على جحر جحرهم، ولا يجفر مزخرفا بتمويهات تزرى فصاحتها بكلام الأسود بن يعفر غائصاً فى دردور أفكارهم، ليردها عن أن تتبع ابن عثمان، وتقفر كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر حتى خلبهم بهذا المقال واستجنحهم إلى معنى ما قال، واستهواهم حب الرئاسة الذى طال ما استرق أحرار الصديقين واستعبد كبار الأولياء والصالحين، وكسكب فى النار على الرؤوس رؤوس العلماء العاملين فوافقوه على الانخزال عند الموافقة للنزال.

ذكر ما صنعه ابن عثمان من الفكر الوبيل وتوجهه إلى ملاقاته تيمور بعسكره الثقيل

فأما ابن عثمان فإنه خاف منه الهجوم على بلاد الروم، لأن الزروع كانت قد استحصدت وصدور الفواكه والثمار قد استهدت وخضروات الأرض قد اسودت والرعايا في ظل الأمن والرفاهية قد امتدت، فخشى ابن عثمان أن يصيب العباد منه ضرر أو يتطايروا إلى قبائل بلاده من لهيب ناره شرر، فبادر إلى ملاقاته وساقته سوائق المنون إلى شرب كأسها في مساقاته، وأراد أن يكون مصطرم الناس خارج بلاده من ضواحي سيواس، فأجرى من عساكره السيول العامرة، وأخذ بهم على قفار عامرة حذرًا على رعاياه من مواطني مطايه، فإنه كان على الضعيف من رعيته شفوفاً وبالفقير من حشمه وخدمه رقيقاً.

يحكى أنه في بعض مغازيه فعطش بعض حواشيه، فأتى في قرية بعض النساء فطلب منها شربة ماء، وكانت أشأم من البسوس تضرب بها المثل في اللوم والبؤس، فقالت ما عندي ما شرب فنخذ طريقك ولا تتعب، وكان العطش قد غلبه، ورأى عندها في بعض القعبة شربة لبن فشربه، فقالت هذا قوت الصبيان واشتكت عليه لابن عثمان، فطلبه واستفسره فخاف شدة نقمته تأنكره، فقال للمرأة: أنا أبعج قبقبه وأتبين صدقه وكذلك، فإن ظهر في بطنه اللبن أعطيتك الثمن، وإن تبينت بالصدق قوله جعلتك مثله مثله، فقالت والله إنه شربه، وما هئت تبينت في حقه بكذبه، ولكن أفرجت كربته وأبرأت

ذمته، فقال لا بد من إجراء العدل وإنهاء هذه الحكوم بالفصل، ثم دعا بالسيف ووسطه وأجرى على بطنه ما شرطه، فانفجر بطنه وهو منعقر، وجرى اللبن وهو بدمه ممدقر، فأشهره فى الوثاق ونادى عليه هذا جزاء من يتناول فى دولة الملك العادل ابن عثمان شيئاً بغير استحقاق، ثم إن ابن عثمان تابع الترحال وسلك فى رمضان السفر صوم الوصال.

ذكر ما فعله ذلك الساقطة مع ابن عثمان وعسكره من المغالطة

ولما بلغ تيمور أن ابن عثمان أخذ على الطريق الغامرة، نبذه نبذ اليهود كتاب الله وراء ظهورهم، وأخذ على الجادة العامرة، فدخل هو وعسكره على ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون ولسان حالهم الفصيح بنشد فى الآفاق ويصيح:

ولست أبالى حيث إدراكى العلا

أكان ترائاً ما تناولت أم كسبا

فلم يزالوا فى مراوح وزروع ومراع وضروع، بين سدر مخضود وطلح منضود وظلم ممدرد وماء مبكوب وهواء بالراحة مصبوب، ونعيم بالسلامة مصحوب فى أمن ودعة وخصب وسعة، أمناً من الوجل سائر على غير عجل مستيقناً بالنصر والظفر، مستبشراً بالملك والوزر، مستتبعاً تديره القضاء

والقدر، لا يبرد حرارة حميته لتسخين عين عدوه وإحراز المغنم البارد فترة، ولا فى إكليل كواكب عساكره المنتظمة نثرة، ولا بين أسود جيشه مكاسرة ولا نفرة، ولا فى قراهم الأعادى اللهذميات على موائد طعام ظعانهم جبن ولا كسرة.

فلم يفق ابن عثمان من رقاده إلا وتيمور قد دمر على بلاده فقامت عليه القبامة، وأكل يديه حسرة وندامة، وزار وزقًا والتهب حنقًا، وكاد يموت خنقًا وسلب القرار والهجوع وعزم فى الحال على الرجوع، فتلاطمت من بحر عساكره أمواجه، وتصادمت أنباج أطواده وأبراجه، فرجع عوده على يديه وأغرى بوصال السير وحجيه فنهكهم السير بسرعتة والمكان بقفرتة، والزمان بهجيره والسلطان بزبيره فلم يدركوه إلا وقد ذاب كل منهم وصبا، وتلا لسان حاله لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

فصل

وكان تيمور قد وصل إلى مدينة أنقرة وخيله ورجله مستريحة موقرة للقتال منتظرة، وللنزال منشرة، بل يكونوا به مكترئين ولا به مختلفين، وقد سبقوا كصناديد قريش إلى الماء وتركوا عساكره كمسلمى بدر فى جانب الضما، فهلكوا كربًا وأواما ودأبوا عطشًا بلاما، وكأنه إلى ذلك المنزل هو أرشدهم وبلسان حاله أنشدهم:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وأنقرة هذه هى ذكرها الأسود بن يعفد فى فصيدته الطنانة وهى:

نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجىء من أطواد

فإذا النعيم وكلما يلهى به يوما يصير إلى بلى ونفاد

فلما تدانت الجيوش من الجيوش، وأضربت الوحود على الوحوش،
وامتلأت منهم الصحارى والقفار، وتقاتلت اليسار باليمين واليمين باليسار،
اندفعت من عساكر ابن عثمان التار، واتصلت بعسكر تيمور كما رسم أولاً
وأشار، وكانوا هم صلب العسكر والأوفر من عساكر ابن عثمان والأكثر،
حتى إن جماعة التار كانوا نحو من ثلثي ذلك العسكر الجرار، بل قيل أن
ذلك الجمهور كانوا نحواً من جند تيمور، وكان مع ابن عثمان من أولاده
أكبرهم أمير سليمان، فلما رأى ما فعلته التار، علم أنه حل بـءبيه البوار،
فأخذ باقى العسكر وقهقر عن ميدان المصاف وتأخر، وترك أباه فى شدة
البأساء وانخزل لمن معه إلى جهة بروما، فلم يبق مع ابن عثمان إلا المشاة،
ومن داناهم وبعض من الكماة، وقليل ما هم فثبت للمجادلة بمن معه من
الرفاق وخاف أن فران يقع عليه الطلاق، وكأنه فى تلك المعركة والمعركة كان
متمثلاً ما قاله عنترة:

ولقد ذكرتكَ والرماح نواهل منى وبيضُ الهند تغسل فى دمي

فوددت تقييل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

فصبر لحادث الدهر وما أزم وأراد أن يفى على مذهب الإمام مالك بما
به التزم، فأحاطت به أساورة الجنود إحاطة الأساورة بالزنود، وحين تيقنت
الأسرة العثمانية بالكسرة وعلمت أنها تورطت فى جيش العسرة، وثبت المشاة
على الكماة واستعملت الأطيوار وكل صنارم بتار، وكانوا فى ذلك المصاف
نحواً من خمسة آلاف فنددوا أندادهم وأبادوا أعدادهم، ولكن كانوا كسافى
الرمال بالكربال، أو كمايل البحار بالكربال، أو محرر أوزان الجبال بقيراط

المثقال، فأمطروا على أولئك الأطواد وحقوق ذوات تلك الأسود من غمام القتام، صواعق ديم المدميات، وأمطار السهام السود ونادى محرش القدر، وصياد القضاء الكلاب على البقر، فلم يزلوا بين قيد وواقد، ومضروب بحكم سهم ماض فى القضاء نافذ، حتى صاروا كالشياهم والقنافذ، واستمرت دروس القتال بين تلك الزمر من الضحى إلى العصر، وانتقلت أحزاب الحديد إلى افتح فتلت على الروم سورة النصر، ثم لما كلت منهم السواعد وقل المواصر والمساعد وتحكم فيهم الأبعاد والمباعد، رفتوهم بالسيوف والرماح وملأوا بدمائهم الجدران وبأشلائهم البطاح، ووقع ابن عثمان فى قنص وصار مقيداً كالطير فى القنص، وكانت هذه المعركة على نحو ميل من مدينة أنقرة يوم الأربعاء سابع عشرين ذى الحجة، سنة أربع وثمان مائة حجة، وقد قتل غالب العسكر العطش والضمور لأنه كان ثامن عشرى تموز.

فصل

ووصل أمير سليمان إلى بروسا معقل ابن عثمان، فاحتاط على ما فيها من الخزائن والأموال والحريم والأولاد ونفائس الأثقال، واشتغل بنقل ذلك إلى بر أدرنة وراء البحر المحيط بكثير من الأمكنة المنشعب فى بحر مصر الأخذ بعدما يتدربس إلى بلاد الدشت والكرج الفاصل بينه وبين بحر القلزم جبل الجركس.

ذكرما وقع من الخياط بعد وقعة ابن عثمان فى ثغور رباط

ولما حصل لرأس مملكة الروم هذه الوعكة واندعكت أجسام عسكرها
الجسام أقوى دعة، وأخنى عليهم الجند المشثوم ونعق فى صباحها غراب
البين وزعق فى رواجها البوم، وتلا فى محراب أنسها على جماعتها أمام
القضاء والقدر: ألم غلبت الروم، خضعت رءوسها ونواصيها وتزلزلت
حصونها وصياصيها، وتزعزع دانيها وقاصيها، وانبهر طائفها وعاصيها،
فحاصوا حيصة الحمر وأيسوا من الأهل والأوطان والمال والعمر، أن قد ذهب
منهم الرأس. ولم يبق فيهم من يقيم الرأس.

فلما سمعوا أن أمير سليمان ضم الناس إلى نحره وعزم على العبور إلى
بر أدرنة يقطع بحره، سالت بهم الأودية والشعاب إليه وعولوا فى خلاصهم
من ذلك البلاء الطام عليه، فصالح أهل اسطنبول ووادهم وعاهدتهم على أن
لا يغدر كل منهم بالآخر ومادهم، ثم قصدهم أن يعينون على الوصول بقطع
البحر من ثغرى كالى بواى استنبول أن ليس لهذين البحرين من هذين البرين
طريق قريب ومعبر سوى هذين الثغرين.

فإن بحر إسكندرية يأخذ على أنطاكية وملائة، ثم يروم بلاد الروم
فتحصره الجبال قبل وصوله بلاد الشمال، فلا يزال فى حصره يدق وشقتا
جانبيه ترق، حتى تستراى حافته، ويكاد تنطبق شفتاه ومسيرة هذا الانضمام

نحو من ثلاثة أيام، ثم يأخذ فى المد والابنساط والجريان على وجه النشاط، ثم تدور كتائب أمواجه وتكرس ويأخذ نحو بلاد الدشت والكرج حتى تصل كما ذكر إلى بلاد الجركس، وما أمكن أحداً من شواحد الحكمة ومهندسى النوافث، أن يعزز هذين المعبرين فى مدا هذا الانضمام بثالث، فتغر كاليبولى بيد ملاحى المسلمين، وتغر استنبول بيد النصارى أعداء الدين، وهم أعظم الثغرين وأجسم المعبرين.

وكانت النصارى ملاحية فصار غالب الناس يقصده ويتحيه، فاستطارت الفرنج فرحاً واستطالت وخاضت فى دماء المسلمين وحريمهم وأموالهم وجالت، فإن ابن عثمان كان بالحصار قد أنهكها وأباد قراها وضواحيها وأهلكها، وضيق على أهلها مجارى أرواحهم مسلكاه، فبينما هم وقد بلغ السيل الزبا وجاوز الخريم الضبا، وأنشب كل شر فيهم حده، وإذا بتيمور جاءهم بالفرج بعد الشدة فاندفع عنهم بالضرورة ابن عثمان، وحصل لهم بذلك الفرح والأمان، وزاد ذلك بأن احتاج المسلمون إليهم وتراموا فى طلب الخلاص من العدو عليهم، فبعد أن زالت عنهم الغصص اغتمموا فى درك الثارات من المسلمين الفرس، فجعلوا يوسقون المراكب من الناس والحمول ويتوجهون بذلك إلى صوب استنبول.

وإن استنبول وراء ذروة جبل وقلة من القلل، وهى من أكبر مدن الدنيا حتى قيل أنها قسطنطينية الكبرى، وكانوا إذا عطفوا وراء تلك الذروة بالمراكب، واستتروا بالهضبة الثانية عن عين من هو فى هذا الجانب يصيرون كالأموات النازلين إلى الحفائر الملقين فى قعر اللحود والمقابر، لا يدرى إلى أنى توجهون وإلى ماذا يصيرون، إلى بر السلامة والإسلام، أم إلى دار الحرب

وأسر الكفرة الطغام، فتذهب منهم الذاهبون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون، فإذا جاءت المراكب وهى فوارغ تعلق كل من هذه الخلائق فيها بجهد كامل وجد بالغ، ولم يدر ماذا يجرى عليه وإلى ماذا يصير أمره إليه، وأشبهوا فى أبصارهم الكليلة وخطوبهم الجليلة مالكًا الحزين والسماك المذكور فى كتاب كليلة.

وحاصل الأمر أنه لم يسلم من ذلك السواد الأعظم فى كل غراب أدهم إلا مثل الغراب الأعصم، واستطالت أعداء الدين كيف شاءت على المسلمين، وقطع أمير سليمان البحر واستولى على ذلك البر وضبط ممالكه وربط مسالكه، وهو أوسع من هذا الجانب وأفسح مرجًا وأذر ريعًا وأكثر خراجًا وأعظم حصونًا وأمكنة، وتحتته مدينة أدرنة فاجتمع الناس على أمر سليمان، وسهل الأمر فى الجملة شيئًا ما وهان.

ذكر أولاد ابن عثمان وكيف شتتهم وأبادهم الزمان

وكان للسلطان أبى يزيد المذكور من الأولاد الذكور أمير سليمان هذا وهو أكبرهم، وعيسى ومصطفى ومحمد وموسى وهو أصغرهم، وكل منهم طلب لنفسه مهربًا وانحاز إليه من أيه طائفة نجبا، فكان منهم محمد وموسى فى قلعة أماسية، وهى خرشنة الشاهقة العاصية التى قال فيها أنز الطيب:

حتى أقام على أرباض خرسنة يشقى به الروم والصلبان والبيع

للسبي ما نكحوا للأسر ما ولدوا للنار ما زرعوا لنهب ما جمعوا

وقلعة قلعتها شاهقة كأنها بقبة الفلك عالقة، يعبى النازل عنها فى نزوله
منها أكثر مما يعبى الصاعد إلى غيرها، يسميها بغداد الروم لأن قرار أرضها
بنهر كبير من الوسط مقسوم وبينها وبين توفات مسيرة يوم للمجد، وأما
عيسى فإنه لجأ إلى بعض الحصون واستكان إلى أن قتله أخوه أمير سليمان
وموسى فيما بعد قتل أمير سليمان بعيسى، ثم إن محمداً قتل بعد الكل
موسى، ونسخت الأحكام المحمدية شرائع الملة الموسوية والعيسوية إلى أن
مت حتف أنفه فى أوائل سنة أربع وعشرين وثمانمائة، ومات بشيء دس إليه
على يد قوجقار فى الهدايا الملكية المؤيدية.

وانتقل الملك من يده إلى مراد ولده، وهو فى يومنا هذا أعنى سنة
أربعين وثمانمائة مستقل به. وأما مصطفى فإنه قد فقد وقتل نحو من ثلاثين
مصطفى بسببه.

عوداً إلى ما كنا فيه من أمور تيمور ودواهيته، ثم إن تيمور لما قبض على
ابن عثمان جرد إلى بروسا طائفة من الجنود والأعوان وأضافهم إلى شيخ نور
الدين، ثم أتبعهم بوقار مكين وجأش مستكين، ووصل إليها ونزل نزول
القضاء المبرم عليها، وضبط ما وصلت إليه يده من جماعة ابن عثمان وحرمه
وأمواله وخزائنه وحشمه وخدمه وخلع على أمراء التار ورءوسهم واستعطف
خواطرهم بتطبيب نفوسهم ووزع آراءهم على أمرائه، وأضاف كل ظهر منهم
إلى رأس من رؤسائه ووصاهم به وعليهم، وبالع فى أن يصلوا ما أمكنهم من
البر إليهم، ومشى على مشيه القديم فى استخلاص النفائس واقتناص

النفوس، وسبى الحريم وجعل يحضر ابن عثمان كل يوم بين يديه ويلاطفه
ويبأسطه، ويزرق إليه ويسخر منه ويضحك عليه.

ذكر ما فعله مع ابن عثمان من نكاية غدت بأوصافه القبيحة على مر الزمان حكاية

ثم إنه فى بعض الأيام جلس فى مجلس عام وخفض جناح النشاط
للخاص والعام، وطوى بساط النهى والأمر، ومد بساط الخمر والزمر، وحين
غص بالناس المكان استدعى سريعاً ابن عثمان، فجاء وفؤاده يرجف وهو فى
قيوده يرسف، فسكن قلبه وأزال رعبه، ثم أحسن جلوسه وأزال بالاهتشاء
إليه عبوسه، ثم أمر بأفلاك السرور فدارت وبشموس الراح أن تسير من مشرق
أكواب السقا إلى مغرب الشفاء، فسارت وحين تقشعت عن شمس السقا
سحاب الخدور، ودار فى سماء العشرة نجوم يحثها من مراسيمه بروز وبدور،
ونظر ابن عثمان فإذا السقا جواريه وعامتهم حرمه وسرائره، فاسودت الدنيا
فى عينه واستحلى مرارة سكرات حينه وتصدع قلبه وتضرم لبه، وتزايد كمد
وتفتت كبده، وتضاعدت زفراته وتضاعفت حسراته، ونكى جرحه وغذ
قرحه، ونثر على جرح مصابه قصاب الأسى ملحه.

وكانت هذه نكاية لابن عثمان بما أسلفه فى مكاتباته بذكره النساء وحلفه
لأنه سبق أن ذكر الحرم عند الجفتاى، بل وقبائل الترك من أكبر الحرم وأعظم

من الخيانة فى الحرم، وأيضاً مكافأة لما فعله ابن عثمان مع حريم طهرتن فى أرزنجان .

ومن تمام إساءته لابن عثمان إحسانه لأولاد ابن قرمان، وكان قبل ذلك ابن عثمان قد استولى على ممالك قرمان، وقتل متوليها السلطان علاء الدين بعد أن حاصره وقبض عليه ونقل إلى حبس بروسا محمداً وعلياً ولديه فلم يزالا عنده فى ضيق وضنك، حتى أفرج عنهما باحبس عليه تيمورلنك فأخرجهما وخلع عليهما وأبرهما وأحسن إليهما ووالاهما مأواهما قلت :

ولم يرفض معاوية محباً عليا بل لأن أودى يزيدا

وقيل :

وليس حبه يحنق عليه ولكن بغض قوماً آخرين

وقلت بديهاً :

أصادق ضد أعدائى وإن لم يكن بين وبينهم ولاء

وأبغض من يعادى لى صديقاً وأن أثنى على بما أشاء

وذاك ليتكى ضدى ويهنا فتى قد سرنى منه الإخاء

والأمير محمد هذا هو الذى قبض عليه الأمير ناصر الدين محمد بن دلفار أمير التراكمة المفسدين، وقتل ولده مصطفى فى البلاء، وجهزه إلى الملك المؤيد مكبلاً وذلك فى شهر رجب سنة أربعة وثمانمائة .

ذكر وفود اسفنديار عليه ومثله سامعاً مطيعاً بين يديه

ثم إن الأمير اسفنديار ابن أبى يزيد وهو أحد ملك الروم، وله فى السلطنة قصر مشيد ورث الملك عن أبيه، وكان مستقلاً بالأمره وبينه وبين الملوك العثمانية عداوة موروثه ونفرة، وتحت حكمه بعض مدن وقلاع ووهد، وبقاع منها مدينة سينوب الملقية بجزيرة العشاق، يضرب بظرافتها المثل فى الآفاق، وهى فى النحر من البحر فى جزيرة كبيرة سبيل الدخول إليها عبرة بها جبل أحسن من أرداف الحور، متصل بمعبر أدق من رقيق الحضور.

وهى معقل اسفنديار ومعاده وحرز خزائنه وملاذه أعصى من إبليس، وأوثق من كف بخيل يخاف التفليس ومنها قسطنطينية تحت ملكه وبحر فلكه، ومنها سام سون وهى قلعة على جانب البحر للمسلمين مقابلتها نظيرتها للنصارى المخالفين بينهما دون رمية حجر، وكل منهما آخذة من الأخرى الحذر وغير ذلك من القلاع والقرى والقصبات فى الوهد والدرى، ولما بلغه ما فعله تيمور الغدار مع أولاد ابن قرمان والتتار، ومع قراىلوك وطهرتن حاكم أرزنجان، والأمير يعقوب بن عليشاه متولى كرمان، ومن توجه إليه من حكام منتشا وصاروخان، وأنه لا يحيج من أطاعه ونلبس لأوامره بالسمع والطاعة، سارع إلى المثل بين يديه، وتهياً للوفود عليه، فأقبل بالتحف العالية والتنف الغالية، فقابلته بالبشرى وعامله بالسرا وأقره فى مكانه نكاية لابن عثمان، ثم أمره وأولاد قرمان، وم اتسم له بمسيم الطاعة والإذعان من أمراء

تلك الأكتاف والأكتان، أن يخطبوا ويضربوا السكة باسم محمود خان والمير الكبير تيمور كوركمان، فامتثلوا أوامره وحذروا زواجره وآمنوا بذلك الغارة والمصادرة.

توفى اسفنديار المذكور فى شهر سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة، وهو طاعن فى السن وهو من أواخر الملوك الذين وفدوا على تيمور، واستولى بعده على مملكه ولده إبراهيم بك، ووقع بينه وبين أخيه قاسم بك مشاجرات وانحاز قاسم إلى الملك مراد بن عثمان والله الأمر من قبل ومن بعد.

فصل

ثم إن تيمور أخرج ما لابن عثمان وغيره من الذخائر، واستصفى بخزينته ما كان إرثًا وكسبًا لملوك الأروام من النفائس والأخاير، وشتى فى ولايات منتشا وألقى لدروسها مباحث تصريفه كيف شاء، وانتهى إلى أقصاها وحرر البحث فى مسائل الخمس والمغانم، فاستقصاها وانبثت جنوده فى آفاقها، وغاصت فى بحار ممالكها من أشباح أطوادها إلى قرار أعماقها، فمن فارغ إلى جبال جباها وقمم صياصياها، ومن متعلق بأذان مرامياها ويتسلق بأذيال نواصياها، ومن راكب أكتاف أكتافها، نازل فى سواحنها دايى بأرجل سعيه خدود، روضها الأنف جايس بكاهل أهلها، ومن دامغ دماغها بأهداب رماحه لأجل العين بالغ من غير حاجب له، منها ما رام باليد واليدى، ومن حال على نهدي صدرها، قال رءوسها ووجوها اللجيين على ظهرها، ومن ماد أنامل تعديه من غير كف إلى معاصمها ومرافقها كادبا قدام الفساد فى بطون مغاربها، وأفخاذ مشارقها فجزوا الرءوس وحزوا الرقاب وفتوا الأعضاء وبتوا الأكتاد وحرقوا الأكباد، وشوهوا الوجوه وأسالوا العيون، وبتوا البطون

وأشخصوا الأبصار وأخرسوا الألسنة، وصكوا المسامع وأرغموا الأنوف،
وأذلوا العرائن وهشموا الثغور وحطموا الصدور، وقصموا الظهر ودقوا الفقر
وشقوا السرر وأذابوا القلوب، وفطروا المراير وأراقوا الدماء واستحلوا الفروج
وأضروا الأنفاس وأبادوا النفوس، وسبكوا الأشباح وسلبوا الأرواح، ولم
يخلص من شرهم من رعايا الروم الثلث ولا الربع، وصادت جماعاتهم فيما
بينهم ما بين منخقة وموقوذة ومتردية ونطيحة وما أكل السبع.



ذكر فتح قلعة أزميز وحتفها ونبذة من عجيب وضعها ووصفها

وحاضر قلعة أزميز وهي حصن فى وسط البحر مناله عسير بهمزة
مكسورة وزاى معجمة وميم مكسورة وباء ساكنة وراء مهملة، قلعة قد أقلت
فى البحار وأضرمت فى قلب خاطبها بتمنعها وعصيانها النار، أعصى من
قلاع الجبال وأقصى فى المنال أن تنال لخيلى ورجال، فأعد لها أنواعاً من آلات
المحاصرة وأخذها يوم الأربعاء عاشر جمادى الآخرة سنة خمس وثمانمائة
سادس كانون الأول من السنين الرومية، فقتل كبارها وأسر نساءها وصغارها
وبنى من أبدان القتلى جوامع، وشيد من رءوسها منارها، ثم سلمت عن
القلعة غناها وأفقرها وأقواها من ذخائرها وأفقرها وأخلاها وقد استصفى منها
أبيضها وأصفرها، وطير بهذه الأمور أجنحة البشائر، وأطار بها على رغبة
فى الآفاق بأسعد فال وأسرع طائر.

ذكر ما صنعه من أمر مروم وهو فى بلاد الروم من قصده
بلاد الخطا واستخلاص ممالك الترك والجتا واقتكاره وهو
فى الغرب مشغول فى استصفائه سائر ولايات الشرق
والمغول وكيف عانده القضاء المبرم بنازل ألهب فؤاده وأضرم
فصارفه الزمان وعكس عرضه وهذه كالجملّة المعترضة

ثم إن تيمور كان قد استدعى من سمرقند سبطه محمد سلطان والأمير
سيف الدين ورهطه كما ذكر أولاً، وكان محمد سلطان هذا للفضلاء ملاذاً
وللعلماء معاداً، مخايل السعادة فى غصون جبهته لائحة وبشائر النجاة من
أساير طلعتة واضحة .

فى المهّد ينطق عن نجابده جده أثر السعادة لائح البرهان

وسيف الدين هذا هو أحد رفقاء تيمور فى مبدأه وأس أركان دولته فى
متهاه، وهما اللذان كان بنيا إشبارة وأساساً فيها قواعد النهب والغارة، وهى
فى نحو بلاد المغول والجتا وأقصى حدود ما ينتهى إليه حكم تيمور ومبدأ بلاد
الخطا، ووليا بها أميراً يدعى أرغون شاه وأمداه بطوائف من العساكر وفى ثغر
المغول أرصده كل هذه الأمور بأوامر تيمور .

ولما شرعاً فى ذلك لم يرض المغول بهذا الفعل الخالك، لأنهم كانوا
يعملون أن ذلك لأفعى إذا جاورهم، لا بد أنه فى الفساد يسعى فلا يأمنون
غائلته ولا يطيقون مجاورته فتشوشت خواطرهم وتكدرت ضائبهم

فاستوقزوا للفرار وإخلاء الديار، فزاد الجغتاي فيهم طمعاً ومد كل من أشرا الطائفتين إلى الإضرار يد التطاول ورجل الفساد، وسعى وشرب كاسات التحرم فأكل ما حل بيده وما يزهد في تعفقه ورعاً، وفرح الجغتاي بذلك ووقعت العداوة بين الجانبين، فسد كل على الآخر طرق المسالك، وجعلوا يرسلون إليهم السرايا ويحلون بما تصل يدهم إليه من متعلقاتهم البلايا.

وجعل المغول أيضاً يفعلون مع الجغتاي ذلك، وتربصوا بتيemor لبعده عنهم ريب المنون وتشبثوا بغشوبات المهالك، واتصل الخبر بتيemor فسر بذلك أشد السرور، ثم إنهما حصناهما بالأهمية الكاملة والعدة الشاملة والرجال المقاتلة، منهم طائفة من عساكر الهنود ومولتان، وقوم من جند عراق العرب وأذربيجان، وفرقة من فوارس فارس وخراسان، وشرذمة من أناس تدعى جاني قرمان، وأضافوا هؤلاء الكماة مع تومان من ياساق الجغتاي إلى الأمير أرغون شاه ووصلا إلى خجند وقطعا سيحون وقدا سمرقند، ووليا بها أميراً يدعى خواجه يوسف، فكان في قيد الطاعة والإخلاص يرسف، ثم خرجا من سمرقند قاصدين ذلك الغشوم، ثم إنهما ماتا جميعاً: سيف الدين في خراسان، ومحمد سلطان في بلاد الروم.

فوقع تيمور في الأحزاب على حفيده محمد سلطان، ولبس عسكره السواد وأقاموا شرائط الحداد، ولم يكن بهم حاجة إلى السواد المعلم فإنهم كانوا السواد الأعظم، ثم جهز عظامه في تابوت إلى سمرقند مع عظمت وجبروت، ورسم أن يتلقاه أهل المدينة بالنوح والبكاء وقيّمون عليه شرائط العزاء ولا يبقى أحد من العباد إلا ويلبس من فرقه إلى قدمه السواد.

فخرج أهل سمرقند عند موافاته، وقد انغمسوا في السواد لملاقاته،

وصار الشريف والوضيع والدنى والرفيع بالسواد معلما، فكأنما أغشى وجه الكون قطعاً من الليل مظلماً، فدفنوه بمدرسه الحصينة المعروفة بأشابه داخل المدينة، وذلك فى سنة خمس وثمانمائة ولما أهلك الله تعالى جده دفنوه كما سياتى ذكر ذلك عنده .

ذكر حلول غضب ذلك الصياد على الله داد ونفيه إياه إلى أقصى البلاد

ولما توجه الثقل من ماردين صحبه الله داد وفارقه تيمور متوجهاً إلى استخلاص بغداد، وكان الله داد له أنداد وأكفاء وحساد، وأعداء وأضداد، والحسد فى عنق صاحبه غل قمل، وتحاسد الأكفاء جرح لا يندمل، وجد أعداؤه للطعن فيه مجالاً، وفى مقام ثلب عرضه مقالاً فانتهزوا فرصة غيبته وأكلوا بلا ملح لحمه، وتنقلوا بغيبته ووشوا به إلى تيمور، وذكروا ما فعله فى الشام من الأمور، وإنه التمس من ذنائبها ما لا يحصى، واختلس لنفسه من نفائسها وتعلق به من أعلامها ما لا يستقصى، وكان كما قالوا وما أهملوا أكثر مما نالوا، فبددوا أمره وأوغروا عليه صدره، لا سيما وقد قص جناحه بموت سيف الدين أخيه، وكان من الأبهة والمهابة، بحيث إن تيمور كان يخافه ويرتجيه وله فى ممالك ما وراء النهر مآثر مشهورة، ونتائج فكر باقية معهودة .

فوصل الله داد إلى سمرقنده، وأعقبه تيمور مرسوماً من عنده، بز

يتوجه إلى إشبارة ويستعد هناك للنهب والغارة، وذلك كالنفي لا للرداد والبقاء في أقصى البلاد وطرحه في نحر المخالفين، وثغر ذوى العناد وانتقل منها إلى سمرقند أرغون شاه، ولم يزل بها الله داد إلى أن انتقل تيمور إلى لعنة الله، فجعلت المغول تجهز إلى إشبارة الفيالق وتنهب ما تصل إليه يدها من صامت وناطق، وتغتني الفرصة لبعث تيمور عنها، وكان الله داد غير راشد الاحتراز منها، وهو مع ذلك يجهز لهم التجاريد، ويحفر لهم بالمكر الآبار والأخاديد، ويقتل ويأسر ويطحن ويكسر حتى أقواها بعد تيمور، وسيأتي ذكر هذه الأمور.

أنموذج يدل على عمق ذلك البحر المحيط وما كان يصل إليه غواص فكرة البسيط

ثم لما كان تيمور المشئوم مخيمًا ببلاد الروم أبرد الله داد مراسله، فيها أمور محملة ومفصلة أمره بامثالها، وإرسال الجواب بكيفية حالها، أن يبين له أوضاع تلك الممالك، ويوضح له كيفية الطرق بها والمسالك، ويذكر له كيفية مدنها وقراها ووهدها وذراها وقلاعها وصياصيتها، وأدانيها وأقاصيها ومفاوزها وأوعارها وصحاريها، وقفارها وأعلامها ومنارها ومياهها وأنهارها، وقبائلها وشعابها ومضائق طرقها ورحابها ومعالمها ومجاهلها، ومراحلها ومنازلها، وخالبها وأهلها، بحيث يسلك في طريق الإطناب الممل ويتجنب ما حد

الإبحار، وخصوصاً المخل ويذكر مسافة ما بين كل منزلتين، وكيف المسير بين كل مرحلين من حيث ينتهى إليه طاقته، ويصل إليه علمه ودرايته من جهة الشرق، وممالك الخطا وتلك الثغور وإلى حيث ينتهى إليه من جهة سمرقند، علم تيمور وليعلم أن مقام البلاغة فى معانى هذا الجواب هو أن يصرف فيه ما استطاع من خشو وتطويل وإطناب، ويسلك فى بيانه الطريق الأوضح من الدلالة، وليعد عن الطريق الخفى فى هذا الرسالة إلى أن يفوق فى وصف الأطلال، وحدود الرسوم وتعريف الدمن مضغة الشيخ والقيصوم.

فامثل الله داد ذلك المثل وصور له ذلك على أحسن هبة وأنق تمثال، وهو أنه استدعى بعده أطياف من نقى الأوراق وأحكمها بالإنصاف، وجعلها مربعة الأشكال ووضع عليها ذلك المثل، وصور جميع تلك الأماكن وما فيها من متحرك وساكن وأوضح فيها كل الأمور، حسبما رسم به تيمور شرقاً وغرباً بعداً وقرباً، يمينا وشمالاً مهاداً وجبالاً، طولاً وعرضاً سماءً وأرضاً، مردأً وشجراً غبراً وخضراً، منهلاً ومنزلاً منزلاً، وذكر اسم كل مكان ورسمه وعين طريقه ورسمه، بحيث إنه بين له فضله وعيه وأبرز إلى عالم الشهادة غيبه، حتى كأنه مشاهده ودليله ورائده، وجهز ذلك إليه حسبما اقترح عليه كل ذلك، وتيمور فى بلاد الروم يمور.

ذكر ما فعله ذلك المكار

عند تنجيزه أمر الروم من الغدر بالتتار

ولما صفا لتيemor شرب ممالك الروم من الكدر وقضى الكون من أفعاله العجب، وأهل الروم النحب، وجيشه من الغارة الوطر، وامتلاً من المغانم وادى سيله العرم، وكان فتح الربيع قد أدرك وشيخ الشتاء قد هرم، واندرج إلى رحمة الله المجيد السلطان السعيد المغازى الشهيد إيلدرم أبو يزيد، وكان معه مكبلاً فى قفص من حديد، وإنما فعل ذلك تيemor قصاصاً كما فعله قيصر مع شابور، وكان قصد استصحابه إلى ما وراء النهر، فتوفى معه فى بلاد الروم فى أق شهر، وفى هذا المكان توفى حفيده محمد سلطان، وزم على الرحيل وحرّم أحمال التحميل، ثم جمع رءوس التتار وقد أضمر لهم الدمار والبولار.

وقال قد آن أن أكافئكم بما صنعتم وأجاريكم بما فعلتم، ولكن قن أضمر بنا المقام ومللنا الإقامة فى مضائق الأروام، فهلم لنخرج إلى الفضاء الفسيح، ونشرح صدورنا من ضيقى الزمان والمكان فى المهامة الفيح، ضواحي سيواس ومنتزه الناس ومثوى الأكياس، فهنالك نضبط أحوال هذا الإقليم الوريث، ونقرر كلا منكم فيه حسب ما يقتضيه رأينا الشريف، فإنه لا بد من تفصيل جملة وإمعان النظر فى كيفية تدبيره وعمله، وحصر مدنه وقلاعته وضبط قراه وضياعه، وحسبان توأمينه وإقطاعاته والإحاطة بأفراده وجماعاته، فإذا فصل لنا ما أجمل ووضح عندنا ما منه استشكل فحصنا عن رءوسكم وجماجمكم،

وتوصلنا إلى معرفة أخباركم، وتراجمكم وجمعنا رءوسائكم وحصرنا زعماءكم وأحصينا أعدادكم، واستقصينا آباءكم وأجدادكم واعتبرنا إخوانكم وأولادكم، ونظرنا متعلقكم وأحفادكم، وتحققنا شعار الروم ودثارهم وأورثناكم أرضهم وديارهم، ثم فرشنا هذه المسئلة على أعداد الرءوس وقسمنا نفائس هذه الممالك على النفوس، ثم رددنا إليها مكرمين وكفيناكم وعيالكم العيلة، إن كنتم علينا معولين وعلى كل حال فإننا نفعل مع كل منكم ما يجب فعله، ونبقى عليكم من أفعالنا ما يتخلد في بطون الدفاتر والتواريخ خفله، وكل منهم ارتاح لهذا القول وعول في هذه المسألة على موافقة الرد ولم يعلم ما فيها من الغول، فلما توافقوا على هذه الحركة بنفس ساكنة لم يبق منهم في هذه الموافقة على كثرة عدد رءوسهم المتماثلة مباينة فسار بالناس حتى بلغ سيواس .

فصل

ولما برق ركام ركابه المتراكم في افاق سيواس، ورعد وحنان له أن يفى لطائفة التتار بما وعد، جلس جلسة عامة وأقام من زبانية الجند طائفة طامة، ثم دعا من التتار الوجوه والرءوس والظهور والضروس، ومن يخشى مضرته وتتقى معرته، والمردة من شياطينهم، والعنده من أساطينهم، فاستقبلهم بوجه طلق، ولسان بالحلاوة ذلق، وأجلسهم مكرمين في مكانهم، وزاد في تمكينهم وإمكانهم، ثم قال قد كشفت بلاد الروم ونواحيها، وتبينت جميع قراها وضواحيها، وقد أهلك الله عدوكم فاستخلفكم وأنا أيضاً أفوض ذلك إليكم وأذهب عنكم، واستخلف الله عليكم، ولكن أولاد أبي يزيد غير تارككم، ولا يرضون بأن يكونوا فيها مشاركيكم، وأما صلحهم فقد سدت فعالكم مع

أييه طريقه، فلا مجاز لكم إلى شريعته على الحقيقة، ولا شك أنهم يرابون صدعهم ويندبون جمعهم، ويستوحون عليكم أهل المدر والوبر ويليهم بالإجابة كل من يبلغه دعوتهم، لأنكم فى زعمهم آل غدر، فيلبس لكم جلد النمر ويصلونكم الجمر، بكل أمر مؤتمر فيقرضونكم من كل جانب ويختطفونكم من الأطراف والجوانب، لا سيما وييدهم غالب الحصون والدساكر، وتحت أوامرهم من بقى من طوائف الجنود والعساكر، فإن كنتم كما أنتم فى الناس فوضى، فإنهم يخوضون فى دمائكم خوضاً، قفوا واسمعوا إن كنتم لم تعقلوا ولم تسمعوا:

لا يصلح الناس فوضى إلا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا وأما أنا فلست منكم بدان ولا لى فى الدمافة عنكم يدان، فلا بد لعقد أمركم من نظام، ولصلاة جماعتكم من شرائط وأركان، يجب القيام بها أولاً والسلام، وأول شرائط ذلك إمام، يرجع إلى الاقتداء بأفعاله الخواص والعوام، ثم بعد ذلك ترتيب الجماعة وتنزيل كل واحد فى صف السمع والطاعة، ثم وضع الأشياء فى محلها وزمام المناصب والوظائف فى يد أهلها، وإيصال كل مستحق إلى استحقاقه، وجمع الرأى على أمر واحد باتفاقه، فإذا اتفقت آراؤكم واثلفت أهواؤكم، عظمت أبنائكم، وكبت أعداؤكم، وكنتم يداً واحد على من ناولكم، وانتصرتكم على من خالفكم وعادام، وكان ذلك أحرى أن لا تمتد إليكم بمكروه إليكم يد، ولا ينالكم من مخالفكم كيد، ولا كد، وهذا إنما يتم بالنظر فى أحوالكم، والتفحص عن أمر خيلكم ورجالكم، وضبط الأهبة والسلاح، فإن ذلك آلة الظفر والفلاح، فليذكر كل منكم ولده وأهله وليحضر خيله ورجله وليأت بعدده وعدده

وجنده وولده، وليعرض ضرورته إن كانت ولا يستصعبها فقد هانت، فمن كان محتاجاً إلى كمال شيء أكملناه، ومن كان معتازاً إلى إيصال شيء أوصلناه، فأضفنا إلى كل ما تجب إضافته فيحصل أمانه وتذهب مخافته، فاعرضوا أول شيء علينا سلاحكم حتى نكمله، ونعمل صلاحكم.

فأحضر كل منهم أهبته وعرض عليه عدته وطرحوه في ذلك الجمع العظيم فتراكم فكان كالطود العظيم، كما فعل أول الزمان بأهل مدينة سجستان، فلما سلب تلك الأسود برأتهم وأنيابهم بهذه الأساليب وخلق أولئك الكؤوسر الجواسر على مناقيرهم والمخاليب وأولج صارم فكره الذكر في أحشاء عقولهم، وأنزل وصار سماك سماء عزهم الرامح، وقد نحره سعد الذابح أعزل من عنده أحد من التتاري أن يقبض عليه ويوثقه بقيد الإسار، ثم أمر برفع تلك الأسلحة إلى الزردخانه، وقد أشعل قبائل التتار بجمر البوار، وصعد إلى العيوق دخانه، ففتت ذلك من أعضادكم وبت من أكبادهم وقصم ظهورهم، وأشعل نارهم وأطفأ نورهم، ثم تلافى خواطرهم بالمواعيد الكاذبة واستعطف قلوبهم بالأمانى الخائبة، واستصحبهم بالأقوال المموهة والأفعال المشوهة، وحال بهم الحال، وأمر في الحال بالسير والترحال.

قيل أن السلطان أبا يزيد قال لذلك العنيد أنى قد وقعت في مخلبك، وأعلم أنى غير ناج من معاطبك، وأنك غير مقيم في هذا الإقليم، ولى إليك ثلاث نصائح هن بخير الدارين لوائح:

أولاهن لا تقتل رجال الأروام فإنهم رداء الإسلام أولى، وأنت بنصرة الدين لأنك تزعم أنك من المسلمين، وقد وليت اليوم أمر الناس وصرت لبدن الكون بمنزلة الرأس، فإن حصل لوقف اتفاقهم من تعدى يدك بسط وتكسير، تكن فتنة في الأرض وفساد كثير.

ثانيهن لا تترك التتار بهذا الديار، فإنهم مواد للفسق والفساد ولا يهتمل أمرهم، ولا تؤمن من مكرهم، فخيرهم لا يعدل شرهم، ولا تذر على أرض الروم منهم دياراً، فإنك إن تذرهم يملأوها من قبائلهم ناراً، ويجروا من دموع رعاياها ودمائهم بحاراً، وهم على المسلمين وبلادهم أضر من النصارى، وأنت حين فخذتهم على زعمت أنهم أولاد إخوتك، وبنو عمك وذوق قرابتك والأولى بجماعتك وناسك أن تتبعك، وبكل من أولاد أخيك أن يقول لك عم خذني معك، فاعمل أفكارك المصيبة في إخراجهم وإذا أدخلتهم حبساً فلا بطمعمهم في إفراجهم.

ثالثهن لا تمدن يد التخريب إلى قلاع المسلمين وحصونهم، ولا تجلبهم عن مواطن حركتهم وسكونهم، فإنها معاقل الدين وملجأ الغزاة والمجاهدين، وهذه أمانة حملتها، وولاية قلديتها فتقبلها منه بأحسن قبول، وحمل هذه الأمانة ذلك النسان الظلوم الجهول، واستكثرها على عقل ابن عثمان ووفى بها بقدر الطاقة والإمكان.

ذكر ارتفاع ذلك الغمام

بصواعق بلائه عن ممالك الأروام

وسار قنار غبار أخذ عين الشمس منه الإبهار، وفار بحار التتار، فكان البحر أمله الله سبعة بحار، فمر لا يدخل قرية إلا أفسدها، ولا ينزل على

مدينة إلا محارها ويددها، ولا يمر على مكان إلا دمره، ولا ينجدب عن ربة طعته جيد إلا كسره، ولا ينمنع عليه شمراخ حصن شامخ، إلا هصره فخلع لى عثمان قرا أبلول، حين وصل إلى أرزنجان وقرره فى ولاياته وزاده بعض معان ومغان ووصاه بشمس الدين، ولاء قلعة كماخ وأن يكون كل منهما لآخر قوة وطباخ.

ذكر انصباب ذلك العذاب ماء ونارا على ممالك الكرج وبلاد النصرارى

ثم لم يزل يلتج بذلك البحر اللج، حتى أرسى على بلاد الكرج، وهم قوم يعبدون المسيح، ملكهم غير فسيح، ولكنه مصون بواسطة قلاع وحصون ومغاير وكهوف، وجبال وجروف وقلال وحروف، وكل من ذلك أعصى فى المنال من نفس كريم سيم شيم الأندال، ومن مدنهم تفليس، وكان أخذها ذلك الإبلير، وطرابزون وأب خاص وهى التخت بالاختصاص، فتمنعت هذه الأماكن عليه، ولم تسلم قيادها إليه، فأقام يحاصرها وقعد يناقرها يناقروها.

فمن ذلك مغارة بابها فى وسط جرف شاهق، آمنة البوائق سالمة من الطوارق، وسقفها آمن من صواعق المجائق، وذيلها أرفع من أن يتشبث به علائق المسائق، مدخلها أخفى من ليلة القدر، وعدم التوصل إليها أجلى من

القمر ليلة البدر، فأولع بمحاصرتها والتزم بمضاجرتها، واستعمل من فكره مهندسة وجعل لا يقرر من الأفكار والوسوسة، ثم أنتج رأيه المتين وفكره الرصين، أن يرسل عليها عذاباً من فوقها، وأن يصطاد تلك الحمامة الصاعدة فى الجو بأرجلها من طوقها، فأمر أن يصنعوا له توابيت على هيئة الدبابات، كأنهن شياطين النساء للرجال غلابات، وأوثقهن بالسلاسل الحكيمة، وأوسقهن بالرجال ذوى الشكيمة، وأدلاهن من تلك القلال وأهواهن من شوايق الجبال، فتدلين فى الهواء تدلية مبرم القضاء، فملأن النفاف وأرجفن من الجبال والرجال الروائف، وصار لسان حال تلك الصقور ولشوامين ينادى كل من رآه، ألم تر إلى الطير مسخرات فى جو السماء، ما يمكنهن إلا الله .

فحين وازوا باب تلك المغارة أكبشوهم بالنبال السحارة، وكفوهم بالمكاحل الطيارة، وهاوشوهم بأنواع الأسلحة، وناوشوهم بالأوهاق الكلاليب المنطحة، فلا زالت الجوارح فى الهواء صافات، وينقض ريقبلن إلى ذلك الوكر حائمات عليه، ولا يعرضن ينقرن سره أهله بمناقير المناقيب، وينشبن فيهم مخالب الكلاليب، وبكرة الناشر تمنعهم على الولوج، وتستعين فى مدافعتهم بمن فيها من العلوج، فلم ينشب أحد أولئك الجوارح، أن أنشب فى الباب كلوبة الجارح، ثم استقصد الفتح استنهض الظفر واعتمد على الله، مرج دبابته إلى الوكر طفر، فاحتضنه ساعد المساعدة، اكتنفه عضد المعاوضة، وقبض على رسغه كف السلامة، فنكصت النصارى على عقبهم أمامه، ولم يزل وحده مبيدهم حتى قتل أوباشهم وصناديدهم، ثم أدخل رفقته فيها وأخرجوا ما كان فى مخائبها .

واسم هذا الرجل لهراست سة أحرف، ليس فيها غير متحركين اللام

مضمومة والهاء والراء مفتوحة، والألف والسين والباء، واجتماع ثلاث سواكن فى الفارسى كثير، وفى التركى أيضاً موجود، ولكنه عزيز غير عزيز، ومن جملة هذه القلاع لقعة شاهقة، جروف ذاتها محروف اسمها بمناعتها ناطقة، لا يعمل فى فتحها لارتفاعها لعلا وليت لأن اسمها كما زعموا كلكوركيت، أى تعال انظر ارجع بمعنى أنه لا ينال الوافد عليها سوى النظر إليها ثلاثة أطرافها، مبنية على فلك أكام شمخت على ما حواليتها من الهضاب، فهى على الأعلام أعلام، وطريقها من الوجه الرابع، وهو دقيق فى سلوكة عسر ينتهى بعد زواج المشقة، إلى جرف مقطوع بينه وبين باب ذلك الحصن جسر، إذا ارتفع ذلك الجسر سدت دون الوصول إلى الحصن الحيل، وأعاد كل من لاذ بقلته من بينه فصيح أن يقال له معاذ بن جبل.

فلما اطلع على حقيقة أمرها، وانكشف له مستور خبرها، أى أن يرحل عنها إلا أن يصل إلى غرضه منها، ولم يكن بالقرب منها مكان ينزل فيه ولا بر يحمل ذلك البحر الطاغى ويحويه، بل إنما كان حواليتها جروف وهضاب غصون جبينها، كأنها رجه شواء عجوز ناشز عن زوج محب عقاب، فطمع منها فى غير مطعم ونصب سرادقه، بحيث كان منها بمرأى ومسمع، وصار من عساكره السود الجوارى يتناوبون حصارها، ما بين وارد وصادر، وهم يرفعون الجسر بالنهار فيأمنون مكائد القتال والحصار، لأنه قد تقدم أنه لم يكن حواليتها مكان للقتال، ولا مفحص قطة يتمكن منه للنضال، فكانوا يرمونها بالنهار على بعد بسهام الأحداق، ويرضون منها بنظرة من بعيد كقناع العشاق، فإذا جهنم الليل شمروا إلى جهة مخيمهم الذيل، لأهم لم يمكنهم حواليتها مبيت، ولا مقتل فتضع النصارى الجسر، ويرمون إلى حاجاتهم

السبيل، فلما لاح له منها أمارات الحرمان، ويان له أن أمل ظنه من فتحها
قدمان كما قلت :

وأعظم شيء في الوجود تمنها نتاج مرام من عقيم زمان
صمم الغرمة على الرحيل، ولكن خاف العار فطلب لهذه المسئلة الدليل
والتعليل.

ذكر سبب أخذه لهذا الحصن المنيع وبيان معاني ما جرى في ذلك من صنع بديع

وكان في عسكره شابان نديدان أسدان جديدان، يتشبهان في الخلق
والخلق، لم يكن بينهما في الرجولية والشجاعة كثير فرق، يتحاربان في وقت
في ميدان المناقب لإتزاز قصب الصبق، فكانا كفتى ميزان وفي مضمارها
فرسى رهان، فاتفق أن أحدهما صادف علجاً من الكرج في الجرأة كالأسد،
وفي الجثة كالبرج، فنازله ثم قتله وقطع رأسه، وإلى تيمور حملة ففخم شأنه
وأعلى على الأقران مكانه، فأثر ذلك في نديده فكانه قطع حبل وريده، ثم
افتكر في شيء يصنعه، بضع من نديديته ويرفعه وكان اسمه بير محمد ولقبه
قنبر، فلم ير أكبر من مواقبة ذلك الجسر، ولا أشهر فاعتمد على الله سبحانه
وحده، واستكمل ما له من أهبة وعدة، ورصد نجمه في بعض الليالي، ولطا
في مكان خالي ولا زال يترقب النجوم ويتدبر عليهم طوابع الانقضا

والهجوم، ويشير ذلك الفتن بيديه ويذرع ويمشى تارة على بطنه وأخرى على أربع إلى أن طرح الضو نقابه، وسلخ الجو أهابه، ورجع النصارى إلى كسرهم وتعاونوا على رفع جسرهم طفر بير محمد إلى الجسر، فقطع حباله وتابع عليهم من جعبته نباله، ولم يمكنهم من رفعه ولا غير موضوعه عن وضعه.

فتراكموا عليه بالنبال والأحجار، وأسلموا عليه من ذلك السماء المدرار، ولا يرد عما هو بصده ولا يلتفت إلى حينه، ويتلقى ما يصدر من مراسيم نب الهيم وأحجارهم بالقبول على رأسه وعينه، ولم يزل على المكافحة والمناضحة والمكاشحة والمكالحة، حتى تعالى النهار، وعض الكون من فعالة أئمة العجب، وأخذ عين المكان الانبهار، وكان المحاصرون لها كفواً عن القتال، وتيمور قد عزم كما ذكر على الترحال، وكان سرادقه منصوبة بمكن عال، فذاده لسان الفتح وخاطبه منادى النجح لا تياسن من مطلب قطع الورى أسبابه أن أغلقوا أبوابهم، فالله يفتح بابه فتراءى على باب القلعة من بعد كان ناساً يتواثبون وسباح طائفة يتكالبون ويتضاربون.

فقال لقبيلة أى أولى النجدة والعون أنى أرى ما لا ترون، فانعموا معى النظر ثم أسرعوا نحو المعتكر، وأتوني بحقيقة الخبر فاندفعوا يستشرقون لذلك خبراً، ويستكشفون لسرائره سترأ، وهم ما بين عاد من النمر أعدى وجار من الأسد أجرى، وكل منهم فى عدوه وعدواته تأبط شرأ، ولم يزالوا يتجارون على ذلك أرسبالاً وتحرأ، كأنهم الشياطين نهاض ووثاب وعداء وهلم جراً، حتى أدركت مقدمتهم بير محمد، وهو فى غمرات الموت بناره يتوقد، وقد صار لسهامهم غرماً، وكاد جوهره أن يصير عرضاً، فلما رأهم من بعيد

عاش وحصل له الانتعاش، وزال عنه الارتعاش، وتلاحقت بهم الصناديد فكفت عنهم تلك الإفساد الرعادي، وحين عجزوا عن رفع الجسر وولوا الأعقاب عزموا أن يدخلوا الحصن، ويوصدوا الباب فاختلف بير محمد معهم، ودخل الحصن ومن إيصاده منعهم، فدقوه بالسيوف ورضوه بالحجارة الختوف، وهو يأبى إلا الدماغة ويجتهد فى مراجعة الممانعة، لا يشعر بما يناله من رض الحجر وجراخ الحديد، كأنه مثاله عراة الفناء فى الغناء فى التوحيد، إلى أن غشيتهم تلك الليوث، واندفقت عليهم بصواعق الغضب، من سماء النجدة سيول الغيوث، فتشبث أسود المنايا بتلابيبهم، وخلصوا بير محمد من مخاليبهم، ثم قبضوا على النصارى وأخرجوا مالهم فياء، وحرّمهم سبايا وأولادهم أسارى، وحملوا إلى تيمور بير محمد وأخبروه بما قصدوه فى ذلك، وتعمد وتفقد وأما به من جراح أدمى، فإذا هى ثمانية عشر جرحاً، كل منهما يصمى فشكر له فعله ووعد مواعيد جزله، وأحلّه المحل العزيز وجهزه إلى تبريز.

وأمر بعد الوصية به الأمراء من النواب والرؤساء أن يجمعوا عليه كل نطيس من الأطباء وخربت من الإساء، بحيث أن يبذلوا فى معالجته جهدهم، ويستوعبوا فى إساءة كدهم ويستوفوا فى المعالجة قسمى العلم والعمل، فامتثلوا مراسيمه وعالجوه، بمكا أمكنهم وأزاحوا العلل فاندملت جروحه وبرئت أحسن مما كانت قروحه، فلما نصل والى تيمور وصل جعل أحد قواده، ورئيس طائفة من أجناده، وقدمه على كثيرين، بعد ر كان خلف وصيره أمير مائة مقدم ألف.

تتمة ما جرى للكرج مع تيمور شيخ العرج

وهذه القلعة والمغارة كانت عيني قلاع الكرج وناراً أعلامهم، والبواقي سرج، فحين قلعت وجوههم عيناهم تيقنوا أن قد نزل بهم عناهم، وأحاط بهم عزاهم فانحلت قواهم وانحرمت عراهم، وقدعت بهم الحيلة وقامت عليهم القيامة وتجهمت بهم إلى جهنم الزبانية وأسلمتهم السلامة، تفال تيمور بحصول الفلج وانثنى عزمه إلى استخلاص ممالك الكرج، وانبثت شياطينه فيها فهزتهم هزاً، وقدت ثوب حياتهم قدماً، وجرتهم جرأ وخاطت لهم أكفان المنايا بالسلاح، فأوسقتهم شلا وكفا ودرزاً، وتلى عليهم لسان الانتقام، ألم ترانا أرسلنا الشياطين على الكافرين تأزهم أزاً.



ذكر طلب الكرج الأمان واستشفاعهم إلى ذلك الجاني بجارهم الشيخ إبراهيم حاكم شروان

فاستدركوا تقصيرهم واستنهضوا تدبيرهم ورقعوا خخرقهم قبل الاتساع، ووصلوا جبل حيوتهم قبل الانقطاع واستغاثوا الأمان الأمان، واستعانوا في خلاصهم بالشيخ إبراهيم حاكم شروان، وألقوا إلى أيادي تدبيره الزمام، ورضوا أن يكون بجماعتهم وإن كان على غير ملتهم الإمام، وجعلوه

خطيب ذلك الخطب، واستحلوا ما تثمر لهم سعائنه من يابس ورطب، وكان
إذ ذاك جيوش المصيف كجمع الكرج قد ولت، وجنود الخريف والشتاء
مجيش تيمور قد أظلت، وسلطان الأجرد قد صقل فرند المياه وجرد ورفع من
الأغصان الأعلام السلطانية، ونصب على فلك الجبال الصيوانات البلارية
وألبس متن الغدير من نسج نسيم الأصيل الذروع الداودية، فكان ما فى
الكون من جوامد نوام من جملة عساكر تيمور حام له أو محام قلت:

وإذا أراد الله نصرة عبده	كانت له أعداؤه أنصارا
وإذا أراد خلاصه من هلكه	أجرى له من نارها إلا نهارا
فترى العقول تقاصرت عن	كونه وترى له فى شوكة أزهارا

فدخل الشيخ إبراهيم عليه وقبل الأرض بين يديه، وحياه بتحية
الأكاسرة من الملوك، ووقف فى مقام أصغر من مملوك، ثم استأذن فى
الخطاب واستلطف فى رد الجواب، فأذن له فقال إن عموم شفقة مولانا الأمير
حسن حنوه على المسكين والفقير وشمول عاطفته الكريمة، ورحمته المنيفة
حملت المملوك على عرض ما عن له على الآراء الشريفة، وهو أنه بحمد الله
المرام حاصل والمراد على وفق الاختيار متواصل وهيبة مولانا الأمير فى الشرق
والغرب أغتته عن الاستعداد للضرب والحرب، ثم إن العساكر المنصورة أكثر
من أن تحصى وفيهم من الأسرى والمرق الحال، ما فات عن الإحصا
وخصوصاً جماعات التتار الذين ولى سعدهم الأدبار، وأحلوا قومهم دار
البوار، قد زضر بهم البرد، وتردد نقش حظهم بين العكس والطرد، فإن
استمرت الأمور على هذا الدستور، رق الجليل وهلك الرقيق، ودق العظيم
وانطحن الدقيق وهذه البلاد بل وسائر الاناليم، محال إلا بأمرك أن تسقيم

وأن رؤساءها من الفجرة والفسقة، علموا ما لمولانا الأمير على مملوكه من الخنق ولشفقة، فتراموا لعله المجاورة على المملوك، ورجوا من الصدقات الشريفة ما يرجوه من الغنى الكريم المحتاج الصعلوك، ومهما برزت به الأراسيم المطاعة تلقاه بالقبول كل من المملوك وهؤلاء الجماعة وقابلوا الأوامر الشريفة بالسمع والطاعة، وإن كان المقصود جمع مال فالمملوك يقوم به على كل حال، وأنى للمملوك مال إلا من صدقات مولانا الأمير، وما قصد المملوك بذلك إلا رفع الكلفة عن الجانبين وتيسير الأمر العسير، ورعاية لحق الجوار عملاً بقوله ﷺ ما زال جبريل يوصيني الجار والرأى الشريف أعلا وأحرى، أن لا يخيب رجاء المملوك وأولى، فأجابه إلى سؤاله وطلب منه مالاً عريضاً سواء كان من مالهم أو من ماله، فقال الشيخ إبراهيم أنا به زعيم، وأبلغ ذلك إلى خزانته أتم إبلاغ ثم رحل وأكمد شتوته فى قراباغ وذلك فى سنة ست وثمانمئة.

ذكر ثنى عناده إلى أوطانه وقصد بلاده

بعد استكمال فسادہ

ولما زينت ماشطة الكون عروس المكان، وأقام مزين الجمادان قوام الزمان، وتهيجت القوى النامية وتبرجت مخدرات الذرى السامية، وشبت الجمرات ودبت الحشرات، تحرك للرحيل ذلك الأفعى ونفت على هوام أموات الزمهير من أحياء عساكره، فإذا هى حية تسعى، فانعكس منها إيماض البرق

الخاطف، وعرض قبوله فى الثروس فأحاط بالأطواد ثوس قزح وسبر خيوله فى اللبوس فتجللت كئائب الكئاب، بشقف الورد والريحان خمائله فى ذلك البر المتزح ومارت الجمال، فمرت الجبال مر السحاب، وسارت الرعال فصعد العنان من النقع الضباب، وشرعت الذوايل فإذا رطب الأغصان متمايل، وهزهزت الفواصل فانساب فى الفصيل مرهف الجداول، ولضلضت السنة الخناجر والنيازك، فبرزت عذبات العذبات، ونشرت أعلام الكئائب فانبتت أشاهير الأزاهير، على عقيبات العقبات، وعلى الجملة فإن الربيع حاكى ببروقه بوارقه، وبرعوده صواعقه، وبخمائله ورواويه، زرايه وثماره، وبركامه قتامة، وبشقائقه أعلامه، وبأشجاره المزهرة خيامه، وبأغصانه رماحه، وبعواصف أمره ونهيه رياحه، وبكئائبه السود وكتبه الخضر وبأزهاره الزرق مزارقه الزهر، وبسيولة الجحافة مسير جحافله، وباضطراب بحر فيالقه تموج خمائله عند هبوب أصايله.

واستمر بين ذلك العرار والرند قافلاً بالبال الفارغ إلى سمرقند، فساروا لسرور نديمه والخبور خديمه، والأسر معاقره والنشاط مسامره، وبين التفريط والإفراط موارد ومصادره، حتى قطع ولايات أذربيجان وحل ركابه بممالك خراسان، وفى خدمته ملوك الأقاليم وأرباب التيجان.

ذكر نهوض ملوك الأطراف لاستقباله ووفودها عليه مهنية له بحسن ما ناله

ولما تسامعت أقطار البلدان أنه قفل قاصداً الأوطان، أقبلت إليه الملوك من أطرافها، والمرازية من أكنافها، وسارع إلى الاستقبال المدارة والمحتاج، وتبادر من وراء النهر وغيرها السراة والمراجع، وتطائر إليه من الأقاليم أساطينها ومن الولايات والثغور ملوكها وسلاطينها، ومن كان مرابطاً في ثغر، ومواظباً على أكيد أمر، أرسل إليه نائبه، أو قاصده أو حاجبه أو رائده، يتباشرون بقدم أقدامه ويهتئون بما فتح عليه من هذه، وعراقه ورومه وكرجه وشامه، ويقدمون التقدّم والحمولات ويهبون الضيافات والإقامات، ثم أردفهم السادات والعلماء والمشائخ والكبراء، ورؤساء الموايضة ومابذة الرؤساء، فجعل يسمت لكل واحد منهم سمتاً، ويأمره فيخضع بالسمع والطاعة إجلالاً وصمتاً، ويمهد له فيما ولاه قواعد ومبانى، فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم جهر كلا منهم بما اقتضاه رأيه، وأجازه ووصل إلى جيحون، وقد أعدت له السفن والمراكب فجازاه.

فخرج أهل المدينة للاستقبال، وكل منهم منشرح البال، ملثم الحال، فدخل سمرقند أوائل سنة سبع وثمانمائة، ومعه من طوائف الأمم الاثنان وسبعون فرقة، وأكثرهم قدرية ومرجية، ثم أذن لمن احتاره من العساكر فنفرت، ولطوائف جند ما وراء النهر فتمزقت.

ذكر توزيع التتار أرسالاً شرقاً وغرباً ويميناً وشمالاً

فلما استقرت به الدار أخذ في توزيع التتار، فكانوا ذوى عدة وعدة ونجدة وشدة، فحين سلبهم عدتهم كسر شوكتهم وشدتهم، ولكن أبقى الله عدتهم فخاف لذلك نجدتهم، فشئت جمعهم وأقوى من اجتماعهم ربهم، فبذرهم في فياف وبطاح، ووزعهم في قفار وضواح، وبددهم في أشطار عناء وبراح، ونددهم في أقطار بكاء ونواح، فسدد برءوسهم أفواه الثغور، وأوصد بظهورهم أبواب النحور.

فجهز طائفة إلى كاشغر وهو بين حدى الخطا والهند أحد الثغر، ووجه فرقة إلى دويرة فى وسط بحيرة تدعى أسى كول، وهو ثغر بين ممالك تيمور والمغول، فصادفهم بعض السعد فانقطعوا عمن أخيفوا إليه، كما تنقطع عما يضاف إليه بعد، فانبضوا منهزمين ولم يلووا، وأخذوا من صوب الشمال وخرجوا على الدشت إلى إيدكوا، ثم أضاف سائرهم وقبائلهم وعشائرهم، من كل حزين أو اه إلى أرغون شان، وجهزه بعزم وحزم إلى ثغور الدشت، وحدود خوارزم، وهذا كان هجيريه وما بنى عليه أوامره وأمره، فإنه كان من الشياطين والنقالة، وفى المكر واللعب بالناس كدلة المحتالة كلما بنى فى قطر قلعة، أو استولى من العساكر من هو أقصى جهات تقابلها من الحصون والدساكر، ونقل إليها من لها من الرجال، إن كان فى الشمال إلى اليمين، وإن كان فى الجنوب إلى الشمال.

فإنه لما استولى على ملك تبريز وما والاها، استتاب فيه ولده لصلبه أمير

إنشاء وأهده من الجغتاني بطائفة غلاظ شداد منهم خدايداد أخو الله داد، ونقل إلى أطراف الخطا وتركستان طوائف من عسكر العراقيين والهند وخراسان، وولى سماقة ابن التكريتي الذي أخذه من الشام نيابة مدينة سيرام، وهى من سمرقند إلى جهة الشرق، نحو من عشرة أيام، وولى يلغا المجنون نيابة ينكى تلاس وراء سيرام، بنحو أربعة أيام، وهما كورتان مختصرتان وراء سيحون من معاملات تركستان، وهما كانا أقل من أن يذكرنا فضلاً أن يصيرا حكاماً وأمرأ، وإنما فعل ذلك ليتشر فى أطراف الممالك أن عنده من رءوساء الشام جماعة من أعيان الأعلام، وأن فى ممالكه من الخدم رؤساء الأمم حكام العرب والعجم، وإن ذلك الطرف جال وسطا وملك ما بين الشام والخطا.

فصل

ثم أخذ يتفقد ما حدث فى غيبته من أمور بلاده ورعيته، ويتفحص عن قضايا الممالك ويسلك لملوكها المسالك، ويدبر مصالح الأطراف والشعار والأكتاف والبحور، ويراعى أحوال الكبير والصغير، ويتعاطى مصلحة الغنى والفقير، ويضع الأشياء فى محلها وزمام الوظائف والمناصب، فى يد أهلها ويبادر بما قال الشاعر:

لله درا وشروان من رجل ما كان أعرفه بالوغد والسفل

نهامهم أن يمساوا عنده قلما وأن يذل بنوا الأحرار بالعمل

وأخذ يربى السادات ويكرم الأولياء ذوى الكرامات، ويجل العلم وأهله ويعلى الفضل ويعز محله ويقلع المفسد، وتقمع المارق ويخنق الزانى ويصلب السارق، حتى استقامت فى زعمه أمور السياسة، وتمت على توراة جنكيز خان قواعد الرئاسة.

ذكر ما ابتدعه من منكرات وطبع بخاتمه خواتيم سيئاته ووافى باستيفائه رائد وفاته

ثم شرع فى تزويج حفيده، أى ولد الولد أولوغ بيك ابن شاه رخ
البنية، الذى هو فى يومنا هذا أعنى سنة أربعين وثمانمائة حاكم سمرقند من
قبل أبيه، فأمر أهل المدينة أن يشرعوا فى الزينة، وأن يرفع عنهم الكلف
والمظالم ويعفى من الطروحات والمغارم، ويبسط لهم بساط الأمان، ويعامل
الكبير والصغير والرفيع والوضيع منهم بالفضل والإحسان، وأن لا يشهر فى
ممالكه سيف ولا يجرى فيها ظلم ولا حيف، وأن يخرجوا زيتهم إلى مكان
نحو ميل من ضواحي سمرقند، يدعى كان كل هواه أذكى من المسك، وماؤه
أحلى من القند، كأنه قطعة من روض الجنان غفل عنها خازنها رضوات..
قلت:

رعى فيه غزال الترك شيحا فسار المسك بعض دم الغزال
روائح هوائه ألطف من نسيم السحر، ورواشح مائه أعذب من ماء
الحياة، صفاء بلا كدرة، وتغاريد طيوره ألد فى السماع من لسان الناي على
الوتر. قلت:

بساط زمرد نثرت عليه من الياقوت ألوان الفصوص
وقيل:

كان مدور الأزهار فيه وورداً فى محاسنه تنضد

صحاف من لجين أو عقيق ومرجان وياقوت وعسجد

فهذه حشوها مسك فتيت، وهذه ضمنها تبر مبدد

أراد الروض يجلوها علينا فصاغ لها أكفًا من زبرجد

صباغ القوة الخيالية تعلم خلط أصباغ النقوش من تشاهير أزهيره،

ومواشط عرائس الجمال تزين عواتق الكمال، من تحارير تصاويره. قلت:

كان رباه سيما وقت هبة خضم بأنواع الحللى مرصع

أفسح من أمل حريص طامع فى جاه غنى كريم نافع وأنزه الأبصار

والبصائر من غض شباب زاه زاهر، ساعده الدهر بوجه بسيط وأدب كامل

وعمر طويل ومال وافر، وهو أحد الأماكن المذكورة والمنزهات التى هى

بالنزهة والرفاهة فى الدنيا مشهورة، ومبداء السعد الذى جهاته بالنعم موقرة

وموفرة. قلت:

شقائقه حدود ناضرات تحشت من سواد المقلتين

عساكر تيمور مع أنها البحر المتلاطم فيه تضاهى بنى إسرائيل فى قطر

من أقطار التيه، ثم أمر الملوك والسلاطين وأرباب التيجان من الأساطين، أن

يخرجوا إليه وينبثوا عليه وفرز لكل منهم فى ذلك المرج مقامًا، وربة ميمنة

وميسرة ووراء وأمامًا، وأمر أن يظهر ما أمكنه من تجميل وتحسين، ويضرب

ماله من خيام وقباب متكلفة بأنواع النقوش والتزيين، ثم رتب من ذونهم من

الكبراء والأعيان ورؤساء الأمراء والأعوان، فى ذلك الروض الرىض والمرج

الطويل العريض، فأخرج كل منهم ما حواه كايى نظراء، لينظروا ما قدمت

يده، وفاخر ذوى الفخار منهم، وباهى واستقصى فى المباهاة والمفاخرة

وتناهى ، فنشروا مما طوت صحائف أيامهم على جمعهم إياه سجلات آثامهم من طرف أطراف الأقاليم والأمصار، وتحف جواهر المعادن والبحار، ونفائس ذخائر نهبوا عليها النفوس وألهبوا الأنفاس وعرائس أخاير سقوا عليها الكئوس وخرقوا الأكياس، ما أزهى على زهر تلك الروضة الخضراء بالاً، نجم الزواهر وأسرى منظره البهيح، سرايا المسرات إلى سر السرائر، فزاد حسن حديث ذلك المكان ونمى، وعلى قدرة بهجه على كل أرض وسما.

ثم أمر بسراداته فجعلت مركز تلك الدارة ونقطة دائرة تلك الأفلاك المدارة، وهى سود محيط مضروب على ما له من خيام وقباب، منصوب له باب واسع يدخل فيه من دهليز شاسع، إلى ما به من معان ومغان، وله قرنان سامخان تنكسر لهما الرءوس، وتذهل عند مشاهدتهما النفوس، ولأجل هذين كان يلقب ذا القرنين، ونصبوا له داخل هذه الجنباب عدة من الخيام والأخبية والقباب، ومن جملة قبة أعلاها وأسفلها بالذهب مزركش، وظاهرها وباطنها بلب الريش مريش، وأخرى كلها بالحرير محبوكة، وبأنواع النقوش والألوان الأصباغ مبنية مشبوكة، وأخرى من فرقها إلى قدمها مكللة بالآلى الكبار، التى لا يعلم قيمة أحدها إلا عالم الأسرار، وأخرى مرصعة بأنواع الجواهر على صفائح الذهب، مدهشة الأبصار والبصائر، وجعلوا لما بين ذلك سقفاً من فضة، ومعارض عليها يظهرون وليوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون.

وبين ذلك الأوراق المنقشة، ورواقات الأخبية المزركشة، والفساطيط والأبنية المدهشة، وفيها مراوح الخيش الجالبات لبرد العيس والمنافع، والمرافق والمفاتح والمغالق، وأظهروا الذخائ الغريبة وأرخوا على ذلك الستائر العجيبة،

ومن جملتها ستارة جوخ كان أخذها من خزانة السلطان أبى يزيد قطعة واحدة عرضها نحو من عشرة أذرع بالذراع الحديد، منقشة بأنوا النقوش من صور النباتات والبنيان والعروش، وأشكال الهوام والطيور والوحوش، وأشخاص الشيوخ والشبان والنساء والصبيان، ونقوش الكتابة وغريب البلدان والعروق اللاعبة، وغرائب الحيوان بألوان الأصباغ المبالغ فى أحكامها وإجادتها أحسن إبلاغ، كان صورها متحركة تناجيك، وثمارها الدانية لاقتطافها تناديك.

وهذه الستارة أحد عجائب الدنيا، وليس المستمع كالمراى، ونصبوا إمامة سرادقاته بقدر شوط فرس الصيوان الذى يجتمع المباشرون فيه وأرباب الديوان، وهى جتر على الذرى، شامخ فى الهوى، له نحو من أربعين أطوانة وعواميد وأسوار شيدوا عليها أركانها، وسددوا بنيانها، يتسلى الفراشون إلى أعلاه كالقردة، كأنهم مسترقوا السمع من الشياطين والمردة، ويتعادون على سطحة حين يرفعونه بعد بطحه.

فصل

وأخرج أهل المدينة ما عبوه من تجميل وزينة ونصبوه تجاه تلك السرادقات على مد البصر، وتأنق كل واحد من أهل البلد، بما وصلت إليه القوى والقدر، واجتهد كل ذى حرفة بما يتعلق بحرفته، وبالع كل من أرباب الصنائع فيما يليق بصنعتهم، حتى إن ناسج القصب أخرج فارسًا مكمل الأبهة، واستقضى فى كمال هيئته حتى أطافيره وهديه، واستوفى دقائق ما يتعلق به من الآلات كقوسه وسيفه، وسائر الاستعدادات كل ذلك من القصب، ورفع ذلك من مكانه من غير تعب ونصب، وصنع القطانون من لقطن مدينة رفيعة محكمة بديعة، ذات قدر شيق وصنع وثيق ومنظر أنيق

ببياض جسم يسموا على الحور، وكمال قوام يعلوا على القصور، ونصبوها فصارت بحسنها تستوقف النظارة، وبعلو قامتها يرشد فى ذلك المهمة المارة، حتى غدت علمًا للسيارة، وعلى جوامع تلك الأبنية منارة، وكذلك أهل الحرف من الصواغين والحدادين والخفافين والقواسين، وسائر الطوائف وأرباب الملاعب واللطائف، ولقد كانت سمرقند مجمع الأفاضل، ومحط رجال أهل الفضائل، فرتبت كل طائفة ما أخرجته على حدة فى مكانه أمام سرادقاته وصيوان ديوانه، ونصبت وراء ذلك كله الأسواق، وضربت بين الناس بوقات الأبواق، وزينت الفيول وجياد الخيول بأفخر لباس، وأطلقت عنان الرخص والتمتع بأنواع الملاهى والملاذ للناس، فسارع كل طالب إلى مطلوبه، واجتمع كل محب منهم مع محبوبه؛ من غير أن يتعدى أحد على أحد، أو يستطيل أعلى من يكون على أدنى من يكون من الجند وأهل البلد، أو يجرى تعد من شريف على وضيع.

فصل

ولما استببت الأمر على مُراد تسويل قريته، وأخذت الأرض زخرفها وازينت من جنده وأهل مدينته، توجه إلى ذلك المرج على وقاره وسكيتته، وخرج على قومه فى زنته، ثم أمر أن يجرى يواقيت الصهباء على زبرجد ذلك المرج الأحوى، وسيلها لكل ناظر وعام، فسبح فى تيارها كل خاص وعام، فدارت فى سماء تلك الأرض للسرور أفلاك، وهبطت فى أفقها بوحي اللذات من أفلاك الملاحاة أملاك، فأصبحت تلك الأسود الخوادر وهى ظباء جوارد وتنزلوا من جعجيم المنازلة إلى نعيم المغازلة، وتبدلت تلك الغلاظة والكتافة باللطافة والظرافة، وأصبحوا بعد جوارهم يتجاورون، وبمعنى ما قلته يتحاورون:

محي الظلم من بين الوري اسم عدلنا

فلم يثبت مستغيث بمعد

سوى قلب صبي صاده طرف أحور

وخصر نحيل أده ردف أغيد

فما صار يصول سيف إلا أن كان صارم لحظ، وهو مع ذلك مكسور
ولا يجول ذابل إلا أن كان رمح قد، وهو مع ذلك بالعناق مهصور، وصرت
لا ترى إلا عودًا يحرك، أو يحرق أو قدحًا يروب، أو يروق أو شاديًا يغرد،
أو شاردًا يعربد، أو جارية تسقى أو ساقية تجرى، أو خد ورد ينشق، أو
أوورد خد يعشق، أو كأس ثغر يرشف، أو غصن خصر للعناق يقصف، أو
فرص عيش تغتنم، أو لسان حال ينشد ويترنم.

فى ربيع الوصل لما أن وفى ظبى الشـرود

وسرت بشرى الصبا للروض تنبى بالورود

جرت الأنهار والأغصان مالت للسجود

واجتمعنا فى ريار حسنـها يسبى الوجود

فالسحاب أنصب فيها بالـحشا أمسى وجود

نثر الدر علينا منه بلور الغـمام

فوق صحن سندسى فيه بالياقوت حام

وثغور من عقيق زانها تحسن ابتسام

وعيون من عين ناظرات لا تنام

وغصون الدوح حفتنا بأنواع النقرود
طيرها فيه عنا إذا علا عوداً وطار
وشذاها ضاع فيه المك لما منه غمار
والصبا أمسى علينا ربها حين سار
جنة الفردوس فيها وجه بدرى حين نار
أصبحت جنات عدن تشتهى فيها الخلود
يا لها من عشرة جاءت بأنواع الهنا
ليس فيها غير لثم وارتشاف واعتنا
وكـؤوس دائرات وغناء وغنا
لو رآها زاهد من ربحها كان انثنى
لم يسعه عندها من رهده إلا الجحود
قم نديمى عاطنى فالدهر لا يسوى الحزن
كأس عيشى ينمحي فى مزجها صرف الزمن
الطلا والماء والخضرة والوجه الحسن
لا تطع فى ذا عدولا أنه خب كـمن
فى حشاه غليان لا تفل خل ودود

فحصل الأمن والدعة والفراغة والسعة، ورخص الأسعار وقضاء
الأوطار واعتدال الزمان، وعدل السلطان وصحة الأبدان، وصفاء الوقت
وذهاب المقت وحصول المطلوب ووصال المحبوب .

وعند التناهي يقصر المتناول

واتفق له فى ذلك العرس من الأبهة والعظمت والسطوة والجبروت،
شئ لم أظنه حصل لأحد من الخلفاء المتقدمين، ولا يقع فيما بعد لأحد من
التأخرين، وإن كان المأمون فرش تحته ليلة عرسه حصير من الذهب، ونثر
على رأسه اللولو المنتخب، فلم يلتفت إليه ولم يلتقط من ورائه، ولا من بين
يديه، حتى قال قاتل الله أبا نواس كأنه كان حاضراً حيث قال:

كان صغرى وكبرى فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

لكن تيمور كان فى عرسه ذاك بنات الملوك وصائف، وبنوها عبيداً كل
منهم فى مقام العبودية واقف، واجتمع عنده قصاد الملك الناصر فرج من
نصر والشام، ومعهم الحمل والتقادم، ومن جملة الزراف والنعام، ورسل
الخطا والهند والعراق والشدت والسند وبريدى الفرنج ومن سواهم، وقصاد
كل الأقاليم أقصاهم وأدناهم، ومن كل مخالف ومرافق ومعاد ومصادق،
فأخر الجميع حتى شاهدوا عظمتهم وعابنوا جبروته فى ذلك العرس وأبهته،
فباشر ذلك على تلك الحال، لا يخاف النكال ولا يخشى الويال. قلت:

قرير العين لا يرجوا إلهاً خلى البال لا يخشى معاداً

يتناول الحرمات ويبيحها ويروح عنده مستهجنها وقبيحها، مهما أمر به
جماعته فى ذلك امثلوا، يتباهيون فى كل قبيح عملوه، ولا يتناهون عن
منكر فعلوه. قلت:

تبدل من سفك وهتك جريمة أحل بها ما حرمة الشرائع

وجعل يدعوا الملوك والأمراء وسلاطين الآفاق والكبراء وقواد التوأمين

وزعماء الجيوش والمقدمين، ويسقيهم الكاسات بيده ويحل كلا منهم محل أخيه وولده، ويخلع عليهم الخاق السنية، ويجزل لهم المواهب والعطية، ويجلس كلا منهم بحسبه ذات اليمين، وأما ذات الشمال فإنها للنساء والخواتين، فإن النساء لا يسترن من الرجال، خصوصاً في مجلس الاجتماع والاحتفال.

واستمر في ذلك بين جنك وقانون وعد وأرغنون وناى مرقص طرب وشاد معجب معرب، وساق فاتن ودهر موات وهوى متبع وأمر مستمع، وشمس تدور على نجوم وبدور، وكأس تملأ كيس يفرغ، وأمر يمضى وأمل يبلغ، حتى استخفه الطرب والبطر، واستفزه النشاط والأسر فضيع إلى من استعذه ومد للنهوض إليه يده فتعاضدوا لمعاونته وتعاونوا على معاضدته، وحي استوى قالصاً تهدى بينهم بشيئته وعرجته راقصاً. قلت:

ومن عجب الدنيا أشل مصفق وأبكم قوال وأعرج راقص

فشر عليه الملوك والكبراء ونساء السلاطين والأمراء الجواهر والآلى والفضة والذهب، وكل نفيس غال، ولم يزل على ذلك حتى استوفى من اللهو حصته، ودخل العروس منصته وانقضت تلك الأمنية، وتفرقت هاتيك الجمعية.

ما كان ذلك العيش إلا سكرة لذاتها رحلت وحل خمارها

فصل

ولما بلغ من دنياه المرام وانتهى ليله إلى الكمال والتمام، وعرج فيما يرومه إلى ما عرج وصعد فى سلم ارتقائه إلى أعلى الدرج، وقارب بدر

عمره الأفلول وشمس حياته أن تزول ، رشقه الزمان بسهم أصماه فما أنمى ،
 وناداه بلسان فصيح ، لو سمع فرع العرس يا بيت الإحماء قلت :
 وما الدهر إلا سلم فبقدر ما يكون صعود المرء فيه هبوطه
 وهيهات ما فيه نزول وإنما شروط الذى يرقى إليه سقوطه
 ومن صار أعلى كان أوفى تهشما وفاء بما قامت عليه شروط
 فأفاق من سكره وعاد إلى عسكره وأرعوى وما أرعوى ، وعلم أنه أضل
 قومه وما هدى ، ورأى أنه قد فرط فى أمر الرئاسة وخط من جانب الأيالة
 والرئاسة ، وأنه سام الملك خسفاً وسائس السلطنة وجد عليه مائة طريق فى
 التقصير والفا ، فأخذ يتدارك ما كان فرط ويطلب التقضى عما فيه تورط .



ذكر بعد حوادث مقدمة لتعلقات ذلك العايب

وكان تيمور قد رأى فى الهند ، جامعاً للبصرة مرتعاً وللبصر راتعاً ،
 عرشه فى حسن بنائه ، ونقشه من الرخام الأبيض كبساط فرشته ، فأعجبه
 شكله ، وأراد أن يبنى له فى سمرقند مثله ، ففرز لذلك مكاناً فى فرز ، ورسم
 أن يبنى له جامع على ذلك الطرز ، وأن يقطع له أحجار من المير الصلد ،
 وفوض أمره إلى رجل يقال له محمد جلد أحد أعوانه ومباشري ديوانه ،
 فاجتهد فى بنيانه وتشبيد أركانه ، واستقصى جهده فى تحسينه من تأسيسه
 وتركيبه وترتيبه وتزيينه ، وأعلى له أربع ميادين وتناهى فيه أئمة ابنانين

والأستادين، وظن أن لو كان على ذلك أحد غيره، لما قدر أن يصنع صنعة ويسير سيره، وأن تيمور سيشكر له صنعه ويتزله عنده بذلك منزلة رفيعة، فلما آب من سفرته وتفقد ما حدث في غيبته، توجه إلى الجامع لينظر إليه.

فبمجرد ما وقع نظره عليه أمر بمحمد جلد فآلقوه على وجهه، وربطوا رجليه ولا زالوا يجرونه، وعلى وجهه يسحبونه حتى يضعوه على تلك الحال، واستولى على ماله من أهل ولد ومال، وأسباب ذلك متعددة ومعظمها أن الملكة الكبرى امرأة تيمور العظمى أمرت ببناء مدرسة واتفق المعمارية وأهل الهندسة أن تكون في مواضع مقابلة لبناء هذا الجامع، وشيدوا أركانها وسددوا بنيانها، وعلو على الجامع طباقها وحيطانها، فكانت أرسخ منه تمكيناً وأشمخ منه عريناً، وتيمور كان نمرى الطبع أسدى الوضع، ما تكبر عليه رأس إلا شدخه، ولا تجبر عليه ظهر إلا فضحه، وكذلك كلما أضيف إليه أو عول في النسبة عليه، فلما رأى قامة تلك المدرسة طالت وعلى قد جامعه الجبير ترفعت واستطالت، نغل صدره غيظاً، واشتعل وفعل مع مباشر ذلك ما فعل فلم يصادفه فيما أمله سعد، وهذه الحكاية متقدمة لما ذكره بعد.

نكتة

كان هذا الجامع كصاحبه أحاطت، أوزار الأحجار بجوانبه، وثناقلت على عواربه ومناكبه، ودقت عنق طاقته عن حملها ورقت، وتلا لسان سقنه إذا السماء انشقت، وما أمكن تيمور الاشتغال بهدمه، ثم إحكامه ونقض بنائه، واستيفاء إبراهيم فطوى ثوب عمارته على غرة، واستبقى خشب أخشبه على وهنه وكسره، لكن أمر خاصته وذويه أن يجتمعوا ويجمعوا فيه، واستمر ذلك في حياته وبعد وفاته، فكان إذا اجتمع الناس فيه للصلاة، يرتقبون من تلك

الحجارة ما يهبط من خشية الله وصار ملك الجبال فى تلك المحلة، يتلو واد
نتقنا الجبل نسوقهم كأنه ظله، ففى بعض الأحيان وقد غص بالناس ذلك
المكان، وأخذ كل منهم حذره سقط من حجارتة من أعلاه شذره، ففر كل من
كان جائئاً وانفضوا إلى الأبواب وتركوا الإمام قائماً وكان من جملتهم الله داد
أحد الأكفاء والأنداد، فلما اطلعوا على حقيقة الخبر تراجعوا، وزال عنهم
الخور، فلما قضوا الفرض وانتشروا فى الأرض، قال لى الله داد وكان من
الدهاة ذوى الكياد والأذكياى النقاد، له حوالى كعبة المخازى مائة شوط وألف
طوف، ينبغى أن يلقب هذا الجامع بمسجد الحرام، والصلاة فيه صلاة الخوف،
وقال لى الله داد، وقد فهم معنى هذا الإنشاد، وينبغى أن ينشد فى شأن هذا
المعبد، ويكون رقم طرازه ونقش صدره ومجازه قول الشاعر:

سمعتك تبنى مسجداً من جناية وأنت بحمد الله غير موفى
كمطعمة الأيتام من كد فرجها لك الويل لا تزنى ولا تتصدقى

فصل

ولما كان تيمور ببلاد الروم يصول، كان استخلاص ممالك الشرق فى
فكره يجول، وقد ذكر أنه أرسل إلى الله داد يستوصفه أوضاع تلك البلاد،
ولما اذكتفت له أحوالها وتبينت له قراها، ومضافاتها وأعمالها حتى شاهدها
عن بصيرته، واستقرت كفييتها فى سر سريرته جهز لتلك النواحي رءوس
هاتيك الضواحي، ومن جملتهم بيردى بيك وتنكرى بيردى وسعادات وإلياس
خواجة، ودولة تيمور مع زيادات، وأضاف إليهم طوائف، وأضاف إليهم من
الأجناد، ورسم أن يتوجهوا كلهم إلى الله داد، وأن يجهز الله داد أمره
ويتوجهوا، فبينوا قلعة تدعى باش خمرة، وهى عن إشبارة نحو من عشرة

أيام، ومن متعلقات المغول الطغام، وكانت أمورهما اضطربت ولكونها متنازعة بين مملكتين خربت، فتوجهوا إلى تلك الدارة بالعساكر الجرداء، واشتغلوا على غير عادتهم بالعمارة، وكان توجه هذه الفية في أواخر سنة ست وأوائل سنة سبع وثمانمائة، وقصد بذلك أن تكون لهم معقلاً وعند توجههم إلى الخطا وإيابهم ملجأ وموتلاً.

فلما أحكموا أساسها وصنفوا أنواع بيوتها وأجناسها، وضعوا من حجار الأساسات أقدامها، رفعوا على أعلام الأسوار أعلامها، أرسل إليهم مرسوماً أنهم يرجئون أمرها، ويتناسون ذكرها، ويأمرهم فيه الرجوع والاشتغال بتغليق البلاد بالزروع، بحيث إن فقهاء الدرس والدياس من أهل القرى والأمصار والمستغلين بفقه المزارعة والمساقاة من فلاحى الأنجاد والأغوار، وأهل الزرداقات والأكاراة من حدود سمرقند إلى إشبارة، يتركون مسائل المعاملة والمبايعة، ويكررون البحث قولاً وعملاً في درس المساقاة والمزارعة، ويؤذن في جماعتهم أن يقيم كلا منهم في الزرع صلاحه، وإن اضطروا أحدهم أن يترك صلاته، فالخذر أن يترك فلاحه، ورام بذلك أن يكون لهم في سفرهم عتاداً، وأن نقص لهم في الدرب قضيم وخصيم زاداً، فتراكوا العمارة وقصد كل من الأمراء دياره، واشتغلوا باستخراج البقر والبدار، واشتغلوا في إحياء جميع الموات، كما رسم وأشار فما فرغوا من ذلك إلا وقد طوى المصيف بساطه، ونشر رائد الخريف على العالم أعلامه وأنماطه.



ذكر عزمه كما كان على الخطا ومجيئه سكرة الموت بالحق وكشف عنه الغطا ثم انتقاله من سفره إلى سقره

فلما أفاق أخذ فيما كان عليه من التوجه إلى الآفاق، وقصد الحواشي والأطراف واستخلاص الممالك والأكناف، وصرف عنان الذهاب نحو الخطا على عادته، وكان ذلك عين الصواب فأرسل إلى أمم عساكره أن يستوفزوا ويأخذوا أهبة أربع سنين أو أكثر ويتجهزوا، فلبت كل أمة دعوة رسولها وشنت بأقراط مراسيمه أذان قبولها، وحمل كل أسد جوزاء عتاده، وامتطى جدى بغيه، واعتد كل ثور سنبلة زاده ودلو سقيه، ودب كل عقرب منهم دبيب السلطان، وانسابوا انسياب الحوت في بحار العدوان، مجازفين مظالم العباد بلا كيل ولا ميزان، فأبرد هلال القوس سهم برده بمرسومه إلى كل صماخ، يخبر أن جند الشتاء على عالم الكون والفساد أناخ، فليستعد له الكفاة وليحذر العراة والحفاة، ولا يكتفوا في كفه بكافاته، فما كل كاف له كفواً لأنه في هذه المرة آية من آيات الله، فلا تتخذوا آيات الله هزواً، وإن قصده بقدمه تبريد الأنفاس وتشويط الأنوف والأذان وإسقاط الأكارع وقلع الرأس.

وإن فصل الخريف رائد جنوده، وقائد بنوده، وأتمودج طلعتة ومرى عين غلته، وعنوان مكاتبته ومقدمة كتيبته، ثم زمجر بعواصف رماحه الباردة، وخيم على العالم بخيام غيومه الصادرة والواردة، فارتعدت الفرائص من رثيره. ولأن كل من الحشرات بقعر جهنمه، خوفاً من زمهريره وخمدت

النيران وجمدت الغدران، وارتجفت الأوراق ساقطة من الأغصان، وخرت على وجهها الأنهار جارية من الأنجاد إلى الأغوار، وتخيست الأسود في أخياسها، وتكنست الظباء في كناسها، وتعود الكون من آفته، واصفر وجه المكان من مخافته، واغربت حدود الرياض وذبلت قدد الغياض وراح ما كان بها من النضرة والارتياح، وأصبح نبات الأرض هشيماً تذروه الرياح، فاستسمح تيمور لفظات هذه السمات، واستبرد نفثات هذه لانفحات، وأمر بإعداد لبوس القباب واستعداد برkestوانات الجباب، واتخذ لصفاح الجمد، ولسهام البر من المبطنات الدرق، وم الفراء الزرد.

ثم ضاعف للملاقة الشتاء مضاعفات للباس وأفرغها على قامة غرمه الثاقب، وأمدّها من كافات كفايته بإتراس، ولم يلتفت إلى كلام وملام، واستكفى أمن الشتاء ما لبسه وأعدّه من كل كاف ولا م، وقال لعسكره لا تكثرثوا بأمر الشتاء فإنما هو برد وسلام.

وحين اجتمعت عساكره والتأمت أموره وأوامره، أمر أن يصنع له خمس مائة عجلة، وتضبيب بالحديد ليحمل عليها ثقله، فبادر الشتاء خروجه بالدخول، وأورد بانقطاع جرایة عمره من ديوان الفناء الوصول، فبرز في شهر رجب وقد أصبح البرد عجبا وأى عجب، وسار لا يرق لمرق ولا يرثى لجسد من البرد محترق، فوصل في سياحته إلى سيحون، وقد تجمد وبنى عليه رائق النسيم الصرح الممرد، قلت قديماً:

على البحر عاينت جسراً ممدداً . بتاه إله العرش صرحاً ممردا
بكيت فخلت الدمع في جنباته رقيق رحيق في زجاج تجمدا
فعبره ومر ومضى على ذلك، واستمر وتمادى على لجاحه وأصر، فدمر

الشتاء عليه بالدمار وانحط عليه من الجوانب بكل إعصار فيه نار وحطم بكل
نكباء صرصر، وضرب بنات عسكره بصرة طول فيها وما قصر، وهو بذلك
الجمع الكثير يسير لا يحن لأسير ولا يجبروهن كسير يسابق البرد بردة،
ويجارى أحده بجرده مرده، فجال فيهم الشتاء بجراجف عواصفه وبث فيهم
حواصب قواصفه، وأقام عليهم نائحات صراصر، وحكم فيهم زعازم
صابره، وحل بناديه، وطفق يناديه: مهلا يا مشوم ورويداً أيها الظلوم
الغشوم، فإلى متى تحرق القلوب بنارك وتلهب الأكباد بأوامك وأوارك، فإن
كنت أحد نفسى جهنم، فإنى أنا ثانى النفسين ونحن شيخان، اقترنا فى
استئصال البلاد والعباد، فأنحس بفران النحسين، وإن كنت بردت النفوس
وبردت الأنفاس فنفحات زمهريرى منك أبرد، أو كان فى جرائدك من جرد
المسلدين بالعذاب فأصماهم وأصمهم، ففى أيامى بعون الله ما هو أصم
وأجرد فوالله لا خابيتك، فخذ ما أتيتك ووالله لا يحميك يا شيخ من برد
المنون لواعج جمر مجمرة، ولا واهج لهيب فى كانون، ثم كال عليه من
حواصل الثلوج ما يقطع الحديد، ويفك الزرد وأنزل عليه وعلى عساكره من
سماء الزمهرير من جبال فيها من برد، وأرسل عواقبيها زوابع سوافيه،
فحشتها فى زدانهم وأماقيهم ودستها فى خياشيمهم، فاستقبلت بها نزع
أرواحهم إلى تراقيهم، وجعلت تلك الريح العقيم ما تذر من شىء أتت عليه
إلا جعلته كالرميم.

وأصبحت مشارق الأرض ومغاربها من الثلوج المنقضة كأنها بر عرضيات
القيامة، أو بحر صاغه الله من فضة، فكانت إذا بزغت الصقعا ولمع الصقيع
ترأى شىء عجيب سماء من فيروزج وأرض من بلور ملاء بينهما شذور

لذهب، فإذا هبت فيما بين ذلك والعياذ بالله نسمة ريح على نسمة ذى روح،
أخمدت نفسه وجمدته على فرسه، وكذلك الجمال حتى أتت على كل مرق
الحال وانتهى الشأن إلى أن طابت النار ورداً وصارت لواردها سلاماً وبرداً،
وأما الشمس فإنها ارتجفت وجمدت عينها من البرد ونشفت وصارت كما
قيل:

يوم تود الشمس من بردها لو جرت النار إلى قرصها

وكان الرجل إذا تنفس جمدت أنفاسه على سباله ولحيته، فيصير كأنه
فرعون، وقد رصح لحيته بحليته وإن لفظ من فيه نخامة عاقدة، لا تصل إلى
الأرض مع ما فيها من الحرارة، ألا وهى بندقة جامدة فانكشف ستر الحياة
عنهم، وأنشد لسان حال كل منهم

فيا رب إن البرد أصبح كالخا

وأنت بحالى عالم لا تعلم

فإن كنت يوماً مدخلى فى جهنم

ففى مثل هذا اليوم طابت جهنم

فهلك من عسكره الجم الغفير وأتى الشتاء على كبير منهم وصغير
وشاط منهم أنوف وأذان، وسقط وانحل عقد نظامهم وانفرط، ولا زال الشتاء
ويهب يصب عليهم ريحاً وبحاراً حتى أغرقهم فيها، وهم عاجزون حيارى
ونودى عليهم مما خطيئاتهم إغرقوا فأدخلوا ناراً، فلم يجدوا لهم من دوز الله
أنصاراً، وهو مع ذلك لا يلتفت إلى من مات ولا يتأسف على ما فات.

ذكر مرسوم أرسله إلى الله داد بث منه الأكباد وفات القلوب والأعضاء وزاد ما خيله فيه من هموم بأنكاد

وكان تيمور مخرجه من سمرقند، أرسل إلى الله داد بإسباره مرسومًا أذهب فيه قراره، ونفر طائر نومه عن وكر أجفانه واطاره، وفهم من فحواه بالإشارة أنه طالب دماره، ومؤتم أولاده ومخرب دياره، شد عليه فيه المضايق، وسد في وجهه الطرق والطرائق، واقترح عليه فيه بأمور يسهل عندها قطع الجبال ونقل الصخور، ويعذب عند أدناها شرب البحور، من أقلها أن يهيئ له بمفرده إقامة ليوم قدومه دون غدة حضيما يأكله ليلا، وتضيما يطعمه خيله، ومن عرض ذلك مائة حمل جمل طحينًا خاصة، وهو مخصوص به ليلية واحدة، خاصة وأنه مع عساكره الجرارة لا يبيت سوى ليلة واحدة بأشباره إلى غير ذلك.

فلما اطلع الله داد على هذا الكتاب، وفهم ما تضمنه فحوى هذا الخطاب، علم أنه قد حل به العذاب، فسلب وعيه وتبذل سعيه، وأخذ في إعداد الطحين، واجتهد في إدارة الطواحين، وكانت الطواحين أوقف من حال أديب في هذا الزمن العجيب ومجارى مياهها أيبس من كف شحج، كلف زمن القحط تدرية الدقيق في الريح، ودماء الأنهار في مجارى عروض الجبال ناضبة، ودموع العين في آفاق الغروب غاربة، فبذل ما كان أعده لكل نائبة وشدة وأهان نفائس الأموال، واستعان على إجراء الماء بالمال، واستغاث بأولى النجدة من الرجن، واستمد المدد من كل عد ونمد واستنهض أمراء المتفقيين من

الأصحاب، واستدفع بهم ما نزل به من مخلب البلاء آب وناب، وقرع لفتح ما ارتج عليه مما لا طاقة له به كل باب، فاستجابوا دعاءه وأجابوا صده ونداه، وتأوهوا لمضضه واستطبوا لمرضه، وجمعوا من العملة والفعلة الأسود والسراحين، فعملوا فى سوق الأنهار من الأعمال ما يدير الطواحين، وجعلوا يعاندون البرد ويقطعون فى طريق الماء الجمد، فكانوا كالضارب فى حديد بارد والمكابد بتزويق وعظه تليين قلب الجاحد، وصاروا لا يقطعون من الجليد مقدار ذراع بالحديد، حتى إذا أسهلت حرونه ورق لمكابدتهم، فدمعت عيونه إلا وتهب نسمة يابسة على تلك الوجوه العابسة، فإذا هب بارد النسيم قابله الماء بوجه بسيم. فيبرد قلبه عن نارهم، ويصرد لبه عن أوزارهم، فيجمد ما فوق ذلك فتضيق عليهم المسالك، فيرجعون القهقري ويمشون كالحبال إلى وراء الله ناد، مع ذلك يبذل الأموال وينادى سستغيثًا يا للماء يا للرجال. قلت:

فكان كل منهم كالحمار يخرج ما أمكنه بالمدار
يوقفه الماء لأجرائه وكلمًا أوقفه البرد دار

إلى أن وقع الاتفاق بين الرفاق أن هذا مسألة تكليف لا يطاق، وحين تبين لهم أمرهم وتعين عنده عذرهم، قارية الخط الحالك، وتبين أنه لا محالة هالك، وأنه قد وقع فى البلاء العريض الطويل، وأن مخدومه ما طلب منه فى ذلك المحز الدقيق إلا لأمر جليل، وكان بلغه ما وشاه به أصداده، ونقل إلى تيمور عنده أعداؤه وحساده، وعلم أن خطره تغير عليه بوفعله مع محمد جلد شاه جامعه.

وقد نقل إليه وكيف قتله شر قتلة، ونهب أمواله وأسر أولاده وأهله،

وكان مترنماً من تيمور أضعاف هذه الشرور، لا يقر له قرار ولا يسكن له ليل ولا نهار، وقد غسل من الحياة يده، وودع حياته وأهله وماله «ولده»، وقد قرب شهر الصيام وصار بينه وبين تيمور نحو من عشرة أيام، وقد انقطعت الدروب وضعف الطالب والمطلوب.

إذا تضايق أمراً فانتظر فرجاً فأضيق الأمر أدناه من الفرج

ذكر سبب انكسار ذلك الجبار وانتقاله إلى دار البوار واستقراره في الدرك الأسفل من النار

وجعل تيمور يواصل التيار حتى وصل كورة تدعى أنزار، ولما كان بظاهره من البرد آمناً، أراد أن يصنع له ما يرد الأبردة عنه باطنياً، فأمر أن يستقطر له من عرق الخمر المعمول فيها الأدوية الحارة والأفاوية والبهارات النافعة غير الضارة، وأبى الله أن يخرج تلك الروح النجسة إلا على صفات ما اخترعه من الظلم وأنسه، فجعل يتناول من ذلك العرق ويتفريق أفوايقه من غير فرق، لا يسأل أخبار عسكره وأنباءهم ولا يعاب بهم، ولا يسمع دعاءهم، حتى سقته يد المنية كأس، وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم، فإنه لم يزل القضاء معانداً وللزمان مجاهداً، ولنعم الله تعالى جاحداً، ولا شك أنه جاء ناقصاً، ويحمل مظالم فراح زائداً، فآثر ذلك العرق في أمعائه وكبدته، فترنح بتيان جسمه ورتج أركان حسده، فطلب الأطباء وعرض عليهم

هذا الدافعة فعالجوه فى ذلك البرد بأ وضعوا على بطنه وجبينه الجمد، فانقطع
ثلاث ليال وعكم أحمال الانتقال إلى دار الخزى والنكال وتفتت كبده، ولم
ينفعه ماله وولده، وصار يتقيأ دما ويأكل يديه حسرة وندما:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وجرعه ساقى المنية أمر كأس وآمن حينئذ بما كان جاحده، فل ينفعه
إيمانه فلما رأى البأس فاستغاث، فلم يوجد له مغيث، ونودى عليه أخرجنى
أيتها النفس الخبيثة، كانت فى الجسد الخبيث، اخرجنى دميمة ظالمة أثيمة،
وأبشرى بحميم وغساق، ومجاورة الفساق، فلو تراه وهو يغط غطيظ البكر
المحنوق، يخمد لونه ويزبد شذقه كلبعير المشنوق، ولو ترى ملائكة العذاب،
وقد أظهروا استبشرهم وأخنوا على الظالمين، ليخربوا ديارهم ويطفئوا نارهم،
ويهدموا منارهم، ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم
وأدبرهم.

ولو ترى نساءه وحاشيته وهم حواله يجأرون وأعوانه وجنده، وقد ضل
عنهم ما كانوا يفترون، ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باطوا
أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله
غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون، ثم إنهم أحضروا من جهنم المسوح،
وسلوا سل السفود من الصوف المبلول لتلك الروح، فانتقل إلى لعنة الله
وعقابه، استقر فى اليم زجره وعذابه، وذلك فى ليلة الأربعاء سابع عشر
شعبان ذى الأنوار سنة سبع وثمانمائة بنواحى أنزار، ورفع الله تعالى برحمته
عن العباد العذاب الهين، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب
العالمين، قلت:

الدهر دولا ب يدور
بيننا الفتى فوق السماء
كم من شمس فى سماء
لما استوت فى عزها
وملوك دنيا أضرمت
ملكوا البلاد وأهلها
أغرامهم الدهر الخو
ضحك لزمان بثغره
فغدوا ذئابا فى الأذى
غنا لهم فتراقصوا
وحكوا على باباتهم
وتوهموا أن الزمما
أوان مـا نالوه من
فتواثبوا وتضاربوا
وتلاكزوا وتلاحزوا
وتناخرو وتصارموا
هذا وإن يتصالحوا
فتهافتوا فى نارها

فيه السرور مع الشرور
وإذا به تحت الصخور
فلك العسلا لها بدور
زالت وأكسفها الفتور
من نار عدواها البحور
ماضى الأوامر والأمور
ون وغر بالله الغرور
لهم وقد ملكوا الثغور
وعدوا أسودا فى الشرور
مثل الشخوص بلا شعور
طيف الخيال إذا يدور
ن مطاوع غير النفور
دنيا يفور ولا يغور
وتكالبوا شبد النمر
وتناجزوا الضرب الهصور
وتناقروا نقر السقور
يتصافحوا مينا وزور
متصورين النار نور

والدهر مكار غيور	بنياهم فى غـرهم
كالصقر فى دقل الطيور	أنقض فيهم صـرفه
كاللحم يلقى للصقور	أمسـسوا وكل منهم
عنهم ولا ملك ودور	لا ملك رد يد الردى
ولد ولا مدد نصـور	كـلا ولا جيش ولا
محو الحيا نقش السطور	ثم انمحت آثارهم
شيئا سوى ذكر يدور	لم يبق منهم دهرهم
كالأبحر الظلما تمور	ناهيك منهم فـتنة
قصم الجماجم والظهور	الأعرج الدجال من
ونائب الدنيا تدور	داخ البلاد ودارها
فزاد عدوى فى فجور	أملى له الله الحليم
إياه فى شىء يـبور	وأمدده مستـدرجا
حكما أيعدل أم يجور	ليراه فى إمـضائه
عرب ومن عجم القطور	فاجتاح كل الخلق من
بحسامه الباغى يمور	ومحا الهدى وغدى الردى
شرف وعلم وقـور	أفى الملوك وكل ذى
ر الله والدين الطهور	وسعى على إطفاء نو
ك الظالم النحس الكفور	بنفروع جنكيز خان ذا

فأباح إهراق الدماء
وأحل سبى المحصنا
ورمى على النار الصغا
وأضاف فى هذا إلى
طوراً يرى نكت العهو
وعدوا على السادات من
من كل ذنب صايل
فتكوا وقد بتكوا القلو
وشووا جباهاً طالما
وكووا جنوباً قد جفت
واستخلصوا الأموال من
وسقوهم كأس السموم
واستأسروا آل النبى
باعوهم من مشركى الأترا
وكذلك واحد أمة
وجروا على هذا الجسرا
مابين إيران وتو
وامتد ذاك من الخطا

من كل صبار شكور
ت المؤمنات من الخدور
ر كأنهم فيها بخور
فعل الزنا شرب الخمرور
د وتارة نقض النذور
أهل الصيانة والوقور
منهم ومن كلب عقور
ب وبعد ما هتكوا الستور
سجدت لذى الرب الغفور
طيب المضاجع والظهور
أيدى البرايا بالفجور
م وجرعوا كأس الحرور
المصطفى الطهر الطهور
ك فى أقصى الكفور
من كل مقلاء تزور
ثم واستمرو لهم مرور
ران البلاد لهم مزور
أخذوا إلى أقصى القطور

لما انتهى إفساده
هجم القضاء لأنسده
حذفته أيدي الموت من
وتبطلت منه الكرا
ومضى إلى دار النكا
وتفرقت تلك الجمو
ألقت عليه فعماه
وتخلدت آثار مـ
فانظر أخى ثم أفـتكر
لا فرق عند الموت بين
أبن الذين وجـوهم
أهل السعادة والحجى
والمطفـيوا بدر السماء
كانوا عظاماً فى الصدو
طحن الردى تلك العظام
وسـفـفـنهم ربح الفنا
أبن البنون ومن غـدا
كانوا إذا رفع الحجا

وتكاملت تلك الشرور
وبكل تكميل قـنـصور
ذاك القصور إلى القبور
مة بالمذلة والعـثـور
ل بما تحمل من وقـور
ع وهد ما شاد الدثور
لعنا على مر الصعور
أذى على كـر الدهور
فى ذا المساء وذا البكور
شكور فضل أو كـفور
كانت تلالا كالزبور
وذو السبابة والوقـور
والمخجلوا فيض البحور
ر وهم صدور فى البدور
وفت هاتيك الصـدور
سقى الرمال يد الدبور
للقلب أفراحاً ونور
ب وزحزحت عنهم ستور

تلقى الدنا قد أشرفت
من كل ظبي أحور
نشر الجمال عليهم
وقدنتهم مهج الورى
كانوا إذا سكنوا مكا
كانوا على وجه الدنا
وحداثق الرياضها
بيناهم فى سكرهم
والعمر غرض والزما
وإذا بساقى الموت فا
فسقى رياض حياتهم
تركوا فسيح قصورهم
وسقوا كؤوس فراقهم
من شق حزنًا جيبه
لو كان ينفعه الرشا
لفداهم ووقاهم
سكنوا الثرى فتغيرت
ورعاهم دود البلى

كالشمس من سجدف الخدور
أو ظبية تزرى بحور
ثوب الدلال على رجبور
من شر أحداث الدهور
نأ حركوه من السرور
حدقنا وللأحداق نور
وعلى حدائقها زهور
وقد مازج الدل الغرور
ن مسلم لهم الأمور
جأهم بكاسات الثبور
قدحًا أعاد الكل بور
رغمًا إلى ضيق القبور
صبرًا لك شج غيور
ولفقداهم دق الصدور
أو كان يجديه النذور
ورعاهم رعى الحذور
تلك المحاسن والشعور
وفراهم فرى الجزور

أَمْسُوا رَسِيمًا فِي الثَّرَى
يَسْعَى الْمَحَبُّ مَخَاطِبًا
يَنْعَى وَيَنْدُبُ نَائِحًا
وَيَمْرِغُ الْخَسِيدِينَ فِي
يَدْعُوا فَلَيْسَ يَجِيبُهُ
بَيْنَنَا تَرَاهُ زَائِرًا
هَذَا بِتَقْدِيرِ الْإِلَهِ
دُنْيَاكَ جَسْرٌ فَاعْتَبِرْ
وَاطْمَحْ إِلَى اللَّبِّ الْهَنَى
لَوْ لَمْ تَكِ الدُّنْيَا وَمَا
مَا كَانَ يَزُورُ بَرَهَا
هَذَا وَغَالِبٌ مِنْ عَتَا
كَلا وَلَا انْقَادَتْ
خَلَقُوا لِحَقِّ فَنَاشَنُوا
يَا رَبِّ ثَبِّتْنَا عَلَى
وَاعْفِرْ لَنَا مَا قَدْ عَلِمْتَ
وَاخْتَمِّ لَنَا بِسَعَادَةٍ
رَاضِنٌ لَنَا بِتَجَارَةٍ

وَتَوُوا إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ
أَجْدَاثُهُمْ يَوْمًا يَزُورُ
قَبْرًا تَنَافَسُهُ الدُّورُ
تَرْبُ يَرَاهَا كَالدَّرُورِ
إِلَّا صَدَّ صَمِّ الصَّخُورِ
وَإِذَا بِهِ أَمْسَى مَزُورُ
وَحَكَمَ فَعَالَ صَبُورُ
وَأَحْرَصَ عَلَى زَادِ الْعَبُورِ
فَجَمِيعٌ مَا فِيهَا قَشُورُ
فِيهَا هَبَاءٌ خَيْثَعُورُ
عَنْ كُلِّ صَبَّارٍ شُكُورُ
فِي أَرْضِهَا عَرَجٌ وَعُورُ
قَدْ صَارَ مَخْتَالًا فَخُورُ
عَنْهُ إِلَى مَيِّنٍ وَزُورُ
مَا تَرْضِيهِ مِنْ أُمُورُ
مِنْ الْخَطَايَا يَا غَفُورُ
نَكْفَى بِهَا شَرَّ الْغُرُورِ
مِنْ بَابِ فَضْلِكَ لَنْ تَبُورُ

فصل فى ذكر ما وقع بعد وفاة تيمور من حوادث وأمر وما ظهر من سرور وشرور

وكان لالله داد أحد الخلان يدعى سعادات نائب إندان، من ذوى النباهة والشهرة، وهو أحد الأمراء الذين توجهوا لعمارة باش خمرة، فأرسل قاصداً لالله داد أنه ارتفعت مادة الفساد، وأن تيمور ترك تبعة الممالك وتوجه بتبعاته إلى درك مالك، فوصل القاصد بهذا السرور رابع عشر شهر رمضان من العام المذكور، ففرج عن الله داد همه، وأزاح عنه غمه وغمه، وكأنه استأنف له الحياة أو رد راحلته التى عليها طعامه وشرابه، بعد أن أضلها فى فلاة، وسيأتى حكاية الله داد وأمره وما جرى له بعد ذلك إلى آخر عمره.



ذكر من ساعده البخت واستولى بعد تيمور على التخت

فلما قضى تيمور نجه وانكشف عن العالم كربه، لم يك معه فى أجناده من أقاربه وأولاده سوى خليلى سلطان بن أمران شاه حفيده، وسوى سلطان حسين ابن أخته الذى هرب إلى السلطان فى الشام عند وروده فأراد واكتمر هذه القضية، وأن لا يشعر بها أحد من البرية، فشاعت وراعت وعلى

رعمهم ذاعت، فاضطربوا واضطرموا واضطدموا واصطلموا، فاطلع الناس
عليهم على ذلك، وفهموا وعلموا أنه قطع دابر القوم الذين ظلموا، فنجفت
العساكر واختلفوا وحملوا عظامه وإلى سمرقند قفلوا.

وساعد خليل سلطان البخت وخلا له الجوى، فاستولى على التخت،
وكان أبوه أميرانشاه متولى ملك أذربيجان وما والاه، وعنده ولداه عمر وأبو
بكر، وبينهم وبين ما وراء النهر من الأطواد والأشجار مائة سياج وألف
سكر، وكان أبو بكر هذا فى الجغتای من الفوارس والضواريين بالبيض الهام
والقوانس، يذكر أنه كان يوقف بقره، أو ينيخ بكره ويضربها بالسيف ضربة
لا ضربتين، فجعلها قطعتين مفصولتين وأميرانشاه هذا قتله قرا يوسف بعد
تيمور، واستخلص منه ممالك أذربيجان وولده عمر قتله أخوه أبو بكر، وأبو
بكر قتله إيدكوا متولى كرمان ومضافاتهم مذكورة وحكايتهم مشهورة، وشاه
رخ كان فى هراة وممالك خراسان، وبير عمر كان فى ولايات فارس وتلك
البلدان، وتيمور كان جعل ولى عهده محمد سلطان، وهو وإن كان من
أحفاده، لكنه قدمه على أولاده لما لاح له من فلاحه وظهور رشده
وصلاحه، فعانده القضاء فيما يروم ومات كما ذكر فى آق شهر من بلاد
لاروم، وكان له أخ يدعى بير محمد فجعله تيمور ولى عهده من بعد.

فلم هجم عليه رائد الموت وأهاب روحه الخبيثة بأزعج صوت، وكان
مستغرقاً فى بحار غفلته، مسترخياً إرخاء مهلته، فذبحه اغتباطا وسام عسكره
اختباطا، وكان إذ ذاك من أولاده وأحفاده بعيد الدار، مستقر القرار آمناً من
البوار، فارغاً عن الدمار، وهم كتيمور غسافلون، وبير محمد فى قندهار،
وهى بين حدى خراسان والهند، وبينه وبين ما وراء النهر سباسب وقفار، فلم

يكن أقرب إلى دار الملك الذى أنشأه وهى سمرقند سوى خليل سلطان بن أميرانشاه، مع أن قطان الشتاء وندافه كان قد بسط على فراش الأرض لحافه وندف عليه من أقطان الثلوج ما غطى وجه العالم وأطرافه وطم ظهره وأكتافه، فلم يقدر أحد من أولئك الحشرات أن يخرج رأسه عن اللحاف، أو يضحك ثغر زهرة أتملة فى كم كميم خوفاً من جانى النسيم أن يبادرها باختطاف الاقتطاف، فضلاً أن يتمطى فى فراش أهبة إلى حركة سفر فتمديده نحو بطش أو رجله نحو طراف.

فاستولى خليل سلطان على ذلك المغنم ابارد من غير منازع وعديل، واستبدل الملك بل العالم من جهنم الكوثر السلسيل، ونادى لسان السلطنة فى رقتها نعم البديل وبدلت عن بغيض بحبيب، وعن عدو بخليل، وتمكن من العساكر والأمراء وخلاصة الجند وأساطين الزعماء، واحتوى على تلك الأمم وطوائف الرؤوس من العرب والعجم، وأدخل عنق الجميع فى ربة المتابعة، وفتح لهم فى أسواق الصداقة حوانيت الصلاة، فعاملوه بعقود المبايعة، ولم يمكن أحداً منهم الخروج عن الدخول فى الطاعة والتخلف عن المبادرة إلى مبايعته فى ذلك اليوم ولا ساعة، فأطلق لهم البشارة وأحسن معهم العشرة، وكان يوسفى الخلق خليلى الرفق، إسماعيلى الصدق، جمع حروف الملاحة على صنوف الصباحة، نقش محاسنه كانت الصنع بقلم لاكاف والنون على أحسن ما يكون من الحركات والسكون، فأول ما مشق على لوح الجمال ألف قده القويم، فباء له كل من فاء عن لام عذاره متقوساً فى خدمته، كالدال والجيم وحسن لكل راء ما فيه من زين، وما شين ثغره وميم، فمه مد فاما يخلف ولا ميم، فاستغنى بوابله كل قاف، واستكفى بنائله كل كاف،

وأمطر من عين كفه العين، فصار من الجند كل ذى لام وباء ودال بذلك على كل من باء عن وعده، ورجع عن عهده، وفا فغدت الواقيات مهجته ورقت من عين الحوادث بهجته، وعودت من الأرداف بالطور والأحقاف وحمّت نون حاجبه، وفاه وطرفه وطبرته وردفه بحم عسق، وفتحت له الملوك بالثناء فاهاً، وخفضت لارتفاعه حدودها معودة له، وقالت بياسين وطاه.



ذكر خلاص العساكر من البند وقفولهم مع عظامه إلى سمرقند

ولما ذبح قصاب الفناء تيمور ونحره جزرة كالجزور، فجعل يخور كالثور وبقره، ثم أراد أن يصلية من تنور الجحيم حنّره، فاستغاث بخليته فأجاره وأخره، وقال لا تعجل عليه وحمله في محفة بعد العجلة وصبره، وألوى راجعاً إلى سمرقند وكان قد انحل نهر خجند وطالب الشتاء قد أدرك ثأره، ويرد قلبه وسكنت الحرارة، قتل:

ورق للعالم قلب النسيم وقبل الدهر بوجه نسيم

ثم هجم جيش الربيع المنصور فانهزم جند البرد فولى وهو مكسور.



ذكر ما أضمره وزراء تيمور وأخفاه كل منهم فى التامور

وكان فى أفلاك ذلك العسكر سيارات نجوم بهام سماؤه تزهـر، وبآرائهم
يقتدى وبروءاهم يستضىء . قلت :

من كل منتخب للأمر متجب كالشمس رأياً وكالضـرغام أقداما
قد هذبتهم الأمور وشذبتهم بلايا تيمور، واستفتح بهم المغالق،
واستوسع بصدماتهم المضائق، وخلص بحملاتهم من شدة كل مارق،
وتوصل بعزمهم إلى نيل المآرب، وتوسل بعزيمتهم إلى كنوز المطالب، وكان
هو البدر وهم الهالة وهو الفاعل وهم الآلة، وهو الروح وهم الخواس، وهم
الأعضاء وهو الرأس، فلما كورت شمس مواكبهم وانتشرت كنس كواكبهم،
ورحل زحلهم وخاب أمله، قلت :

وعوض الكون الدجى بالضحى وبدل المريخ بالمشتري
أجال كل منهم قـداح فكره، وتدبر فى ذلك الحادث وعاقبة أمره،
واستصغر خليل سلطان وعلم أن سيأتيه موج المنازعة من كل مكان، وأنه لا
يصفو له ورد الملك من تكدر، ولا هواه من مغبر، وأقل الأشياء أن يقول هـ
رسول أكابر أقاربه كبو كبر فاعد لكل شدة شدة، ولكل غدة عده، ولكل خرة
فره، ولكل جرة جمـره، ولكل بؤساً لبسا، ولكل سهم ترسا، ولكل نائبة
ناباً، ولكل بائقة باباً، ولكل خطبة خطاباً، ولكل خطاب جواباً، ولكل حرب

حرباً، ولكل أمر أمراً، ولكل غدر عذراً، ولكل أزمة حزمة، ولكل نصب
نصبة، ولكل كسرة جزمة .

ولكن شكيمة البرد كانت ردح جماح كل جموح، وصفيحة الجمد
قدت جناح كل سبوح، فما وسع كلا منهم إلا الإطاعة والانقياد لأمر خليل
سلطان بالسمع والطاعة، واستمروا معه على بالقول مضميرين لخليل ما
أضمره للحبيب عبد الله بن أبي بن سلول، وكان أحدهم يدعى برندق فرام
إلى التحصن بقلعة المخالفة التسلق، فقال لخليل سلطان أن اقتضت الآراء أن
أتقدم وأمهّد لك الأمور إلى حين تقدم، فأكون رائد دولتك وقائد سلطتك،
فأشيد القواعد وأبشر الصادر والوارد، فيكون كل مستعد للملاقاة ومهيئ
أسباب الموافاة، فأذن له وإمامه أرسله .

فوصل إلى سيحون وقد عقد عليه جسر بالمراكب وهيئت أسباب عبوره
لكل راجل وراكب، فعبره بجماعته، ثم أمر بقطعه من ساعته، وأعلن
العصيان، وقصد سمرقند مجاهراً بالطغيان، نظم اتفاقي، فكسرت أسوارها في
وجهه أنيابها وأرخمت عصمتها على بابها حجابها، وسدلت على جبين
منعتها نقابها فاستدرك فارطه وسلك في مسئلة منطقة المغالطة، ووصل خليل
سلطان إلى الجسر، فوجد عقده قد انحل ونظامه قد اختل، فلم يكثر
برندق وما فعل، بل عقده مرة ثانية، ودخل وولى ما وراء سيحون من البلاد
متوليها أولاً، وكان يدعى خدايداد وهو أكبر أعدائه، ومن رفقاء تيمور
ونظرائه، ومنسوباً إلى السلطان حسين، وهو في تلك البلاد بمنزلة الرأس
والعين، فلم يسع خليل سلطان إلا مسالته وإقراره في بلاده ومهادنته، إن
أموره كانت في أوائلها ففوض إليه أمرها والقلوب في غوائلها .

ذكر وصول خليل سلطان بما ناله من سلطان إلى الأوطان

ثم توجه إلى سمرقند فاستقبله كبراؤها وخرج إليها نائبا وزعماؤها،
ووفد عليه نواب البلاد منغمسين في السواد لابسين أثواب الحداد، وجاء
الأكابر والعظام معظمين هاتيك العظام، ومهنيين جليل سلطان بالسلامة، ونيل
سريير الزعامة. قلت:

ووجه كل قد غدا مثل الربيع القادم
بعين سحب قد بكت وثغر زهر باسم

وجعلوا يقدمون التقادم السنية والحمولات البهية، وهو يقابل كلا منهم
بما يليق بحشمته وينزله في منزله، وقال لبرندق لا تثريب، وقابله مقابلة
الخليل الحبيب، ومهد له بساط المباشطة، وسلم إليه مسئلة المغالطة، وحين
ثبتت أوتاد اقلعه وألقاه على غفلة في قم أسد المنية، فابتلعه ثم أشلا على
دياره كلاب النهاب وشهاب التهاب، فمزق أديمها وهتك حريمها، ومحا
حديثها وقديمها.

ذكر موارد ذلك الخبيث والقائه في قعر الحدث

ثم إنه أول ما اشتغل بمواراة جده، وتنجيز أمره بالقائه في حفرة لحده، فوضعه في تابوت من أبنوس وحمله الروس على الرءوس، ومشى في تشيع جنازته الملوك والجنود حاسرى الرءوس، لابسى الثياب السود ومعهم طوائف الأمراء والأعيان، وأنزلوه على حفيده محمد سلطان، في مدرسة حفيده المذكور، بالقرب من مكان يسمى روح أباد، وهو موضع مشهور، فكان هناك على أثاف في سرداب معلوم غير خاف، وأقام عليه شرائط العزاء من أقراء الختمات والربعات والدعاء، وتفريق الصدقات وإطعام الأطعمة والحلاوات.

وستم قبره ونجز أمره ونشر على قبره أقمشته، وعلق على الجدران أسلحته ومأمتته، كل ذلك ما بين مكمل ومرصع ومزركش ومصنع أدنى شئ من ذلك، بخراج إقليم وجنه من كدس تلك الجواهر تفوت التقويم، وعلق نجوم قناديل الذهب والفضة في سماء غواشيها وسيط على مهادها فرش الحرير والديباج إلى أطرافها وحواشيها، ومن جملة هذه القناديل من ذهب زنته أربعة آلاف مثقال رطل واحد بالسمرقندى وبالمدهشقى عشرة أرطال، ثم رتب على حفرة القراء والخدمة، وأرصد على المدرسة البوايين والقومة، وقدر لهم الإدارات من السمنهات والمياومات والمشاهرات.

ثم نقله بعد ذلك بمدة إلى تابوت من فولاذ، صنعه رجل من شيراز، ماهر فى صنعته أستاذ، وقبره فى مكانه المشهور، تنقل إليه التذور، وتطلب عنده الحلجات وتبتهل عنده الدعوات، وتخضع الملوك إذا مرت به إعظاماً، وربما تنزل عن مركبيها إجلالاً له وإكراماً.

فصل فى اعتدال الزمان وأخبار خليل سلطان

ولما أخذت تيمور الصيحة بالحق، فصا غثًا وقعد خليل سلطان على التخت، وقام الشتاء بعد أن كان جثًا، مد الشعراء ألسنتهم للزمان بالمدح، وخليل سلطان بالتهنئة ولتيمور بالثناء فسمع الشتاء، وغنى صوته وأجاز ورفع عن العالم فى نهوضه الكلاكل والأعجاز، فابتهج الكون بورود الربيع وشكر الروض للسحاب، ما أسداه إليه من حسن الصنيع، ورفع على الروانى من الشقائق أعلامه، ونصب مما زهره خيام الصنع من أزهار الأشجار خيامه، ونور الخدق بأنوار الحداثق، واستنطق بتسييح الخالق من خطباء الأطيّار على منابر الأغصان فى جوامع الرياض، ما استنصت بلغاته كل ناطق، من كل معرب فى ديوان الفصاحة رائق، ومعجب بأسرار البلاغة فائق، فرقصت الأشجار لغناء الأطيّار، وصفقت الأنهار واعتدل الليل والنهار، واكتسى البسيط الأغبر، خلع السندس المزهّر، وتبدلت الأغصان من قطنى الثلوج، كل ثوب بأصباغ القدرة مزهر، ودمسق الأزهار منسوج، وكل قباء صار مزهرًا فى كل دف أغن لكل طائر وفروج، وبسط الكون على المكان لأقدام خليل سلطان، شقق الورد والريحان.

فصل

ولما فرغ خليل سلطان من ذلك، شرع فى تمهيد الممالك وتسليك المسالك، وعلم أنه لا يتقيد به إنسان إلا بقيد الإحسان، ولا يجتمع له البال إلا بتفريق المال، فعقد القلب على سلططات الختوم وجل الرموز، وصرف

الموانع والتوابع عن تلك المطالب والكنوز، وقوى العزيمة على فتح الخبايا،
 وصيد عصفير القلوب ببدر حبات الهبات تحت شباك العطايا، ففرق ما كان
 شئت جده فى جمعه شمل البرايا، وثقل الجواهر بتخفيف ما أثقل ظهر غيره
 بالمآثم الخطايا، وأوسق أحمال الأمال، وربوع الأطماع بالأموال، وأمطر
 زيادى يمينه بالنوال، ففاض الخير من صوب الشمال، وملاً الأفواه والمسامع
 والمقل من الناس، بما أفرغ من حوصل الكنوز والصناديق على أغتام الجند
 والأكياس، فثر أغصان الروح عند ورود الربيع أصناف أزهاره، فكأنه أنامل
 كفه المنتظمة فى نثار درهمه وديناره، وجاد السحاب بدر دره وأمطاره، فقيد
 الناس كلهم بهذا القيد، ونحوا طراف بذله معربين له بالإطاعة فترك عمرو
 وزيد.



ذكر من أظهر العناد والمرء وتشبث بذيل المخالفة والعصيان من الأمراء والوزراء

غير أن بعض تلك القواد وزعماء والوزراء والأجناد، أعلن ما كان أسر
 ووضع المضمّر من العصيان موضع المظهر، فأول من شهر سيف العصيان
 وفوق سهام العدوان، وشرع بالمخالفة الردينى خدايداد الحسينى، متولى ما
 وراء نهر سيحان وأطراف تركستان، فوجد من كان عزم على نفص يده من
 عقد الطاعة إماما يقتدى به فى البغى، ومفرقة الجماعة لا سيما وقد كان
 صواغ الربيع قد أذاب بجمراته سبائك الجمد والثلوج، ورصع بما أخرجه من

ذلك ديباجة الأرض وروضات الجنات وأرباض المروج، واستمتعت أموات الحشرات صيحة الرعود بلحق، فقالت ذلك يوم الخروج، فاقتنى خدايداد فى العصيان والعناد شيخ نور الدين، وكان عند تيمور من المقدمين، وذوى الآراء والتمكين، فانخزل جهازاً وسار ليلاً ونهاراً، فوصل إلى خدايداد وقوى منه الظهر والأعضاء، وشاركه فى التمرد والفساد، ثم بعده فرط نظام الطاعة شاه ملك، وأخذ فى طريق المخالفة وهو منهمك، وخرج من سمرقند وهو يصرخ، وقطع جيحون ووصل إلى شاهرخ، وكان نظير شيخ نور الدين وذا رأى مكين وفكر رصين، فلم يكثرث خليل سلطان بالعاصى، وأكرم من لم يعص وعم بتاج إنعامه كل رأس وما خص.



ذكر أخبار الله داد صاحب إشبارة وأخلائه إياها وقصده دياره وما صنع من تدبير الملك وآثاره قولاً وفعلاً وإشارة إلى أن أدرك فى ذلك دماره وبواره

ثم إن الله داد جمع أخصاؤه ليلة ورود الخبر عليه، وشاورهم فيما يصنع وما يبنى أموره عليه، فاتفقت كلمتهم واجتمعت مشورتهم على قصده دياره وإخلائه إشبارة، فإنهم كانوا فى ذلك المكان كالفسيق فى شهر رمضان والزنديق بين قراء القرآن، فلما طوى الجو ملاته المسكية، ونشر على المكان مروطه الكافورية، وألقى ثعبان الفجر من فيه على هذا السقف المرفوع خرزته المضية. حضر إلى خدمة الله داد أمراء الجيش على عادتهم ورءوس الأجناد

من الترك والخراسانيين والهنود والعراقيين، فاختلفوا بأفاضلهم ومدارة مفاولهم ونشر لهم من هذه القضية طيها، وطلب من آرائهم فيها رشدها وغيها، واستكتمهم أمرها ليلاً، يستنشى المغول نشرها، وأنى لعين الشمس فى الصحو الاستار، وكيف يخفى على ذى عينين النهار، فكل منهم فوض الأمر إلى مرسومه، وطرح قصة هذه القضية فى جيب مكتومه، فاستدعى من أولئك الرفاق أن يكونوا معه فيما يراه على طبق الوفاق.

فأجابوه إلى سؤاله وربطوا أفعالهم بأقواله، فأكد ذلك بطلب إيمانهم أن إسرارهم فى ذلك كإعلانهم، فشرع كل فى المحالفة أنه ليس فى موافقته مخالفة، وأنه مهما راءه الله داد امتثله، وما أمره به فعله، وحين أمن مخالفهم وعصيانهم، وحصل له اليسار بربطة أعناقهم بأيمانهم، قال أى جماعة الخير وقيتم الضر وكفيتم الضر، أرى أن أكون فى صلاة هذا الأمر أمامكم، فأتقدم بجماعتى إلى سمرقند أمامكم، نأهد الأمر لكم وأرسل إلى بلدكم هذا بذكركم، وأيم الله لا يأذنى قرار ولا هدو، ولا أترككم مضغة لضاغم ثغر العدو، فإن رأيتم أن تضبطوا بحسن الاتفاق أموركم، وتجمعوا قريحة ورد قلعكم من سورة شارب العدو وسوركم، فلن أمهلكم إلا بقدر ما أقطع نهر خجند، وأصل إلى سمرقند فأمهلونى ريثما أصل، وبخليل سلطان أتصل، فنبعوا مراده واقتفوا ما أراده وعاهدوه أن لا يختلفوا من بعده، ولا يحلوا بعد ارتحاله من رقابهم حبل عهده، فأمر عليهم رأس جند العراق، وكان هو أكبر الرفاق بالاتفاق، وقرر لكل مسلحة فى أسوارها من كل صالح جزء مقسوماً، وصار زعيم أولئك الساحلين كالنبي فى أمته مع أنه كان يدعى معصوماً.

فصل

ثم أمر الله داد بتنجيز الأمور، وخرج سابع عشر شهر رمضان المذكور ولم يلتفت إلى برد وحر، وكان قد استوطن إشبارة واستقر ونقل إليها حريمه وأولاده، وبذلك أمر حاشيته وأناذه، فاقتلع معه الكل كبيراً وصغيراً، ولم يدع بها مما يتعلق به فتيلاً ولا نقيراً، فساروا تارة ديباً وخبياً رجفاً، وطوراً تسومهم الأرض من ثلجها خسفاً، وأونة تسقط السماء عليهم كسفاً، فأدركهم العيد المرقوق في مكان يدعى قولاً تجوق من أبرد البلاد كأنه ينبوع ريح عاد، قلت:

إذا احتاجت جهنم زمهريرا تنشق منه أنفاس الهجير

ذكر ورود مكتوبين إلى الله داد من خليل سلطان وخدايداد تخالفت معانيها وتصادمت فحاويهما

فورد عليه مرسوم من خليل سلطان، يذكر فيه ما حصل لجده من حادث الزمان، وأنه استولى على سريره وأطاعه من الملوك كل كبير القدر وصغيره، وإن الأمور بحمد الله مستقيمة وقواعد الملك على عاداتها القديمة مقيمة، فلا يحدث أمراً ولا يخرج من بحر مدينته براً وليسدل بمكانه وليتلبث بإشبارة مع طوائف جنده وأعوانه، وليطيب خاطر الجزء والكل، فتحير الله داد وتفكر وقدر فقتل كيف قدر، فبينما هو في أمره بعيد ويبدى، ويلحم في

شقة أفكاره ويسدى، وإذا بقاصد خدايداد ورد عليه يستحثة على الخروج من إشبارة، والوصول سريعاً إليه، فوجد لخروجه من إشبارة عند خليل سلطان مندوحة، وعاش فنام وهو مغمض العينين بعد أن مات وعينه مفتوحة، فطوى بساط ترده وتوجه ببسط أمله نحو مقصده، ولكن كان بينه وبين المراد خراط القتاد، والموانع التي ذكرها صاحب الوصول إلى سعاد، مع زيادة نهر سيحون وخدايداد، فواصل التأويب والأساد، حتى وصل إلى خدايداد فابتهج برويته واستنجح مقصوده بطلعته، ثم قطعاً نهر خجند وقصدا ضواحي سمرقند ووصلا إلى حين غفلة وفترة إلى مكان يسمى تيزك، وقد شهر للعدوان الحسام، وشرعا للفتك بالتيزك، فاحتاطا على جشار تيمور فنهباه وتغلبا على ما وصلا إليه من نقد وجنس فسلباه وأكثر هنالك شراً وفساداً وأشبها في ذلك تسعة رهط ثمود وعاداً.

وكانت هذه أول شرارة شر وبدعة سقطت من مسقط الزند، وبسطة يدها بالفتن بعد قبض تيمور في ممالك سمرقند، لأن أهلها كانوا قد أمنوا الشرور ووقوع الفتن في حياة تيمور، فحين دهمهم أولئك المفترون أتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، وذلك في شوال سنة سبع وهو العام الذي خلا من تيمور الربع، وما أمكن السلطان خليل تدارك هذا الخطب الجليل.



ذكر من خلفه الله داد بإشبارة من الطوائف وما وقع بعده بينهم من التناكر والتخالف

وأما أمر من خلفه الله داد فى إشبارة من طوائف الأجناد، فإنهم خافوا من المغول حلول حينهم فتخربوا، واختلف الأحزاب من بينهم، فمنهم فرقة قال قائلهم أنا على عهدى قوى فلا أخون وأمين، وقد استمسكت يدى بعروة عهد مكين، وارتبطت بحبل حلف فلا أصير من أهل الشمال باليمين، وأدنى ذلك أن نصبر حتى يصل من الله داد رسول، أو كتاب وننظر ما تبين فيه من سلوك سنة، فتميز بثائب نظرنا الخطأ فى ذلك من الصواب، فإن وافق ذلك مرادنا امتثلنا ما تقول واتبعنا فى ذلك الكتاب والرسول.

وتوجهنا فى تلك الساعة سالكين السنة مع الجماعة، وإن جالطنا فى كلامه بخطاب أجلى عدلنا إلى الاعتزال، ومال كل منا فى مصلحة نفسه إلى القل بوجوب رعاية الأصلح، ومنهم شعبة مالت إلى رفض تلك الدارة المبادرة إلى الخروج من إشبارة، وانتقلوا من تكرار هذه المجادلة إلى القتال، وقطع رأس أحد رءوس الخراسانيين فى مصاف النزال، ومنهم طائفة أهمتهم أنفسهم، فلم يلبثوا إلى عشية أو ضحاها، ثم تحلوا وخرجوا من المدينة وتركوا الدار تنعى من بناها، فلم يسع الباقين إلا اتباعهم فى الخروج، لأن مقامهم من أول الزمان هناك، كانت كبنان القصور على الثلوج، فتحملوا بقضهم وقضيضهم وتجهزوا بصحيحهم ومريضهم، وتركوا البلد بما فيه من غلات ومستغلات، ونعم وخيرات وأموال وأقمشة ونفائس مدهشة، ولم يبق

فيه من تلك الأمم المسجونة سوى ما به مما عجزوا عن حمله من أموال مشحونة، وسوى امرأة واحدة مجنونة، ولحقوا بالله داد وهو عند خدايداد فلم يعنف واحداً منهم بما فعل، واعتذر إليهم بأن خدايداد فلم يعنف واحداً منهم بما فعل، واعتذر إليهم بز خدايداد منعه أن يتوجه إلى سمرقند، ويجهز لهم البلد وأمرهم بالإقامة معه مستوفزين وأن يكونوا لفرصة التوجه إلى سمرقند إذا لاحت منهزين.



ذكر ما تم لاله داد مع خدايداد وكيف ختله وخبه واسترق عقله وسلبه

ثم إن خدايداد تحقق بوقوع هذا الفساد تأكد العداوة بين خليل سلطان والله داد، فركن إليه بعض الركوز وجعل يستشيريه فيما يصير من أمره وما يكون وكان عند خدايداد طائفة من ممالك الأجناد، تختلفوا من العساكر في تلك البلاد، وقد ضيق عليهم المسالك وأراد أن ينقلهم من ممالك إلى ممالك، فلم ينعم له الله داد بذلك، وقال إن عادة الأكياس استجلاب خواطر الناس، خصوصاً في مبادئ الأمور وحدث أوائل الشرور، فلا ينفر عنك الخلق، وعاملهم أولاً بالإحسان والملق، وأي فائدة في قتل هؤلاء وتزريق آدميهم سوى نفى الصداقة وتأكد العداوة بيننا وبين مخاديمهم، وربما يكون في خاطر أحد من مخاديمهم نفرة من خليل سلطان، ويروم لذلك مظهرها وملجأ يلوذ به من رفيق ومكان فتلجئه الضرورة إلى أن يقصد ممالك تركستان، فإذا آديته في

متعلقه أنى يبقى له إليك ركون واطمئنان، وأقل ما تفعله مع هؤلاء يا إنسان إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ومخاديم هؤلاء لنا رفقاء وخلييل سلطان أصدقاء فإن زرعت معهم الجميل ملكت كل رقيق وجليل وألقيت العداوة، بين من عاداك من صديق وخلييل، فلما سمع كلامه ألقى إليه يده من ذلك الأمر زمامه، فأشار عليه بسراحهم وإحسان إليهم فى غدوهم ورواحهم، فزاد فى نجاحهم ورأس مخصص جناحهم وصرفهم بالعز فى طريق مراقهم، فدارت بالسعد أفلاكهم واجتمعت بهم أملاكهم وملاكهم.



ذكر ورود كتاب من خليل فيه لفضد رقيق لحل أمر جليل

ثم إن وافد خليل سلطان وفد على الله داد يطلب منه السعى فى لم الشعث فيما وقع بينه وبين خدايداد، وأن يستعطف خاطره إلى الرضى، ويستقبل المودة فى الحال ويعفو عما مضى، ومهما طلبه يتكفل به وبعد قربته من أفضل قربته، ويكون هو السفير بينهما ويقر بالصلح عينهما، فتوجه الله داد إلى خدايداد وأبلغه هذه الرسالة، وبين له ما فى هذا القول من رفيقة وجلالة، وسبب العداولة التى كانت بين خليل سلطان وخدايداد على ما ذكر أن خليل سلطان، كان فى أوائل الزمان مجاوراً لخدايداد فى تلك البلاد، وكان جده جعله ناظرًا عليه وفوض أمور ترتيبه إليه، وكان كرمًا جافيًا وجلفًا

جاسياً، فكان يعامله بالفظاظة ويقابله بالكثافة والغلاظة، وكان خليل سلطان لطيف الذات ظريف الصفات نسيم أخلاقه، لا تحمل من خدايداد زعازعه وبرد مزاجه اللطيف لركة حاشيته لا يثبت، ومجاذبة المشاقة والمنازعة، فتولد من تلك القساوة بينهما العداوة، وسعت بينهما الوشاة إلى أن دس له مهلكاً فسقاه، فكأنه أحسه فتدارك نفسه وتعاطى علاجه، وما يصلح مزاجه، فقضى الزمان أن نضل من تلك الدائمة وليتها كانت التاضية، وبقي فيه من ذلك إرج وأورثه العرج، فصارت العداوة الخاصة عامة، وغدت هذه الفعلة لهذا المعلول علة تامة.

فصل

ثم إن الله داد حلف لخدايداد الأيمان الغلاظ الشدداد، وأكد هذه الأيمان بأن استحصب معه القرآن وأشار إليه، ووضع يده عليه وزاد تأكيداً بأيمان الطلاق وبالالتزامات والنذور والعتاق، أنه لا يقبض عن طاعته يداً ولا يستحيل عليه أبداً، وأنه إن توجه إلى سمرقند بجهد في رأب ما انصدع ورد ما اندفع ورتق ما بين الجانين انفتق، ورقع ما في خراطرها من لشحناء والعداوة انحرق، وأن يجهز له تومان إحدى نساء تيمور، وحاصل الأمر أنه تكفل بحسم مواد الشرور وإصلاح الأمور، وإن عجز عن رفع الشنآن ومحو سطور العدوان، فإنه لا يستحيل عن مصادقة خدايداد في السر والإعلان، وصار يتملق ويترقق ويتوصل بتميوهات زخافه إلى مجارى فكره، ويتسلق ويشدد أيماناً ترجف القلوب، وتصدع بالله الواحد ويثنى بالطلاق الثلث من زوجاته الأربع.

وكان مخيمهم على ساحل سيحون ممتداً، وهو عن شاه رخية نحو من

بريدين بعداً، فعبر سهم ختله إلى سويداء قلبه بمكر ودخل وغربله إذا طحن معه ناعماً ما زرعه يمينه في ساحله، وتخل إلى أن سمح بإطلاقه بعد تأكيد عهده وميثاقه، فرجع الله داد إلى وثاقه واجتمع بحاشيته ورفاقه، وكانوا في شاه رخية وأخبرهم بهذه القضية، وكان قد هيا قبل ذلك أمره، وأخذ من كل جهة أسلحته وحذره، ثم إنه شمر الذيل وقطع سيحون بالمراكب تحت جناح الليل.



ذكر لحوق الله داد لخليل سلطان وحلوله مكرماً معززاً في الأوطان

وحين حصل على هذا الجانب ولم يبق له في ذلك الجانب حاضر ولا غائب، أمر في الحال بعكم الأحمال وشد الأثقال وأخذ الأهبة قبل النبهة، فأفرغوا عليهم سوابغ السلاح وأذن بصلاة الرحيل قبل الفلاح، وقدم ضعفة أهله والأثقال أمامه، ونقض بهذا الأذان شروط الإقامة، وطير إلى خليل سلطان مخبر بهذه الأخبار، وما جرى بينه وبين خدايداد، وكان وصار ويستمدد باستقبال المدد وإرسال العدد الاحتمال أن خدايداد الأبله يتفطن لغائلة هذه الفعلة، فيخطر بباله ردهم ويرسل وراءهم من يصددهم، ثم ساروا كالسهم الصائب، وطاروا كالنجم الثاقب، فما أصبح لهم الصباح إلا وقد ظهر لهم من السعد فلاح، وحازوا كل قاتم الأعماق حاوى المخترق، وقطعوا

على أنوال المسير مما أسدته مطاياهم من مزهر الرياض ألوان الشقق، فوصلوا
بالسير سراهم فساروا نهارهم أجمع، حتى غشيهم مساهم وحين أخذ منهم
اللغوب، وكل الراكب والمركوب وسدلت عليهم عنقاء الظلام الجناح عدل
بهم، إلى بعض البطاح وحط عنه واستراح، ورسم أن لا توقد نار ولا يطمع
أحد في طعم النوم بغرار، ولا يشأم في جفن طرف سيف ولا سيف طرف،
ثم التهموا ما يسد الرمق فصلوا صلاة الخوف، فعبدوا الله على حرف وأمهلوا
ريثما قطعت الدواب العليق، ثم أمر فحملوا وركبوا متن الطريق.

ذكر تنبيه خدائداد

بأن الله داد خلب عقله بأنكال وأنكاد

ثم إن خدائداد تنبه من رقدته وأرعوى من ليلته، وعلم أن الله داد خلبه
نهاره ذلك، وسحره وكشف شمس عقله ولعب به في دست حلفه وقمره،
فعض كما يعض الظالم على يديه، وعبى في الحال عسكرياً جراراً، وأفذه إليه
فأسرعوا وراءه والتمسوا لقاءه، فلم يروا له عيئاً ولا أثراً، ولا رويوا عنه من
أحد حديثاً ولا خبراً، فلم يزالوا في طلبه حائرين دائرين، ثم غلبوا هنالك
وانقلبوا صاغرين ووصل الله داد إلى مقصده، فوجد وظيفة الوزارة شاغرة
فاستولى عليها بمفرده، أن قبل دخوله كان شيخ نور الدين قد خرج، وشاه
ملك وكل من رام العصيان كان قد دب ودرج فابتهج بقدمه خليل سلطان،
وقدمه كما كان على سائر الوزراء والأركان، فتسكن الله داد كيف شاء

وتصرف فى معانى الملك ببديع بيانه إخباراً وإنشاء، وتعاطى فى الحال تمهيد الأمور وتجهيز السرايا، وحفظ الثغور فتراجع أمر الناس وانضبط وانتظم عقد الملك بعد ما انفرد وساتقر حال الناس وانضبط، وانتظم عقد الملك بعد ما انفرد واستقر حال الناس وتمكنت القواعد على الأساس، وكان هو وبرندق وأرغون شاه، وآخر يدعى كجوك يدبرون مصالح المملكة يسلكون بكل أحد مسلكه، ولكن الله داد هو الدستور الأعظم والمشار إليه المفخم، وعليه مدار القبض والبسط، ونظام عقود الحل والربط.

واستمر شيخ نور الدين وخدايداد يغيران على البلاد ويزيدان فى الشرور والفساد، واستوليا على أطراف تركستان وممالك تلك البلدان، منها سيرام وناشكند وإندكان وخجند وشاه رخية وإنزار وسغناق، وغير ذلك مما فى تلك الأكفاف والآفاق، فكانوا يقطعون سيحون ويتوجهون إلى ممالك ما وراء النهر، ويغيرون فتارة يتوجه إليهم خليل سلطان وتارة يجهز لهم طوائف من الجند والأعوان، وعلى كل تقدير فإنهما كانا لا يتبعان وينهزمان، وسيأتى ذكر ذلك كما كان.

ذكر ما وقع فى توران بعد موته من حوادث الزمان

وأما المغول فإنه لما اتصل بهم خبر ذلك المخدول، وكان بلغهم أنه قد صوب أحجار كيده إلى هشم تلك الثغور، وفوق نبال قصده إلى خرق تلك البطون والنحور، ولم يشكوا فى أن ذلك شرك مكيدة وأحبولة مصيدة، فلم

يقر لهم قرار وتنادوا الفرار الفرار، وتشتتوا في البلاد وتشبهوا بأذيال القلاع
ورءوس الأطواد، ولجأوا إلى الحصون الجروف وتماوتوا في قعد المغارات
والكهوف، وكذلك كل ذى يمين من أهل الدشت والشمال، وتوزعوا في
الأحقاف والرمال وصار أهل المشرق والخطا، وإلى حدود الصين ومن في
ذلك الوجه يسرحون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلًا لولوا إليه، وهم
يجمعون والحق أنه كان في هيئته وعتوه قد عرج إلى أن أهلك العالم شرقًا
وغربًا بالأرج، وصار كما قيل:

تكاد قسيه من غير رام	تمكن في قلوبهم النبالة
تكاد سيوفه من غير سل	تجد إلى رقابهم استللا
تكاد سوابق حملته تغنى	عن الأقدار صوتًا وابتدالا

فلما ترادف هذا الخبر وتكرر سمرقند هذا السكر، واشتهر إسناده حتى
ترقى من الآحاد إلى التواتر، وتقرر هذا الحق عند كل أحد، فلم يسع فيه
جحود ولا تناكر تراجع فؤاد كل إلى جوفه، وتبدل أمنًا من بعد خوفه،
وتنادوا يا للثارات وقصد كل مستحق استرجاع حته، وكل مسترق لمسترق
استفكاك رقه، فأول من نهض من الشرق المغول، وقصدوا إشبارة وأسى كول
وامتدوا في تلك البلاد، حتى جاوروا خدائداد فهادنهم وصافاهم وشرط لهم
رد ما أخذه تيمور من مأواهم، وأن يكونوا يدًا واحدة على من ناوهم
وأحسن كل منهم مع الآخر الجوار واطمأنت بواسطة هذا الصلح تلك الديار.

ذكر نهوض إيدكوا التتار وقصده ما وراء النهر وتلك الديار

ثم نهض من جهة الشمال إيدكوا بعساكر كالرمال وتوجه بحزم وجزم إلى ممالك خوارزم، وكان نائبها يدعى موسيكا فلما أحس بالتتار وخاف على نفسه البوار، فأخذ أهله ومتعلقيه وسار وذلك بعد أن هجمت التتار الرومية المضافة إلى أرغون شاه، وعبروا جيحون وهو جمد ورجع أرغون شاه إلى مأواه، فوصل إيدكوا إلى خوارزم واستولى عليها واستطرد بخيله إلى بخارى، فنهب ما حوالها ثم رجع إلى خوارزم، وقد أذكى في الجفتاي اللهيپ وأنكى، وولى من جهته في خوارزم وولاياتها شخصاً يدعى أنكا فتمهدت أيضاً تلك الأماكن واطمأنت الطوائع والسواكن، بواسطة أن خليل سلطان قابل كل من أساء إليه بالإحسان، وصار يسترضى كل ساخط ويستدنى بمكارمه كل شاحط، ويصطاد النفوس بالنفائس ويفتسر الأسود بالفرائس، فأحبه الأجانب والأباعد، ورغبت فيه كل صادر ووارد غير أن شيخ نور الدين وخدايداد تماديا في الفساد، ولجا في العناد وخرب ما تجوزب بين الطرفين من البلاد.

ذكر بير محمد حفيد تيمور ووصيه

وما جرى بينه وبين خليفه ووليه

ثم إن بير محمد ابن عم خليل سلطان، وهو الذى عهد إليه تيمور كان بعد فوت أخيه محمد سلطان، خرج من قندهار وقصد سمرقند بعسكر جرار، وأرسل إلى خليل سلطان وسائر الأكابر من الوزراء والأعيان، بأنه هو ولى العهد وخليفة جده تيمور من بعده، فالسرير حقه فأنى يغضبه، والمملك ملكه فكيف يسلبه، فكل منهم جاوبه بما يليق بما خاطبه، وأما خليل سلطان فتصدى للمعارضة وقابل كل مسألة من الخطاب، بما ينافىها من المعاكسة والمناقضة، وقال لا تخلوا مسألتنا يا فلان من أن الملك فى هذا الزمان، إما أن يكون بالانتساب ويظفر به بطريق الاكتساب، فإن كانت الأولى فتم من هو أحق به منى ومنك أولى، وذلك أبى أمير إنشاء وعمى شاه رخ، أعنى أخاه فيكون بينهما بالسوية نصفين، فما لك كلام مع وجود هذين، وأنا أولى أن أكون صاحبه فأرعى جوانبه وأسلك مذهبهم، إما أن يقطع كل منهما عن المشاغبة ويترك لى ما له فيه من ولاية المطالبة، ويقنع بما هو فيه من مملكته ويحفظ جانبه، وإما بأن يجعلنى خليفته فى سلطانه، فأصون نصيبه ونائبه، وإن كانت الثانية فكلامك لا يستقيم لأ الملك كما زعموا عقيم ومن قبلى وقبلك . قيل فى الأقاويل :

صونوا جيادكم وأجلوا سلاحكم وشمروا أنها أيام من غلبا

وإن زعمت أن جدك عهد إليك، أو عول في وصيته لك وعليك، فهو من أين استولى إلا بطريق التغلب، وأنى حصل لك ملك وملك إلا بالاعتصاب والتألب، وعلى تقدير التسليم وإن أمر وصيته مستقيم فإنه كان في حياته قسم بلاده وزرع عليها أولاده وأحفاده، فولى والدى ممالك أذربيجان، وقرر عمى في ولايات خراسان، وابن عمى بير عمر في عراق العجم وتلك الديار، ولاك أنت من جملة ذلك قندهار، وجعلك وصيه كما رسم وأشار، وتحمل هو المظالم وانتقل، فأين نصيبى أنا من هذا النقل، فاجعلوا حصتى من ذلك ما استوليت عليه، وليقنع كل منكم بما تقرر فيه وفوض إليه.

ومع هذا إن تابعك أبى وعمى تابعتك، أو صادقك على الوصية وبايعاك بايعتك، وإن سلكتنا في ذلك طريق الحق، فالملك صيد والأولى به من حاز فيه قصب السبق، وأن الله أزاح غلله أن شبنى بأسبابه وأباحه لى مباحاً، ومن سبقت يده إلى مباح فهو أولى به، هذا إن كان كلا من مدرسى فقه الملك تابعنى ومن له فى عقود السلطنة شركة ترك المضاربة، وطاوعنى وعد عقد توليتى مرابحة ولما وقف على سيرى الفىء إلى السلم وبايعنى، وأما الوزراء والأعيان فأجابوه بما لا طائل فيه سوى ما تمجه إذن مستمعيه، غير أن الخواجا عبد الأول، وهو صدر صدور العلماء والمتصرف فى رؤساء ما وراء النهر من السادات والكبراء، المنفذ سهام أحكامه فى جميع الأمراء والزرعاء.

أجاب فأجاد وأصاب وأفاد واختصر واقتصر وهصر من بير محمد، ولخليل سلطان انتصر، فقال فى جوابه مجاريه فى خطابه نعم أنت ولى العهد، وخليفة الأمير تيمور من بعد، ولكن ما صادف طالعك سعد، ولو

ساعدك البخت كنت قريباً من التخت والأولى بحالك أن تقنع بما لك ومالك، وتبقى على خيلك ورجالك، وتضبط ما فى يدك من ممالك وإن آيت إلا طلب النماء، ولم تقنع بما قسم الله لك وقضى وخرت من مملكتك إلى هذا الفضاء، فإنك تقع فى العناء، وتخرج ولايتك من يدك فتصير مدبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ذكر تجهيز خليل سلطان سلطان بن حسين لمناصرته وخروجه عن خليل سلطان وقبضه على أمرائه ومخالفته

ثم إن خليل سلطان لم يقنع بدقائق هذه الأقوال، وأردفها بحقائق الأفعال، وأمر بتجهيز جند مجند إلى استقبال بير محمد، وأضافهم إلى ابن عمه والده السلطان حسين وعين فيهم من أمراء الجغتای كل رأس وعين وضم إليه الظهور والأعضاء، ومنهم كحوك وأرغون شاه والله داد، فساروا سابغى العدة الكاملى العدة، وذلك فى سنة سبع منتصف ذى القعدة، فعبروا جيحون إلى بلخ، وخيموا فى ضواحيها وانبثوا فى أقطارها ونواحيها، وبيناهم مرفهوا الحال فارغوا البال قرىروا العين تمارض السلطان حسين، ثم إنه دعا الأمراء ليتقرر معهم فيما هو بصده الآراء، وقد كمن لهم كميناً وأرصد لهم الرجال شمالاً ويمناً، وحين ولجوا خبسه ودخلوا كبسه، وثب عليهم وثوب الليث على الفريسة، وأغرى بهم أسوده فوقعوا فيهم وقوع الجياح على الهريسة، ثم نادى من معه من الرفاق ضرب الرقاب، حتى إذا أئختموهم فشدوا الوثاق،

وكان كما ذكر ذا طيش وشجاعة وتهور ورقاعة وصوله وجولة يسبق فعله قوله ، فأهريق فى تلك الساعة دم واحد من أولئك الجماعة ، يدعى خواجه يوسف ، وكان فى حياة تيمور نائب الغيبة بسمرقند ، وهو أمير مشهور ، فى الحال قتل والى الدار الآخرة ، نقل ثم استنقل لنفسه بدعوى السلطنة ودعا الخلائق من ههنا ، ومن هنه فدهشت أولئك الروس ، وعلموا أنه قد حل بهم النقم والبؤس .



ذكر خداع الله داد سلطان حسين وتلافيه تلافه بالمر والمين

غير أن الله داد ثبت جأشه المزود واستحضر تلك الساعة عقله المفقود ، فابتدر سلطان حسين منادياً ، واستثبته فى أمرهم مناجياً ، وقال له بعبارة فصيحة إن لى إليك نصيحة ، ثم استخلاه وقال أنا كنت مركناً منك هذه الفعلًا ومترصداً منك إظهار ما أنت بصدده ، ومن أين لخليل سلطان أن يحتوى على الملك بمفرده ، غير أن هيبة مولانا السلطان باسطة ولم يكن بينه وبين الملوك واسطة مباسطة ، ولو كان عندى من ذلك أدنى شعور لرتبت المصالح على ما تقتضيه الأوامر الكريمة والأمور ، ثم إن الخاطر الكريم يشهد بصدق هذا الحديث ، وأنا عبدك من قديم ، وسل من كان من الممالك والأجناد الذين كانوا محصورين فى أسر خدائداد من خلصهم من حبائل

أسره أنقذهم من ضرام ضره، وإطفاء عنهم ما التهب من شرار شره، إذ لولا أنا لكان أبادهم وأيتم أولادهم، وفجع بهم طريفهم وتلادهم، فإنك إن تسألهم يخبروك، وعلى حقيقة الأمر وجلية الحال يظهر لك، وربما أخبروك بذلك بما أتوك، ومع هذا اشتفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك، ولا زال يطفى بماء خزعبلاته شواطئ تفرعنه ولهيبه، ويذكي في خياشيم رعونته غير احتياله متمسكًا بمسكنة وطيبة ويرمي عن قوس ختله إلى سويداء خيالاته نبال مكر أنفذت فيه نصال القضاء والقدر، لأنها كانت مصيبة فأشرب مكره وتبع أمره، وجعله ظهره واستقدح في أموره فكره.

ثم إنه بعد أن أمتن عليه باستبقائه استشاره في قتل رفقائه، فقال له لا شك أن خليل سلطان ملك الناس بالإنعام والإحسان، وهو وإن كان في الشجاعة قاصر اليد قليل البضاعة، لكن استعبد أبطال الرجال بحسن الخلق وبذل الأموال غير أن المال معرض الفناء والزوال، وأنت بحمد الله ما ترك مشهورة ومنازل منازلتك لإبطال معمورة، ورايات كسرك قرون الأقران، على جبين الكباش منشورة، ورءوس مناطحاتك ثيران الوغى على قرون الزمان أبدًا منصورة، قلت:

فكم آزرت شجاعاً في البراز فمذ رأى محياك ولى ظارطا وجرى

مذ كنت رأساً وعيناً في الحروب، أرى في رأسك الفتح، بل في عينك الظفرة، وأنا أعلم أن عامة الجند سيستهج بطاعتك ويرقص فؤاده لحصول سكونه فرحاً بحركتك، فإنه لا بد من رأس يسوسهم وضابط ممام يسان بتديره نفائسهم ونفوسهم، وقرم كالليث الحادر والليل الهامر، بل كالبحر الغامر منصور إن دعا، وإن دعى فناصر موصوف بما قال الشاعر:

أضاف إلى التدبير فضل شجاعة ولا عزم إلا للشجاع المدبر
وبما قال :

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
وهل تم فى هذا العصر موصوف بهذه الصفات ، إلا أنت وما النجدة
والكرم والحسب إلا راحل ، حيثما رحلت وساكن أينما سكنت ، ولو حدث
شاه ملك وشيخ نور الدين أن وراءهما منك الحصن الحصين ، لأسند إليك
رواية السند السديد ، ولأويا من جنابك العالى إلى ركن شديد ، وحاصل
الأمر أنك مولى الكل وجميعهم لك عبيد ، وإذا كان الأمر كذلك فقد ملكتهم
فسواء عندك أبقيت عليهم ، أو أبدتهم ولكن الإبقاء أولى ، ولا زالت العبيد
تتقرب مراحم المولى ، فإن اقتضى رأى السعيد أن نكون كلنا موثقين فى
الحديد مع زيادة قيد إيمان أكيد فرأيه أعلى ، وابتاع ما يقتضيه أخرى وأولى ،
فاقتضى رأيه واتخذة علماً لأموره ورأيه ، فاستتبعه لحينه وقال أسلك وراه .

ذكر أخذ سلطان حسين على الأمراء الميثاق ومشييه على خليل سلطان وهم معه فى الإيثاق

ثم إنه أحضر الأمراء وهم فى قبضة سطوته أسرى ، وقد نواح كل من
متعلقهم مهب ناحية ، وتوجه إلى دار كل المخيرون ، فقامت عليهم النائحة
والناعية ، وأوثقهم بقيدى الحديد والأيمان يكونوا معه فى السراء والضراء على

خليل سلطان، فمد كل منهم إلى القيد رجله، وإلى اليمين يده وعاهده على ما يختار، وأن يقدم له نفسه وأهله وماله وولده، فحين استوثق منهم أراح بالأمانى السوء عنهم وتركهم موثقين في البند، ونكص قاصداً سمرقند وأرسل إلى خليل سلطان يخبره بما دب من أمره ودرج، فليستعد لمبارزته فيها هو قد عبر جيحون وخرج، وأنه هو أيضاً طالب من ملك خاله حصته، ومنازع خليل سلطان في السرير منصته.



تبريز خليل سلطان من سمرقنده للاقاة سلطان حسين بطوائف جنده ورجوع سلطان حسين مما يرومه بخنى حنين

فاستعد له خليل سلطان وخرج من سمرقند لاستقباله في أسرع زمان، ثم إن السلطان حسين أحضر الله داد، ومن معه من الشياطين المقرنين في الأصفاد، واستأنف عليهم العهود، وأكد عليهم قيود العقود، وأحل كلا منهم محله وأجاز عقده وحله وخلع عليه وأجازه، واحترم حرم حقيقته ومجازه، وبش بإنعامه إلى متعلقيتهم، وهش وسار بهم حتى وصل إلى مدينة الكش، والله داد كان قبل ذلك بزمان أرسل إلى خليل سلطان يخبره بوقوع هذا الهم، وما جرى عليهم من شرور ومآثم، ثم قال له إن فألك سعيد وأمرك حميد، فانهض برأى رشيد وجناحان حديد، فإن ضدك مصيد، والله تعالى ناصرك قريباً غير بعيد، فلا تخف وإن كنت طفلاً فإنك فتى شبب أهواء القلوب

بنسمات محبتك، فصرت شيخ السلطنة وكل الأنام لك مريد، فوصل خليل سلطان إلى ذلك المكان، فعبى السلطان حسين جيشه، واستعمل تهوره وطيشه، وجعل الله داد على الميمنة ورفيقه على الميسرة، ولما تراءى الجمعان وتدانى الزحفان، وحفت الحقائق وشدت المضائق، وتعادت الأسود والفرائق، وبادر كل منهم من مكانه، وقصد كل من الله داد، وأقرانه عساكر خليل سلطانه، فتخطت عساكر السلطان حسين، وسلب ثوب عزه فنبذ بالعراء ملتحفاً من ظنونه ثوبى خيبة وحين، ودهمه من البلاء ما أنساه سلبه، فرجع يخفى حنين ومر على وجهه قاطع الفلاة، حتى وصل إلى ابن خاله شاه رخ صاحب هراة. فلم تطل له عنده مدة فأما سقاء مهلكا، ومأما مات حتف أنفه عنده، فكان ذلك آخر العهد بسلطان حسين، ورجع خليل سلطان إلى دار ملكه قرير العين.



بقية ما جرى لبير محمد مما قصده من فرح وهم وكيف إلى ذلك إلى وبال وحزن فنقص ما تم

ثم إن بير محمد تمادى فى خروجه واستمر برتع فى روض الطلب ومروجه، وتكررت بينهما دروس المراسلة، وتحررت مسائلهما بعد مطاولة المقالوة أن يتركوا منازل المنازلة، ويخلوا بروح المقابلة والمقاتلة، وكان متولى أمور ديوانه ومشيد قواعد سلوكه وسلطانه شخصاً يدعى بير على تاز حامى

حقيقة باب الملك، وحارس المجاز سرّة بطحاء مملكته، وقطب سماء دائرته
وقدوة علماء عوالمه وقوة خوفاً عسكريه وقوادمه فجرد من عساكر قندهار كل
طود، أو مال على القندهار، وتوجه بعزم أمضى من البتار، وحزم أنفذ من
الخطار قائداً ذلك الخضم الهدار والسيل الترتار والغمام المدرار، حتى وصل
إلى جيحون فوقف منه التيار ثم أمر ذلك البحر العجاج أن يركب من جيحون
الأثباج، وتصادم منه ملاطم الأمواج، فمرج الله البحرين هذا عذب فرات
سائغ شرابه، وهذا ملح أجاج فمخروا منه بسفنهم النحر، وجاوزوه مجاوزة
بنى إسرائيل البحر، وسار بذلك الأخشب حتى أرسى على ضواحي
نخشب.



ذكر مقابلة العساكر الخيلية جنود قندهار بصدق نية وألقابهم بهزيمتهم إياهم فى أشربلية

وكان قبل ذلك خليل سلطان قد نجز أمره، كما كان ونفت أعطار مندل
الإيثار، وقوى العزائم على الملوك بالاستحضار ليجنوا من أشجار الجرايات
وثمار الإدرا ما يستعدون به لملاقاة شياطين قندهار، فلبى دعوته الخاص
والعام، وكل بناء من عفاريت الجنود وغواص، واجتمع من أعيان أولئك
الأعوان كل مطيع مقتطف ثمر إحسان ذلك البستان من إنس وجان؛ وجاء
ذلك البحر أفواج أمواج العساكر من كل مكان، وهم ما بين رؤوس الجفتاي
والجتا، وكل قرعون من بلاد تركستان قد علا وعتا، وفوارس فارس والعراق

ورسندار وجان قربانية خراسان والهنود والتتار، ومن كان تيمور أعده لمضايق الأمور ولم يفارقه فى سفر ولا حضر وأرصده لكل نائبه من خير وشر:

قوارس لا يملون المنايا إذا دارت رحى الحرب الزبون

فاستأنف عليهم فواتح الفتوح واستنخب منهم لما دهاه كل صديق
نصوح وأسبغ عليهم من دروع عطاياه السابغات، وضاعف على قامه أملهم
من خلع إنعامه المضاعفات ففتحت عليهم الأرض خزائنها، وصبت عليهم من
معادنهم وفلزاتها ظاهرها وكامنها، فصار كل راجل منهم وفارس، وقد تجلّى
فيما تجلّى به من تلك النفائس يزرى بحسن هيئته على متحذرات العرائس،
فساروا ونسمات النصر من أنفسهم فاتحة، ولمعات الفتح من بوارق ييارقهم
لائحة، والسبع المثاني لأبواب الإنجح والفتوح فى وجوهه فاتحة، ولا زال ذلك
الرأس يرسى ويمشى حتى حط على ضواحي قرشى، وهى المدينة المذكورة
فاستقرت تلك العساكر المنصورة، وذلك يوم الأحد مستهل شهر رمضان سنة
ثمان مائة وثمان، فبات كل من ذينك البحرين، وقد ضم ذيله وكف عن
التبدر والتبدد سيله، وحفظ من الأغيار رجله وخيله وأحبى فى معتكف
المراقبة إلى الصباح ليله قلت:

إلى أن بدا لمع الضياء فى ظلامه

يلوح كموج الماء من سجن طحلب

ولما سل الفجر صارمه الفضى وأبرز ترسه، ومسح على لوح الجو ما
طرشه مسود الليل من دخانى، نقشه تهياء كل من أولئك الأطواد للاصطدام،
واشتعلت فى قلوب تلك القبائل نار الحمية للاصطلاء والاصطلام، فعبى كل
عسكره ما بين ميمنة وميسرة ومقدمة ومؤخرة، ثم تدانوا وتكانوا وتعاونوا

وتعادوا وتزاجروا وتغانوا وتعانقوا وتهاونوا وتناحروا، وتفانوا والتقت الرجال بالرجال والخييل بالخييل، وارتفع ظلام القنাম إلى رءوس الأسنة، فرأوا فى صلاة الظهر نجوم الليل، وجرى فى ذلك القسطل من كل قناة عيون السيل، ثم عند منتصف النهار انكشف الغبار عن أن طود قندهار هار، وسعد أولئك الكبار بار وعليهم غبار العثار ثار، وخبرهم بالانكسار وصبا خليل السلطان إلى الأوطار طار، وإلى الآفاق بالانتصار صار، فولى بير محمد وعلى رأسه بحر الدمار مار، وفى قلبه زناد البوار وار حتى كان فى قلبه جمر الغضا والغار غار، أو فى كبده نار لهب المرح والعفار فار، وجندلت رجاله وأبطلت أبطاله، ونهبت أثقاله وتحولت أحواله وسبى حريمه، وعبيده وسلب طريقه وتليده، وتشيث هى بأذيال الهزيمة وعلم أن إياه سألما نصف الغنيمة كما قيل:

إيابك سألما نصف الغنيمة كل الغنم فى النفس السليمة

ورجع خليل سلطان وقد استنار به الكون والمكان، وأسفرت دولته واستطارت صولته وشكر الله الملك وأتم صيام رمضان فى مكان يسمى جكدليك.



ذكر خروج عسكر العراق على خليل سلطان ومجاهدتهم بالخروج وقصدهم الأوطان

ثم فى ليلة الاثنين غرة شوال خرج من العراقين الرؤوس والأبطال
ومعهم حريمهم وأتباعهم وأولادهم وأشباعهم وكبيرهم شخص يدعى حاجى
باشا، وهم جارون تحت إمرة كيف ما شاء، وكانوا ذوى سولة وجولة
وصحبتهم السلطان علاء الدولة ابن السلطان أحمد البغدادى لصلبه، وكان قد
وقع فى أسر تيمور فسجنه فى سجن محتته وكربه فأفرج عنه خليل سلطان،
وجعله عنده ذا مكانة ومكان، فبينما الناس مشغولين بأمر العيد رفع أيديهم
أولئك الصناديد، وكأنه كان تقدم لهم بذلك مواعيد، فخرجوا تحت جنح
الليل وشمروا نحو عرائس العرق الذيل، وطلقوا مخدرات ما وراء النهر
ومالوا عنها كل الميل، لأنهم كانوا استمعوا أن دار العراق أنزلت بانيها ومياه
أنهر سلطنتها عادت إلى مجاريها، فلم يقف أحد أمامهم ولا مشى خلفهم
ولا قدر على أن ربط عن السير رجلهم وكفهم، فقطعوا جيحون ووصلوا إلى
خراسان فتصدى لهم كل من سمع بهم من كل مكان فانفرط نظامهم لعدم
اتفاقهم فتقطعوا فى البلاد قبل وصولهم إلى عراقهم، وأين إيران من توران
ودجلة من جيحان، فعيد خليل سلطان فى ذلك المكان ثم ألوى راجعاً إلى
الأوطان.

ذكر ما فعله بير محمد بعد انكساره

وما صنعه بعد وصوله إلى قندهاره

ولما وصل بير محمد إلى قندهار، واستقرت به الدار وتملت أموره وحامت حول قصوره صقوره، ودارت من سيارات عسكره بدوره تدوره تسعرت سموه وحروره، وتطايير شراره وشروره، ففارق وتمرق وتمرق أسفاً قبله، وتخرق وتمزق غيظاً أديمه وتفارق، وكان ذا حماقة وقلة لياقة، فطير أجنحة مراسيمه إلى سكان أقاليمه، واستنهض على خليل سلطان كل حبيب صحيح الود وكليمه، واستطب لجريح قلبه كل قريح الطعن والضرب، وكل لذيغ القلب وسليمه، فلبوا دعوته بالإطاعة وأجابوا نداء بالسمع والطاعة.

ثم سالت الأودية والجبال بالخييل والرجال، وأرسل إلى خليل يقول ضمن كتاب مع رسول أن أول مصافتنا كان فلة فتمت وشزارة نستوهن في إطفائنا فالتهبت وطمت، ولو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت وتحذرت واستحققت واستكبرت ما استصغرت لانتصرت وما انكسرت، ولعثرت على مرادى وما عثرت، ولكن أضعت الحزامة فحرمت السلامة، وتناولت أمرك براءوس الأنامل، فأكلت يدى ندامة، مع أن صليبة جندك وقوة ظهرك وعضدك، ونبال نبالتك وساعد سعدك، وعضب عضبتك، ورمح رشدك وخد صارمك وصرامة حدك، إنما كان رءوس العراق وما حصل لك منهم من الاتفاق، وظهر تباعد وشقاق، ففت لذلك كبذك واختل فكرك وجندك، وما أنا قد جئتكم بجدد جديد، وبالحدد والحديد، فاستعد للقاء وتيقن عدم البقاء،

فإن الحرب كما علمت سجال، وكما أدبل علينا بالأمس، فإن غداً لنا عليك يدال .



ذكر توجه بير محمد لمقابلة خليل سلطان ثانی كرة وما حصل عليه فی ذلك من كرة وفرة وتولیتة الدبر كما بدأ أول مرة

ثم توجه بتلك الجنود والأعوان، وقطع جيحون ووصل إلى مكان يسمى حصار شادمان، فتوجه إليه خليل سلطان ومعه من عساكر الرجال الفرسان، وجراد الجيش وقمله وضافدعه ما يجري من الدم الطوفان، فمر بتلك الأطواد والبحار وسرى، وهو ما بين رأس وسار حتى وافا جنود قندهار.

وكان كما ذكر قبل قد قدح في حراق أحشاء العساكر القندهارية من خوف نار الخليل زناد النبل، فكانوا ملسوعين والمسلوع يخاف من جر الحبل، فقبل أن يزق النفير ويضرب الطبل نفر من كل فرقة منهم طائفة، وتنادوا أزفت الآزفة ليس لهم من دون الله كاشفة، فألبس بير محمد خلعة الخلع، ولم يكن له بها طوق فأقلع إلى القلعة القلع، وأوصد الأبواب وأحكم الأسوار، واستعد في حصار شادمان للحصار فأحاط به من العساكر كل جارج وكاسر ودار عليه من بنى يافث كل سام وحام، وجد في المحاصرة منهم كل طاعن وضارب ورام، فتندم بير محمد عى قصد فى ذلك وتعتمد

وتذكر ما قال له أول الخواجا عبد الأول، لكنه اعتذر بالقضاء والقدر، فرماه القضاء بسهم جواب أجاد فيه وأصاب وقال:

وعاجز إلى أى مضياح لفرسته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فانعكس منه كل رأى وقال وتغير عليه كل أمر وجمال، وذهب عنه منعطفًا ما بيده من ملك ومال، ونفر عنه كل أسد أصلى للحرب نارًا حامية، لما سطا على حام وصال، ورجع عنه لسوء تدبيره كل ذى قرابة حين لمع له بالأمانى الكاذبة كل سراب وال، وتمزقت شقق تدبيره على منوال تفكيره سداء ولحمة فلم يبق له من دون الله منوال.

ذكر ما صنعه بير محمد من حيلة

عادت عليه بأفكاره الوبيلة لأن جدواها كانت قليلة

ولما عدم حوله أخذ فى إعمال الحيلة فاستدعى عدة مضبوطة من الجلود المخطوطة المجادة الدباغ، المصبوغة بألوان الأصباغ، ثم فصلها بوسًا لكل بوسا وسمر عليه المرايا المصقولة وبعض صفاح معمولة وموهها وأحكمها بالمسامير، وأحضر من سوقة بلده رءوس الجماهير، واستكثر من الرعاع والهمج الجموع، ثم أحضر تلك الدلاص والدروع، ووزع على تلك الرءوس والظهار هاتيك النطوع، فصاروا كلما صارت الشمس بازغة أصعد إلى الأسوار، وخارج البلد تلك الأسود وعليهم تلك الدروع السابغة، فإذا أراهم

الناظر من بعيد توهم رجلاً، ولم يعلم أنهم بندق العيد، وإذا تراءى ذلك الهباء والخشعور الذى ملأ الفضاء كسراب بقيعة، يحسبه الظن ماء .

واستمر على ذلك مدة يقاسى معاناة ويعانى شدة، وكان الذى تعاطى هذا المكر الجلى دستور مملكته، أعنى بير على ومع ذلك كله لم ينفعه هذه الحيلة، وعادت عليه أفكاره الوخيمة ووساوسه الويلة وانكشف سره وانتهك ستره، فضاق ذرعاً وقصر منه باع المجال، ومد بنقص عدد وعدده وزاده الدهر النكال .



ذكر اعتراف بير محمد أنه ظلم وطلبه الصلح والقائه السلم

فبسط بساط التضرع وطلب وسائط التشفيع، وعلم أنه لا عاصم من أمر الله إلا من رحم، فناشد خليل سلطان الله والرحم، وقال معنى ما قلت :

يعطى الكريم ولا يمل من العطا والعفو شيمته إذا وقع الخطا

فأجاب خليل سلطان مقاصده، وتأكدت من الطرفين معاهدة المعاهدة، بأن لا يقصد أحد منهم بلاد صاحبه، وإذا كان الله تعالى رفعه، لا يضع من جانبه، ويسلم إليه ما فى يده، ويبقى على الود الصادقة فى يومه وغده، ثم تحالفا أن لا يتخالفا وتوافقا أن يتوافقا، وتصادفا أن يتصادقا وتفرقا على أن يترافقا وتوافقا أن لا يتناقفا. وراقبا الإل والذمة وراعيا القرابة والحرمة، وإنشمر كل عن صاحبه بما معه من فيه وذلك فى سنة تسع وثمان مائة.

ذكر مخالفة ونكد بين بير محمد أزاحت ثوب الحياة عنهما وأراحت مخالفيهما منهما

ولما وصل بير محمد إلى وطنه، وساتقر بين خدمه وسكنه، خرج عليه بير على تار واستقل بدعوى الملك وامتار، ثم قبض عليه وكيله، ثم إنه خذله وجدله وشرع يقول وهو يصول ويجول، أمور الدنيا اضطربت وأشرط الساعة اقتربت، وهذه دولة الدجالين وأوان تغليب الكذابين والمعتالين.

مضى تيمور وهو الدجال الأعرج، وهذا زمان الدجال الأقرع، وسيأتى بعد هذا الدجال الأعور، وإن كان أحداً يجزع من قرع باب السلطنة، فأنا أقرع فلم يجب أحد من الرؤوس والأذنان سؤاله، ولا أنعم بما أقر عينه، وأنعم باله إذ لم يوجد فى تناول هذا الأمر المحظور أمر مبيح، ولم يكن لذلك الوعد فى سهام الملك غير المنيع والسفيح، فدعا أرباب ممالكها تضرعاً وخيفة، فكشر كل فى وجهه أنيابه وجادبه هذه الجفة، فلم يبق له فرار ولا ثبات فسل يده ومد رجله صوب صاحب هراة، فبمجرد وقوعه عنده فى شرك الاقتناص، قبض عليه وأجرى عليه أحكام القصاص، وصفت له ممالك قندهار من غير مضارب ولا مضار، واستراح خليل سلطان أيضاً من الأنكاد والمضار.

ذكر ما وقع من حوادث الزمان فى غيبة خليل سلطان

وفى هذه السنة بادرت بالهجوم تثار الروم، ووصلوا بالعزم وقطعوا جيحون بالرجل وهو جمد من خوارزم، وقصدوا بلادهم فتصدى لهم من كل جانب من شتتهم وأبادهم، وحصل لهم من عدم الاتفاق ما حصل لعساكر العراق، وأيضاً فى غيبة السلطان خليل واشتغاله بهذا السفر الطويل، اغتتم الفرصة خدائداد وشيخ نور الدين، فتوجهوا إلى سمرقند مطمئنين وأحنوا عليها ونهبوا ما حوالىها فتحصنت منهم وترفعت عنهم، فنهبوا خارجها ورجعوا ونحو بلادهم انقلعوا.

ذكر تجريد خليل سلطان الأجناد وتوجهه إلى شيخ نور الدين وخدائداد

ولما رجع خيل إلى سمرقنده، أراح طوائف عسكره وجنده، ثم دعا أصحابه ووجه نحوهما ركابه، وجعل دأبهما ودأبه، وسار بتلك القبائل المضطربة والأسود الخوادر والفحول المغتلمة، واستمر ذلك المطود الركون بين حركة وسكون، حتى وصل إلى سيحون وحين شرع ذلك الطور والنار ذات النور على نهر سيحون فى العبور، رأيت البحر المسجور، فأذعن له شاه رعية

ونجند وتحصنت منه تاش كند، فتوجه لحصارها وعزم على هدم أحجارها بعد أن حاصرها مدة، وأذاقها لباس الجوع والشدة لجأت إلى طلب الأمان، وسلمت إليه قياد الإذعان، فأجاب سؤالها ورفع بالصلح حالها، ثم قفى آثارهما طالباً دمارهما.



ذكر إيفاد شيخ نور الدين وخدايداد ناراً للخليل ليحرقاه فأطفأها الله تعالى ووقاه

وكان خدايداد وشيخ نور الدين يحومان حول الحمى، ويترقبان من فرص النهب والسلب ومعانى عسى ولعلما، فتوجه وراءهما ورام لقائهما، فجعل يرحلان بمرأى منه ومسمع، وينزلان بمأمل فيهما ومطمع، وجعل يعتقبهما فى كل منزل، فإذا رحلا يتبع قفاهما ويزل، وكان خليل سلطان معتمداً على عسكره مستيقناً بحلول نصره وظفره، فكأنه فى بعض الليالى غفل عن التحرس، وكان لهم فى جيشه من دأبه التجسس والتحسس، فخيه الظن وخانه، وحط على مكان يسمى شربخانه، وكان قد تقدم على الثقل فصار جاسوسهما إليهما بما فعل، فأقبلا كالسيل وبيتاه بالليل، فخرج من عسكره جماعة، وكأنما قامت القيامة فى تلك الساعة، ثم تركاه وردا وفرا عنه ومدا وتشتتا فى المهامة والموامى، ومن أين للسلطان اقتناص الجرمين، فكف عنهما الطلب وقصد بالسلاطة دياره وانقلب.

مفارقة شيخ نور الدين خدايداد

وتقاسمهما تلك البلاد

ولما كانت مودة خدايداد وشيخ نور الدين كالجرة الفخار، وأساس ما بينهما من الصداقة كمن أسس بنيانه على شفا جرف هار، اختلفا وما اختلفا وتجاد باشقة الشقاق، ونفق في تباعيهما بضائع النفاق، ولم يعلم أحد من راق، وظن أنه الفراق فقهقر شيخ نور الدين نحو سغناق، واستولى على تلك الأطراف والآفاق.

رجوع شيخ نور الدين إلى الاعتذار

والتنصل عند خليفه مما كان منه وصار

ثم راسل شيخ نور الدين خليل سلطان، واعتذر عما صدر منه من العصيان وطلب أن يقابل رساءته بالإحسان، ويرجع إليه عوائد صدقاته كما كان، فأجابه إلى سؤاله وأسبل على سؤة جرمه ذيل النسيان، وأرسل إليه امراً جده تومان.

فصل

ولم يزل على الوفاق وشق شقة الشقاق مرتباً ربة الوفاق، حتى وقع خليل سلطان فى الرباق، وصفا لشاه رخ سمرقند وراق، وتوجه إليه شاه ملك مظهر الصلح ومضمر النفاق، واستنزله بالمكر من قلعة سغناق، بعد أن أحكما العهد والميثاق، ووقع بينهما الاتفاق، وأن يتلاقيا ركباً، ويتباحثا الأشواق بعد السلام والاستسلام والعناق، وكان فى جماعة شاه ملك شخص يدعى أرغوداق، ثم أقبل شاه ملك بجماعة، ونزل شيخ نور الدين من قلعة وساق شاه ملك وحده من غير عدد وعُدّة، وتعانق هو وذلك المغرور، وبثه ما نابه فى غيبته من أمور وسرور وشرور.

فأكد عليه الميثاق والعهد، ووصى كل منهما ما يفعله الآخر من بعد، ثم ودعه وانصرف واتصل بجماعته ووقف وسارع كل من جماعته بمفرده إلى مصافحته شيخ نور الدين، وتبيل يده حتى أقضت النوبة إلى أرغوداق، فتوجه بما أضمره من الخداع والنفاق، وكان فى الشجاعة أسداً، وكالفيل قوة وجسداً فوصل إليه وقبل يديه، ثم التزمه عناءاً وأحكمه اعتناقاً، فاقتلعه من سرجه وأهبط نجمة برجه وقطع رأسه وفجع به ناسه.

ولما سمع بذلك شاه رخ طفق يندب ويصرخ ولعن شاه ملك ونهره وضرب أرغوداق وشهره، ولكن ما أمكنه وصل ما قطناه ولا غرس ما قلعاها كما قيل، وليس لما يطوى المينة ناشر، واستمر مدة لا ينظر إليهما، ثم بعد ذلك رضى عليهما، واستمر خدائداد متشبهاً بأذيال العناد مشركاً بين العتو والفساد، غير مسلم إلى الصلح القياد، إلى أن أباره الدهر وأباد، وسنذكر كيف جاد بإعدامه وأجاد.



ذكر أمر خليل سلطان ببناء ترمذ إلى خريها جنكيز خان وتجهيزه العساكر لهذا الشأن

ثم فى شهر صفر سنة عشر وثمان مائة أرسل خليل سلطان من الجنود فيه، وأضافهم إلى الله داد وضم إليهم من الرءوس والأجناد منهم: إلياس خواجة، وابن قمارى منصور، وتوكل قرقر، ودولة تيمور إلى ترمذ مع آخرين ليعمروها فاستمروا سائرين حتى وصلوا إلى ترمذ، فجمعوا فى الحال احتياجاتهم من الأحجار والأخشاب والقرمذ، ثم تقاسمت تلك الرءوس أبدانها وعلوا عن أن يتصور قلة أسوارها وحيطانها، وجعلوا يعملون ولا يلبثون ويبنون بكل ربع منها آية يعبثون، وتركوا بالنهار أكلاً وبالليل نوماً فأنموا بنيانها فى نحو من خمسة عشر يوماً، وحين ميزوا محلاتها وفرزوا دروبها وطرقاتها ورفعوا أعلام مجاسدها ومناراتها، وبينوا مواضع أسواقها وأبيائها أمروا الباقين من درية النازحين عنها من أهلها، وكل من رحل من خراب وغرها إلى عمران سهلها أن يرجعوا إليها ويختموا عليها.

وكان أولئك المساكين قد استوطنوا منها فى البساتين، وبنوا فيها أسواقهم وبيوتهم وجمعوا فيها أسباب معاشهم وقوتهم، واستمر ذلك من وقت جنكيز خان إلى وقت تيمور كوركمان، فكانوا فى وطنهم آمين، وعن حركات الانزعاج والتقلقل ساكنين، فلما مات تيمور وحدث شذور وأمور أراد خليل سلطان أن يصونهم، فأرسل من شيد حصونهم، وكانت الجديدة عن العتيقة نحواً من فرسخ، فصارت العتيقة أحصن من الجديدة، وأرسخ

لا سيما وقد على الباقون منارها ونهر جيحون يصفح أقدام طود حمل أسوارها بخلاف الجديدة، فإن قصور مساكنها غير مشيدة، وهى عن النهر بعيدة.

فلما نادوا الناس أن أدخلوا إلى دار قراركم، فكأنهم كتبوا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم، فلم يقل الله داد عليهم ولا كرب فى ذلك، ولا التفت إليهم ولم يظهر فى ذلك عناداً، ولكنه حشر فنادى أن كل من سبقت يده من أهل البلد إلى شىء من هذه الأماكن والعمائر الجدد، فهو له من غير منازع ولا ممانع ولا مدافع، ثم أمر بانتقال الخبازين والقصابين والطباخين والسمانين، وميز لهم منزلهم ومأواهم، ولم يتعرض لمن سواهم فجعلوا يبيعون على العساكر، ويشترون ويربحون فى ذلك ولا يخسرون، فاختل نظام سائر الجمع إذا لإنسان مدنى بالطبع، فألجأهم الاضطراب أن يتبعوهم بالاختيار، ففقد ما يليق يليق به أحوال كل من كبيرهم وصغيرهم، وقرر على ما اقتضته أوامره قواعد أمورهم، ثم جمع رؤوس جنده وقفل إلى سمرقنده.



ذكر ما فعله شاه رخ من جهة خراسان ورده على ما فعله خليل سلطان

ولما سمع شاه رخ بما فعله خليل سلطان جهز طائفة من عساكر خراسان، وجعل يمد ذلك السحاب المنجاب من بحر أمر أمير يدعى مرزاب،

وهو أخو جهان شاه الذى كان تيمور على محاصرة قلعة دمشق، ولأه وأمر
رءوس أقصى بلاد خراسان يفصل بينها وبين ترمذ نهر جيحون، ففعلت من
البناء والعساكر الخراسانية، نحو ما أعربت عنه العساكر الخليل سلطانية، وفى
أثناء مدة البناء ترأس الله داد ومرزاب وتصافيا وتواصل بالاحتشام والاحترام
وتهادنا.

إشارة إلى ما حدث فى أقاليم إيران وما جرى من سيول الدماء عند نضوب ذلك الطوفان

ثم إن سلطان أحمد وقرا يوسف رجعا إلى العراق، ووقع بينهما على
سياسة الملك الاتفاق، واستقر سلطان أحمد فى بغداد ووثب قرا يوسف على
الجبغى بالعباد، ليستخلص منهم البلاد، وكتب الفتح على راياته آيات نصر
من الله، فاستخلص ممالك أذربيجان بعد أن أباد طوائفهم، وقتل أميرانشاه
ومد عنان الكلام فى استيفاء هذا المقام، يخرجنا عما نحن بصدده من المرام،
إلى أن وقع بينهما الشقاق، وتخلطت أذربيجان والعراق.

ثم قتل قرا يوسف السلطان أحمد بن إشارة نظام، وذلك فى شهور سنة
ثلاثة عشر وسبعمائة من هجرة النبى ﷺ، وأما عراق العجم فإنها كانت
أحصن أجم، فاستقل بدعوى الملك متوليها بير عمر، فتهض عليه ذو قرابة له
يدعى إسكندر، فقابله وكسره، ثم قبض عليه وهصره واستقل بدعواه، فتوجه

إليه شاه رخ صاحب هراة، فقبض عليه وأباده، وفجع به أهله وأولاده واستصفى بلاده، فخلص لشاه رخ ممالك العجم كلها، وانثال إلى خزانته من أموالها وابلها وطلها من غير أن يعانى فى ذلك نصباً، أو يقاسى فى تحصيله تعباً ووصياً، مع أن مملكته كانت أوسط الممالك، فلم يتطرق إليه أحد بسوء لذلك، وأنه كان حسن الجوار قليل الحركة وأبوه قد حسم عنه بقتله ملوك العجم مادة كل شر وهلكه، فثبت فى مكانه بين أسود شمخت ونبت وكبت ماله من الأعداء، بما له من أصدقاء وثبت، فاهتزت أراضى دولته بنبات الثبات وربت، وكان عيون السعد كانت تراقبه وعرائس الملك تناجيه وتخاطبه بقوله:

نزه فؤادك عن سوانا والقنا فـجـنابنا حل لكل متره
والصير طلسم الكنز وصالنا من حل ذا الطلسم فاز بكتره

ذكر خروج الناس من الحصر وطلبهم أوطانهم من ما وراء النهر

وفى أثناء هذه الحالات قصد الناس من سمرقند التبدد والشتات، وطلب كل غريب وطنه، وتحرك يبغي سكنه وقطنه، إما بإجازة واحتما، وإما بهزيمة واختفا، فأول من استجار من أهل الشام، ورام المسير شهاب الدين أحمد ابن الشهيد الزبير، ثم تفرقت الطوائف عجماً وعرباً وتبددوا فى الآفاق شرقاً

وغرباً، ووقع فى سمرقند القحط وغلاء الأسعار، ولم يرخص بين الناس سوى الدرهم والدينار، ثم حصل بعد ذلك الرفاهية، واجتمع للناس الرجا والأمنية، وطاب الزمان وحصل الأمان، وذهب المقت وصفا الوقت.

وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ذكر ما آثار الزمان الغدار من دمار وبيوار ألقى به الإخيل فى النار

وكان خليل سلطان تزوج شاه ملك زوج سيف الدين الأمير، ومسكه سلطان هواها، فكان فيه كالأسير مال بكل جوانحه إليها، بحيث إنه قصر نظره عليها، وصارت محبته تزداد وأنست قصته قيس وليلى وشيرين وفرهاد، فكان كما قيل:

أعانقها والنفس بعد مشرقة إليها وهل بعد العناق تدان

والثم فاها كى تزول صبابتى فيشتد ما ألقى من الهيمان

كان فؤادى ليس يهدى الذى به إلى أن يرى الروحان تجتمعان

واستمر ذلك إلى ران هواها على قلبه وأخذ بمجامع له، وربط جوارحه وحل جوانحه، وفصل قميصاً واسعاً فكانا يلبسانه واتحد، فصار ينطق بلسانها وتنطق بلسانه، وصارا ينشدان إلى حالهما يرشدان:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
بل كانت القضية بالعكس قلت:

إنما كانا بروح نفخت مدبراها ربها فى بدنين

وكان لا يصدر أمراً إلا عن رأيها، ولا يستضى فى سياسة المل إلا
بآرائها، فسلمها قياده واتبع مرادها مراده، وهذا من غاية البله والعتة، وكيف
يفلح من ملك قياده امرأته، وكان لها خادم قديم، ليس من بنى الأحرار ولا
بكريم، بل كان من أطراف الناس يبيع البر والكرباس، يدعى بابا ترمس
بطرف معمش ووجه منمش، وصورة قبيحة وسيرة غير مليحة، وكان يتقاضى
حوائجها، ويدخل عليها قبل وصول خليل سلطان إليها.

فلما وصلت مخدومته إلى ما وصلت، وحصلت لها المرتبة التى لغيرها
ما حصلت، ارتفعت درجة خدمتها وزادات حشمه حشمها، فاستفاد بابا
ترمس من إضافته إليها التعظيم، وبحسب كرامة المخدم يحصل للخادم
التكريم، فصار يرأس جماعتها ويسوسهم ويمجالستها تجلّى بخلة هم القوم لا
يشقى جلسهم، ثم ترقى حتى صار عليه مدار أمرها، ثم تخطت قدمه إلى
التكلم فى أسباب الملك وغيرها.

ثم تدرج إلى فصل المحاكمات الديوانية، وإجراء القضايا السلطانية، ثم
ترفع إلى التولية والعزل وتعاطى ذلك على سبيل الجد والهزل، وانتهى فى
ذلك، فصار دستور الممالك، ولم يقدر أحد على رد كلمته لحدة شوكتة بقوة
مخدومته. فبسط يده ولسانه، كما اختار وامثل، كلما أمر به وأشار واستطال
على الله داد وأرغون شاه، فصار يبرم ما ينقضانه، وينقض ما أبرماه، وبلغ
فى قلة الأدب إلى أن كان يمد رجله بحضرتهم، ولا يقيم بذرة من واجب

حرمتهما، ثم حجر أن لا يفصل قضية إلا بمشورته، وإن كان غائباً فينظر حضوره أو يتوجه إلى حضرته، ومن حين نبع إلى ما بلغ كان نحواً من ثلاث سنين، وعفاريت الجغتاي وجههم لاثين معه فى العذاب المهين، فحصل لالله داد وأرغون شاه من هذا التدرج غاية الضرر ونهاية التحرج، وبلغا الغابة فى الأهانة والنكاية، وأعزل داءهما وأعجز دواهما واستلذ ذهاب العيش وزواله على البقاء على هذه الحالة.

ذكر ما افكره الله داد ودبره فى مراسلة خدايداد

ثم إن الله داد استعمل فكره، ولكن أخطت أسته الحضرة فطنح قدراً، فانقلبت عليه ونسج كدود القز شبكة حتفه بيده. قلت:

إذا انعكس الزمان على لبيب يحسن رأيه ما كان قبحاً
تعانى كل أمر ليس يعنى ويفسد ما رآه الناس صلحاً

فلم يجدا لتبريد الأكباد إلا مراسلة خدايداد، فجليا عليه صورة هذه القضية وأخبراه بها عن ووضح وجلية، وأشارا عليه أن يتوجه بأمل فسيح، ويقصد بعساكره سمرقند، وخاطره مستريح، فنهض من ساعته وتوجه بجيشه وجماعته، ودب ديبب الدبا، فوصل إلى مكان يدعى أوراتبا، فلما سمع بذلك خليل سلطان، أرسل إلى الجنود والأعوان، وتعجب من وقاحته وتعود من كلاحته، وجهز الله داد وأرغون شاه مع العساكر الجرارة للملاقاة فقابلاه

وما قاتلاه، ثم أرسل إلى خليل سلطان يستدعيان المدد، ويقولان إن هذا الرجل بلغ من ملاحاته، وشدة دعارته وقلة مبالاته أنه لم يتزعزع من مناخه، ولا دخل ريح هيتنا في صماخه، فأمدهما بياقى العسكر، وجعل يتشوف لما يكون من الخبر، فأرسلوا أيضاً أن هذا قد آذى وزاد فساداً وجارى في عداوته ثموداً وعاداً، فأمدنا بنفسك وأدركنا بحدسك وحسك، فإن هيتك أقوى وطلعتك أضوى.

وما ارتكب هذه الجرأة ولا أقدم على هذه الجية إلا قد أضمر شراً كثيراً، وطوى في باطنه قاراً وقيراً، فأدركنا بياقى المقاتلة، فإن هذه المرة تكون الفاصلة فخرج خليل سلطان بقلب مطمئن، وخاطر عن حلول الحوادث مستكن، وأمل فسيح وصدر منشرح معجباً بشبابه مغرماً بأصحابه، متمائلاً بين أحبابه متهادناً بين أترابه في شردمة قليلة وطائفة نبيلة، أبعد ما عنده نزول هم وأشرد ما لديه حلول نكد وغم يفديه الكمال ويناديه لسان الحال بقوله:

ته دلالة فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاك

فوصل بتلك العصابة السلطانية إلى قصبة تسمى سلطانية، فأرسل الله داد إلى خدائداد أن الركاب السلطاني خرج من سمرقند في اليوم الفلاني، وفي الساعة الفلانية يحل كورة سلطانية.

ذكر ما قصده خدايداد من الكيد ووقع خليل سلطان فى قنص الصيد

فقصد خدايداد المخاتلة وترك ثقله مقابل المقاتلة ، ونبذ العساكر وراء
شههره وتأبط شر شراره وهراوة هره ، واستصحب من أبطال القتال ورجال
النضال والنزال ، طائفة جاسرة غير خائفة .

رزان إذا لاقوا خفاف إذا دعوا كثير إذا شدوا قليل إذا دعوا
والتحف ذيل الليل ولطى فى ظهر الخيل ، واستطرق إلى مطلوبه طريقاً
عوجاً ، واستقود إلى مقصوده قواد الدجى كما قيل :

لا تلق إلا بليل من تواصله فالشمس نامة والليل قواد

حتى وصل إلى سلطانية وهى قصبة أنشأها تيمور ، ولم يكن لأحد به
شعور ، فلم يفجأ خليل سلطان إلا وقد جاءه موج البلاء من كل مكان ،
قنهض كل من معه من الأصحاب ، وأخذوا فى الحرب والضرب والضراب ،
وقاتلوا قتال الموت ، وأيقنوا حلول الفوت ، فعضت عليهم الحرب العضوض ،
وطرحتهم ما بين مهشوم وموقود ومرضوض ، فقتل حقيرهم وجليلهم ، ووقع
فى نار عدوهم حبيهم وخلييلهم ، ثم رجع خدايداد إلى معسكره فائزاً ينجحه
مستبشراً بظفره .

فصل

ثم إن خدائداد حلف لخليل سلطان بأشد ما يكون، وأبلغ من أنواع الإيمان أنه لا يقصده بأذى ولا يرمى فى عين معيشتة بخيال قذا، ولا يؤذيه بقول ولا عمل ولا يسلط عليه من يؤذيه بمكر ودخل، وسيرى نتيجة ما حلف، وأن الله تعالى عفا عما سلف.

فصل

ثم التمس منه أن يرسل إلى الله داد، فمن دونه من الأجناد أن يستسلموا لخدائداد، وأرسل خدائداد أيضاً إلى الناس، بأنى قد استوليت منكم على الرأس، فإن أطعتمونى أطعته، وإن لم تصلونى قطعته، ولما وقع خليل سلطان فى هذا الكرب، تصور أن هذا سهم غرب، ثم ظهر له مكان ذلك المكن، وتحقق كيف أخذ فى المأمن، وعلم من أين صب ذلك البلاء عليه، وأنى أخذ من الجانب الذى يأمن إليه، فقال بلسان الحال:

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا ولا بينه ود ولا نتعارف
فما سامنا خسفاً ولا شفتنا أذى من الناس إلا من نود وبألف
ثم أرسل إلى سائر الأمراء ورؤساء الجيش والوزراء، أن يستسلموا لخدائداد ولا ينازعوه ولا يدافعوه، فيما يريد لا يمانعوه، فاستسلم الكل إليه واستقبل ذراه، وسلم عليه فاستولى على تلك الجنود المجندة، وتحصن من عوائى المخاتل بالرماح المسددة والسيوف المهندة، وقدم جنود جند وخجند وإغتام تركستان وطغام أوزجند، وآخر من سوى أولئك وتقدم إلى سمرقند، ولم يلتفت إلى الله داد، فمن دونه وتحقق الله داد أن صفقته فى ذلك مغبونة،

فسلخ الزمان عنه ما كان فيه من جاه ومال وذهب، وكان قيام ذلك الحشر في سنة ثمان مائة واثنى عشر.

ذكر ما جرى من الفساد بسمرقند عند قدوم خدائداد

فوصل خدائداد إلى سمرقند ودخل، فتغيرت تلك الرسوم والدول، وكأنه ظهر اختلاف الملل والنحل، وكان له ابن يدعى الله داد، فدعاه السلطان على رؤوس الأشهاد، وتفحص عن مكامن الخزائن، ونقب في أطواها عن الفلزات والمعادن، ونقر عن مضمرة الضمار، وبحث عن الخبايا والدفائن وتغيرت الأوضاع وتبدلت بلفضاة رفاق الطباع وصاروا كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها
وتنكرت الصفات حتى كأنما تحولت الذوات، أو بدلت الأرض غير الأرض والسموات.

وتنكرت أرض الغوير فلم يكن ذاك الغوير ولا النقا ذاك النقا

ذكر بلوغ هذه الأمور شهرخ بن تيمور وتلافيه تلك الحوادث وحشمة مادة تلك العواث

ولما اتصل شاه رخ هذا الخبر عيس وبسر، وتضجر وزمجر وأزور
وأكفهر وتغير وجهه وتمعر، واستنعات وتقلق، وولول واسترجع وحولق
وتحرق وتنكد وتأوه وأنشد:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

ثم طير بطايق مراسيمه كل مطير إلى أطراف الكه، يجمع العسكر
وأمر شاه ملك أن يسير غير مرتبك، ويستديم السير ويسابق بعناقه عتاق
الطير، فيتدارك ما انفطر من النظام، ويطازد عن ورد المملكة الإغتمام،
فلا يدع رائدهم أن يحل ويعاجل مستعجل قديرهم أن يمل، فسار شاه ملك
في الحال بعساكره في المدد كالجال، وفي العدد كالرمال، ثم أتبعه شاه رخ
بسائر الأساورة وكواسر الأكاسرة، وسار لا يلوى على أحد ولا يركن في
حركته إلى طالع ولا رصد.

فحين وصلوا جيحون وعبروه، غطوا وجهه وستروه، فانبسط ذلك
السيل على وجه الماء، فكان البحر غطى بالغمام والمراكب في بحر الحياء

فصل

ولما قطع البحر تلك الأطواد، واتصل الخبر بخدايداد، تيقن أنه لا طاقة
لدبابه وقروده بذئاب جنود شاه رخ وأسوده، وإن جل عساكره يفر عنه

ويسلمه، أو يقبض عليه ولشاه رخ يسلمه، فأسرع في تنجيز مآربه، وبادر إلى تجهيز مطالبه، وأخذ ما وصلت يده إليه من أموال، وأوسق ما بلغت طاقته من نفائس وأحمال، واستصحب خليل سلطان، وتوجه إلى إيدكان وأودع الله داد وأرغون شاه وبابا ترمس في القلعة، وأنف أن يستصحب أحداً منهم معه، وترك شاه ملك أيضاً في المدينة بفراق خليلها رهينة، ويسلب ما كانت فيه من العز مهينة.



ذكر ما جرى بسمرقند بعد خروج الجنود الجندية وقبل وصول الشواهين الشاهرخية

ثم لما رحل خدايداد وانفصل، ولم يكن أحد من جهة شاه رخ وصل، وما كان للناس ظهر ولا رأس أراد الله داد وأرغون شاه أن يتوجها إلى شاه رخ ويستقبلاه، فرفع خواجه عبد الأول عليهما بشطار المدينة، وكان الله داد قبل ذلك أنكاه نكاية أورثته ضغينة وكما قيل:

من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً

فلم يختلف في رئاسته اثنان ولا ابتطح فيما يأمرهم به عنزان، وصارت اشارته بالآمرة الناهية وجداول مراسيمه فيما بين الناس جارية، وأوامره المطاعة في تلك الأيام الخالية مصراع.

والعلم يرفع بيتاً لا عماد له

ولم يزل خواجة عبد الأول يسوس الرعية، ويوصى على الله داد ورفيقه، ومن معهم ويشدد مضائق القضية إلى أن طلعت طلائع شاه ملك، وأعقبتها العساكر الشاهرخية.



تدور بدور الدولة الشاهرخية فى سماء ممالك ما وراء النهر بعد غروب شمس النوبة الخيلية

فخرج أهل المدينة لاستقباله مستبشرين بإوية جين هلاله، فنزل كل أحد فى منزلته، ووضع كلا من الناس فى مرتبته، ثم قبض على الله داد ورفيقه وعماقبيهم بأنواع العقاب، وصنف فى تعذيبهم واستخلاص الأموال منهم أنواع العذاب، ثم قتلهم صبراً ونقلهم من الدنيا إلى الآخرة، إلا بابا ترمس فإنهم عاقبوه، وبأنواع العذاب الهبوسة، ففى بعض الأيام، قد أنكت فيه من العذاب الآلام، أخذ الموكلين عليه ليطلعهم على قضية، أو يذهب بهم إلى خبية، فمروا به وهو نى قيد وثيق، على حوض ماء عريض عميق، فاستل من قراب أيديهم غضب يده الدلق، ورمى بنفسه وزج فى ذلك الماء على غفلة فغرق.

فصل

ثم إن شاه رخ زار أياه وأقام شرائط عزاه، وجدد ترتيب القراء على تربته والقومة، واستأنف معالم المرتبتين فى ذلك والخدمة، ونقل إلى خزائنه جل ما كان على حفرته من أقمشه وأمتعته وأسلحته، وعفر بيادر الخزائن،

وحفر تخوم تلك الكمائن، وشرع فى تمهيد القواعد وترتيب مراتب الأقارب والأباعد.

فصل

وقبضوا على شاد ملك وأهانوها وشانوها ابتداءً لمن صادوها وعصبوها بالعذاب عصب السلمة وهزوها لاستخراج الأموال، منها هزات أعوان الظلمة، ثم بعد ذلك الابتدال واستخلاصهم منها أنواع المال حزموها وشددوا منها الوثاق وشهروها منادين عليها فى الأسواق، واستقرت على شاه رخ الأمور وارتفعت صدور وانقصمت ظهور وعلا إنسان وانحط إنسان، فسيحان من هو كل يوم فى شأن، عز شأنه وتعالى سلطانه، يغير الدول ويقلب الأحوال ولا يعترى سلطانه تغير ولا انتقال.

ذكر ما قصده خدائداد من إتمام النكد والفساد وكيف آل ذلك النكال إلى أن جرى عليه وبال

وأما خدائداد فحين حل فى مكانه، وخلا بحليل سلطانه فى إندكانه جدد معه عهوده وموائقه، وأنه آمنه مكره وبوائقه، وذكر أن ذلك النكال والنكاد، انما فعله معه أرغون شاه والله داد مع إحسانه إليهم، وإسبال ذيل إنعامه عليهم، وأنهم كافأوه مكافأة التماسح، وقابلوا بإفسادهم منه الإصلاح، ثم قال له اذكر صنيعك معى زولاً وظاهراً، وانظر ما أفعله معك باطناً

وآخرًا، وسأفعل معك ما يتحقق به خلوص الطوية وصدق النية، بحيث يذهب الكدر ويبقى الصفا وينمحي الجفا ويثبت الوفا، ونعيش باقى عمرنا متصافيين، وفى رياض الهنا متوافيين متكافئين، وسأدرك إن شاء الله تعالى إلى دار عزتك، واجتهد فى تحصيل ما يعيدك إلى نشاطك وهزتك، ثم خطب باسمه فى إنديكان وأمر بذل فى أطراف تركستان.



تتمة ما جرى من خليل وخذائداد من المعاهدات وتأكيد العهود والمودات إلى أن أدركهما هادم الذات

ثم أكد بينهما وثائق الإيمان، وذهب خدائداد يستمد المغول لخليل سلطان، وترك خليل سلطان بإنديكان، وكان المغول لما بلغهم موت تيمور المخدول سلبوا قرارهم وأخلوا ديارهم، ولجأوا إلى الحصون وتشبثوا بأذيال كل كهف مصون، كما ذكر أولاً، فلما تحققوا موته واستثبتوا فوته تنادوا بالأمن والأمان، وجاوروا خدائداد فى ذلك المكان، وأرسلوا يهتثون خليل سلطان وبعثوا إليه هدايا سنية وتحفاً فاخرة ملوكية من جملتها كرسى من ذهب أفرغه صائغه فى غاية العجب، فأكرم خليل سلطان رسلهم وأعظم نزلهم، وأجمل معهم جواراً وأجرأً وجازاً لهم بكل حسنة عشرأ. قلت:

الخير أبقى وإن طال الزمان به

والشر أخبت ما أوعيت من زاد

ولا زالت خلع المودة بينهم تنتسج ووجوه المكارمة والمحاشمة يوماً فيوماً
تبتهج حتى عزى له ما عزى، وجرى عليه من بحر القضاء والقدر ما جرى،
فساعة وصول خدايداد إليهم، قبضوا عليه وأرسلوا إلى خليل سلطان، ينهون
صورة الحال إليه، وقالوا تعلم ما بيننا وبينك من خالص الوداد، وإنا عالمون
بما وقع بينك وبين خدايداد، وأنه كان التسبب فى تبددك وخروج ملكك من
يدك، وقد جاء يستمد نالك، فارسم لنا ما بدا لك، فإن رسمت قتلناه، وإن
أشرت أمددناه، وفى الجملة مهما أمرتنا به امثلناه، فأرسل يقول قد علمتم
كيف أذانى، ومزق عرضى وأخزانى، وأخرجنى من ملكى وسلطانى،
وغربتى عن أهل وإخوانى، وإذ لى إذ داسنى بمفارقة حبى وأوطانى.

والآن فقد جعلنى ترساً يتقى بى الحوادث والبأساء، وقد عرثتم كيف
يريد أن يتصرف وعلى كل حال، فالعارف لا يعرف، ومع هذا مهما رأيتم فى
ذلك من المصلحة، فافعلوه ففى الحال قطعوا رأسه وإليه أرسلوه.

ذكر عود خليل سلطان من ممالك إندكان وقصده عمه شاه رخ ولعبه بالنفس مع ذلك الرخ

واستمر خليل سلطان فى ذلك المكان وأطراف تركستان، يرسل
بالفارسي الأشعار الفراقية، وينشئ فى حبيته ما ينسى القصائد الزيدونية،
ويذكر ما فيه من الغربة، وما جرى عليه من الفراق والكربة، فيصدع بذلك

القلوب ويفتت الأكباد إلى أن مل المقام فى تلك البلاد، فنفذ منها ذيله
وضم رجله وخيله، وقصد عمه وركب الطريق وأمه، فأكرم عمه مشواه، ولم
يذكر له أخبار ما أنساه وضم إليه حبيبته، ولم إلى خليل خليلته، وقرر قاعدة
ذلك الإقليم، وشيده وولى فيه أولوغ بيك ولده.

وقفل إلى خراسان مستصحباً معه خليل سلطان، ثم ولاه ممالك الري،
فلم يقيم بها إلا أدنى شىء، وانتقل إلى رحمة الله، وكان عمه دس له شيئاً
فسقاه، فدفن بمدينة الري وطوى نشر ذلك الخاتم، أى طوى وحين وقعت شاه
ملك فى هذا الخطب الجليل، واشتعلت أحشاؤها بنار الخليل، قالت لا ذقت
فقدك ولا عشت بعدك، وأنت ورنى وأنشدت وغنت:

كنت السواد لمقلتى فسبكى عليك الناظر
من عاش بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

ثم أخذت خنجرًا فوضعتة فى لبتها، واتكأت عليه بقوتها، فنفذ من
قفاه وأحرقت بنارها كل من رآها، فدفنا فى قبر واحد وأمسى لسان حالهما
ينشد:

أجارتنا إنا غريان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب

وصفا لشاه رخ ممالك ما وراء النهر، وخرسان وخوارزم وجرجان
وعرق العجم، ومازندران وقندهار والهند وكرمان وجميع بلاد العجم، وإلى
حدود أذربيجان، وإلى يومنا هذا أعنى سنة أربعين وثمان مائة، ونسأل الله
تعالى حسن العاقبة بمنه ولطفه الحمد لله رب العالمين.

فصل فى صفات تيمور البديعة وما جبل عليه من شجيرة وطبيعة

وكان تيمور طويل النجاد رفيع العماد، ذا قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة، عظيم الجبهة والرأس، شديد القوة والبأس، عجيب الكون أبيض اللون مشرباً بحمرة غير مشوب بسمرة، فخيم الأطراف عريض الأكتاف، غليظ الأصابع سميك الأكراع، مستكمل البنية مسترسل الحية، أشل أعرج اليمنا ومن عينيه كشمعتين غير زهروين، جهير الصوت لا يهاب الموت قد ناهز الثمانين، وهو مع ذلك بجأش مكين، ويدن مستمسك متين، صلباً شهماً كأنه صخرة صماء لا يحب المزاح والكذب، ولا يستميله اللهو واللعب.

يعجبه الصدق ولو كان فيه ما يسوءه، لا يأسى على ما فات ولا يفرح بما يجيه وكان نقش خاتمه راستى رستى، يعنى صدقت نجوت وميسم دوابه، وسرة سكتته على الدرهم والدينار ثلاث حلق هكذا هه، لا يجرى غالباً فى مجلسه شئ من الكلام الفاحش، ولا سفك دم ولا من سبى ونهب وغارة، وهتك حرم مقداما شجاعاً مهاباً مطاعاً، يحب الشجعان والأبطال ويستفتح بهم أقال الأهوال، ويفترس بهم أسود الرجال، ويستهدم بهم وبصدماتهم قلل الجبال ذا أفكار مصيبة وفراسات عجيبة وسعد فائق وجذ موافق وعزم بالثبات ناطق، ولدى الخطاب صادق. قلت:

فكم قدحت راؤه زند فتنه حمته لذى البأساء وأورت قبائلا

محجاجا دراكا لللمحة واللمزة مرتاضا مستيقظا لرمزة، لا يخفى عليه
تلبيس ملبس ولا يتمشى عليه تدليس مدلس، يفرق بين المحق والمبصل
بفراسته، ويدرك الناصح والغاشن بدربة درايته، يكاد يهدى بأفكاره النجم
الثاقب، ويستتبع بآراء فراسته سهم كل كوكب صائب. قلت:

يشاهد أعقاب الأمور بعقله كما شاهد المحبوس بالعين ناظر

إذا أمر بأمر أو أشار بشيء لا يرد عنه، ولا ينثنى عنان عزيمته عن شيء
منه ليلا ينسب إلى قلة الثبات وركاكة الرأي والحركات. قلت:

إذا قال قولاً أو أشار إشارة ترى أمره فى ذاك كالنص قاطعاً

وكان يقال له فى ألقابه صاحب قران الأقاليم السبعة، وقهرمان الماء
والطين وقاهر الملوك والسلاطين، يحكى أن قاضى القضاة ولى الدين عبد
الرحمن ابن خلدون للمالكى قاضى القضاة بمصر، كان صاحب التاريخ
العجيب والسالك فيه الأسلوب الغريب، على ما ذكر لى من راءه واطلع على
لفظه ومعناه من الأذكياء المهرة والأدباء البررة، مع أنى لم أره.

وكان قد قدم الشام مع عساكر الإسلام، وحين ولت العساكر الأبار
أنشبهته فى مخاليب تيمور الأقدار، قال لى فى بعض مجالسه، وقد آنس
بتوانسة بالله يا مولانا الأمير، ناولنى يدك التى هى مفتاح فتوح الدنيا، حتى
أشرق بتقيلها، وقال له أيضاً لما أراد أن يستصحبه معه، وقد سرد ليه شيئاً
من تواريخ ملوك الغرب، وكان تيمور مغرمًا بإقراء التواريخ واستماعها
فأعجبه ذلك غاية الإعجاب، ورغب منه فى الاستصحاب يا مولانا الأمير

مصر خرجت عن أن يتولى فيها نائب غيرك، أو أن يجرى فيها غير أمرك،
ولى فيك عوض عن طريفى وتلادى وأهلى وأولادى ووطنى وبلادى،
وأصحابى وأخذانى وأقاربى وخلانى، وملوك الناس وعن كل ظهر ورأس،
بل وعن كل الورى إذ كل الصيد فى جوف الفرى، وما أتأسف ولا أتلهف
إلا على ما مضى من عمرى، وانقضى من عصرى كيف تقضى ذلك فى غير
خدمتك، ولم تكتحل عىنى بنور طلعتك، ولكن، ولكن القضاء جاز
وسأستبدل الحقيقة بالمجاز، وما أولانى أن أكرر على لسانى قوله:

جزاك الله عن ذا السعى خيراً ولكن جئت فى الزمن الأخير

فلأستأنفن فى ذراك عمراً ثانيًا، ولأعدن الزمان بإبعادى عن عدوتك
عاديًا، ولأتداركن ما مضى من عمرى بصرف ما بقى فى خدمتك، والتشبث
بغرزك ولأحسن ذلك أعز أوقاتى وأعلى مقاماتى وأشرف حالاتى، ولكن ما
يقصم ظهرى إلا كتبى التى أفنيت فيها عمرى وصرفت جواهر علومى فى
تصنيفها، وأظلمات نهارى وأسهرت ليلى فى ترصيفها، وذكرت فيها تاريخ
الدنيا من بدئها، وسير الملوك شرقها وغربها، ولقد جعلتك واسطة عقدهم
وخلاصة نقدهم، وطرزت بسيرك خلع دهرهم، وصيرت دولتك هلال جبين
عصرهم، وهى فى القاهرة، فلو حصلت عليها ما فارقت ركابك، ولا تأيلت
أعتباك، والحمد لله الذى رزقنى من يعرف قيمتى ويحرز خدمتى، ولا يضيع
حرمتى، مع كلام فصيح صاعد بديع بليغ خالب خادع، فأعجبه ذلك وأغراه
ميله إلى كتب التواريخ والسير، واستهواه حبه معرفة أحوال الملوك الذى ذكر
حتى شده عما خلبه بسحر هذا البيان البديع وسلبه، ثم إنه استوصفه بلاد
الغرب وممالكها، واستوضحه أوضاعها وممالكها وقراها ودروبها وقبائلها

وشعوبها، كما هو دأبه وشأنه، والقصد فى ذلك امتحانه، لأنه لم يكن محتاجاً ذلك إذ فى خزائن تصوره صور جميع الممالك، وإنما أراد بذلك معرفة مقدار علمه وكيفية إبداء نصحه له وكتمه، فأملى كل ذلك من طرف لسانه كأنه يشاهده وهو جالس فى مكانه، وشرح تلك الأمور كما فى خاطر تيمور.

ثم قال له كيف ذكرتني وبخت نصر مع الملوك الأكابر، ولم نزل فى النسب تلك المفاخر، وما نحن من يعاسب النحل، فأنى عبيتنا مع الفحل، فقال أفعالكما البديعة أوصلتكما إلى تلك المنزلة الرفيعة، فأعجبه هذا الكلام وقال لجماعته اقتدوا به فإنه إمام.

ثم أخذ تيمور يخبر لقاضى بما وقع فى بلاده وما جرى بين ملوك العرب وأجاده، ولا زال يذكر له أخبار الناس حتى سرد عليه أخبار متعلقيه وأولاده، حتى تحير القاضى من إملائه، وقال إن الشيطان ليوحى إلى أوليائه، ثم إن تيمور عاهد القاضى أن يتوجه إلى القاهرة ويأخذ أهله وأولاده وكتبه الزاهرة، ولا يلبث أكثر من مسافة الطريق ويرجع إليه بأمل فسيح وعهد بنيل الأمانى وثيق، فتجهز إلى صفد واستراح من ذلك النكد.

فصل

وكان تيمور محباً للعلماء مقرباً للسادات والشرفاء، يعز العلماء والفضلاء إعزازاً تاماً، ويقدمهم على كل أحد تقديمًا عامًا، وينزل كلا منهم منزله، ويعرف له إكرامه وحرمة، وينبسط إليهم انبساطاً ممزوجاً بهيبة، ويبحث معهم بحثاً مندرجاً فيه الإنصاف والحشمة، لطفه مندرج فى قهره، وعنفه مندمج فى بره، مغرمًا بأرباب الصناعات والحرف، أى صناعة كانت إذا

كان لها خطر وشرف، يبغض بطبعه المضحكين والشعراء، ويقرب المنجمين والأطباء ويأخذ بقولهم، ويصغى إلى كلامهم ملازمًا للعب الشطرنج لكونه منقحًا للفكر، وكانت علة همته عن الشطرنج الصغير، فلا يلاعب بالشطرنج الكبير، ورقعته عشرة في أحد عشر، وفيه من الزوائد جملان وزرافتان وطيئتان ودبابتان ووزير وأشياء غير هذه، وسيأتى وضعه، والشطرنج الصغير بالنسبة إلى الكبير كلا شيء، مواظبًا لأقراء التواريخ وقصص الأنبياء عليهم الصاة والسلام، وسير الملوك وأخبار من مضى من الأنام سفرًا وحضرًا، كل ذلك بالفارسي، ومما تكررت قراءتها عليه، وطنت نغماتها على أذنيه قبض زمام ذلك وملكه، حتى صارت له ملكة، بحيث إن قارئ ذلك إذا خبط رده إلى الصواب من الغلط، وذلك لأن التكرار يفقه الحمار.

وكان أميًا لا يقرأ شيئًا ولا يكتب، ولا يعرف شيئًا من العربية، ويعرف من اللغات الفارسية والتركية والمغولية حسب لا غير، وكان معتقدًا للقواعد الجنكيز خانية وهى كفروع الفقه من الملة الإسلامية، ومشيًا لها على الطريقة المحمدية، وكذلك كل الجغتاي وأهل الدشت والخطا وتركستان وأولئك الطغام، كلهم يمشون قواعد جنكيز خان لعنه الله على قواعد الإسلام، ومن هذه الجهة أفتى كل من مولانا وشيخنا حافظ الدين البرازى رحمه الله، ومولانا وسيدنا وشيخنا علاء الدين محمد البخارى أبقاه الله، وغيرهما من العلماء والأعلام، وأئمة الإسلام بكفر تيمور، وبكفر من يقدم القواعد الجنكيز خانية على الشريعة الإسلامية، ومن جهات آخر أنضًا.

وقيل أن شاء رخ أبطل التوراة والقواعد الجنكيز خانية، وأمر أن تجرى سياستهم على جداول الشريعة الإسلامية، وما أظن لذلك صحة، فإن ذلك

عندهم قد صار كالملة الصريحة والاعتقادات الصحيحة ، ولو اتفق أنه يجمع
مرازيه ومؤابده فى دسكرة ، ويغلق أبوابها ويطلع عليهم من منظره ، ويفتح
عليهم شيئاً من هذا الباب لحاصوا حيصة الحمر إلى الأبواب .

فصل

وكان فريد الطور بعيد الغور لا يدرك لبحر تفكيره قعر ، ولا يسلك فى
طود تدييره سهل ولا وعر ، قد أقعد فى ممالكه نواميسه ، وأقام فى سائر
الممالك جواسيسه ، وهم ما بين أمير كأطلاميس أحد أعوانه ، وفقهه فقير
كمسعود الكحجاني عين أصحاب ديوانه ، وكان ذلك فى القاهرة المعزية ،
وهذا بدمشق أحد الصوفية بالشميصاتية ، وما بين متسبب وتاجر ومصارع
شرير وبهلوان فاجر ، ومسكد وصناعى ومنجم وطبايعى وقلندرى قوال ،
وحيدرى جوال وبحرى سباح وبرى سياح ، وسقاء ظريف وحداء لطيف ،
وسعلاة دلالة وشيخة محتالة كدلة المحتالة ، ومن مرت به التجارب وضرب
أكباد الإبل مشارق ومغارب ، وبلغ فيما هو بصده من المكر والاحتياى متولة
الكمال ، وألف بلطيف ختله ودهاء بين الماء والنار والهدى والضلال ، وجاوز
فى الحيل والكيد ساسان وأبازيد ، ألزم فى حكمته وجدله ابن سيناء ، وأسكت
فى منطقة اليونانيين إذ عكس عليهم القضايا فجمع بين المتنافين وألف بين
المتعادين . قلت :

فاق من قاد للعدى كل جيش بكلام ثنى البعيد قريباً

مزج النقل فى القياد بعنل . فهدى عاشقاً وأهدى حبيباً

فكانوا ينهون إليه حوادث الأطراف وأخبارهم ، ويكتبون إليه ما قدموا
وآثارهم ويذكرون إليه أوزانهم وأسعارهم ، ويصفون منازلهم وأمصارهم

ويعصرون سهولهم وأوعارهم، ويخطون بيوتهم وديارهم، ويبينون مدى ذلك بعداً وقرباً، وما فى ذلك ضيقاً ورحباً، وجهات وأقطار شرقاً وغرباً، وأسامى الأمصار وألقاب المنازل والذرى وأهل كل مكان، ورؤساؤه وأمراؤه وكبراؤه وفضلاؤه وشرفاؤه وأغنياؤه وفقراؤه، واسم كل ولقبه وشهرته ونسبه وحرفته وسببه، فكان يطالع بفكره ذلك ويتصرف بتكفيره فى سائر الممالك.

وكان إذا حل ببلد واجتمع به من أعيانها أحد، شرع يسأله عن فلان وفلان وما جرى لفلان فى الوقت الفلانى، مما زانه من أمر وشان، وإلام آلت تلك الواقعة، وكيف فعل فلان وفلان، فيما كان بينهما من المنازعة فييهت ذلك الرجل ناظراً، فيظن أن تيمور كان فى تلك الحالة حاضراً، وكان كثيراً ما يطرح عليهم من أغاليط المسابل، ويحكى صور مباحثات جرت لهم ورسائل، فيتصورون أن له فى ذلك العلم قدمة، أو كان منه للعلماء خدمة، ولذلك تصور بعض الناس أن ذلك الوسواس الخناس كان مقيماً بالسلاوية، وبعض بالغ حتى قال أنه رآه فى فقراء الشميصاتية.

فصل

ومما يحكى عن فراسته أنه لما نزل عن سيواس وقد حصنها منه أولوا النجدة والبأس، قال لعسكره اعملوا الحيلة إنا فاتحوا هذه فى ثمانى عشرة ليلة فكان كذلك، فلا شك أن ذلك الأعرج كان ملهماً، أو مستدرج وكان ذا مغالطات وحركات لها مغاورات إذا دهمه أمر يتعاطى دفعه، وهو مظهر أنه راغب فيه، وربما يظهر الرغبة عن شىء وهو يريد حصوله ومشتهيه، وقد مر نظائر هذا كله، فمن مغالطاته أنه إذا كان له فى مكان روم، أو أراد أن ينزل بساحة قوم وقصد الإخفاء والتعمية وطلب الإيهام والتورية، وبحر عسكره لا

يخلق من تمساح متجسس أو سرطان متحسس، ولو لم يكن لأحد فى
عسكره عين، فإن بزوغ العين لا يخفى على ذى عين، فإنه يجمع أركان دولته
وأعيان مملكته وذوى آرائه ومشورته، بحيث إنه لا يتخلف منهم أحد، ولا
يجرى مولود عن والد ولا والد عن ولد، ثم يظهر لهم خفية أموره ويطلب
منهم المشورة فى جهة مسيرة، ويطلق لها عنان الكلام ويقول لا تثريب على
من خاص فى ذلك من خاص الأنام، ناظر فى أعقاب الأمور ما بين يوم
وعام، فليتكلم كل ولا حرج، فسوا هوى إلى حضيض الخطأ وإلى أوج
الصواب عرج.

فإن أخطأ فلا نقصان وإن أصاب فله أجران، فيبذل كل جهده ويعانى
فى ذلك وكده ويبدى فى ذلك ما أدى إليه اجتتهاده، ويتصور أن ذلك
يوافقه مراده، فتتفق الآراء على ناحية من الأحاء، ثم يفض ذلك المجلس
ويجتمع بأخطائه، ويجلس كسليمان شاه وقمارى وسيف الدين والله داد وشاه
ملك وشيخ نور الدين، ويمحضون القضية محضاً غير ذلك، ويبحثون فيها
بحثاً دقيق المسالك، فيقع آخر الأمر الاتفاق على التوجه إلى بعض الآفاق،
ثم يدعوا رائدهم وسائقهم فى ذلك، وقائدهم ويأمرهم بالتوجه إليه
ويتصدعون على ما عول فى ذلك عليه، وحين يفوض الظلام خيامه، وينشر
رائد الصبح أعلامه ويضرب الكؤوس للرحيل، ويأخذ الناس فى التحميل
ويتوجه الناس إلى الجهة التى أمرهم بالمسير إليها، ووقع الاتفاق عليها دعا
حاشيته بعد ما حملوا، وأخذوا فى المسرى وأمرهم أن يمتازوا ويرحلوا إلى
جهة أخرى، لم يكن أبداها لأحد من الجماعة إلا فى تلك الساعة، ولولا
الضرورة لما أفشاها ولا أعاد سريرتها لأحد ولا أبداها، فيضرب الناس ضرباً

ويضرب ضرباً، ويأخذ العساكر شرقاً ويأخذ غرباً فتضطرب تلك الأطواد
وتختبط وتنفرط عتود نظامهم، فلا تكاد تنضبط وتنحل قوائم مواشيها عن
المسير وترتبط ويموج بعض الناس فى بعض، وينعكسون سماء فى أرض
وطولا فى عرض ويتوله كل أحد، ويتدله ولا يدرى إلى أن يتوجه أين، فإن
كان فى عسكره ريبة، أو من يراقب ذهابه ومجيئه، فبمجرد ما رأى تحميلهم
وشاهد تحويلهم ورحيلهم.

طار إلى مخدومه وأظهر له ما فى معلومه من توجه العساكر إلى الجهة
التي اتفقوا عليها، وأنه شاهدهم بعينه وقد توجهوا إليها، فiaخذوا حذره أهل
ذلك الجانب وتطمئن سائر الجوانب من النوايب، فلم يشعر إلا وقد دمر على
الجانب الذى قصده وسطمه ونبذه من نار العذاب الموقدة فى السعير والحطمة،
وكم كان له من دهاء ومكر خفى وذكاء، ومن جملة ذلك أنه لما كان بالشام
وقد قابلنه عساكر الإسلام أشاع أن سوار أساورته تخلخل وتأخر قليلاً إلى
وراء وتحلل، وأذاع أنه أعور خيله ورجله الزاد، وأنه صائب صوب بغداد،
ثم أسفرت القضية عن أن انهزمت العساكر المصرية، وكان قصده بذلك تثبيت
جأشهم واستقرار رؤسائهم وأوباسهم، وأن يركز كل منهم على ما أزم فيريض
فى مكانه، ولا ينهزم فيحيط بالكل كيده، ويصير المجموع صيده.

ومما يحكى من شدة عزمه وثباته على ما يقصده وحزمه، وحلول نعمته
من يعارضه ويعاكسه فيما يرسم ويناقضه أنه لما توجه بالجنود إلى بلاد الهند،
بلغ إلى قلعة شاهقة أقرط البزادى بأذان مراميها عالقة ورجوم الجوم الصائبة،
تتعلم الإصابة من رشاقة سهامها الراشقة، كان بهرام فى مهواه أحد
سواطيرها، وكيوان فى مسراه خادم بواطيرها، والشمس فى استوائها غرة

جبينها، وقطرات السحاب فى الانكساب تترشح من قعر معينها، وشقة الشقف الحمراء على أذان مراميها، وأنوف أبدانها سرادق وكريات نجوم القبة الخضراء لعيون مكاحلها وأفواه مدافعها طابات وبنادق فيها من العنود طائفة ثابثة الجنان غير خائفة جهزت أهلها، وما تخاف عليه إلى الأماكن المعجزة، وتثبت هي فى تلك القلعة حافظة لها متحررة، مع أنها شرذمة قليلة وطائفة ذليلة لا خير عندهم ولا مير ولا فائدة سوى الضرر والضرير ولا للقتال عليها سبيل، ولا حواليتها لأحد مبيت ولا مقيل، بل هي مطلة على المقاتلة مستمكة من المقاتلة، فأنى أن يجاوزها دون أن يناحرها بالحصار ويناجزها.

والليب العاقل ما يترك لخصمه مقابل، فجعلت المقاتلة تناوشها من بعيد، ونصب كل من أهلها عليهم من أسباب المنايا ما يريد كما يريد، فكان كل يوم يقتل من عسكره ما لا يحصى والقلعة تزداد بذلك إباء واستعصاء، وهو يأبى الرحيل عنها إلا أن يصل إلى غرضه منها، ففاء بعض أيام المحاصرة مروا وبواسطة المطر انحصروا، وصار يحثهم على القتال، وركب لينظر ماذا يصنعون فى تلك الحال، فلم يرتض أفعالهم لما عسكت أوجالهم أحوالهم، فدعا منهم رءوس الأمراء وزعماء العسكر والكبراء.

وأخذ يمزق أديم عصمتهم بشفار شتمة ويشفق ستر حرمتهم بمخاليب لعنه وذمه، ونفخ الشيطان فى خيشومه، فألهب فيهم تيران غضبه وشومه، وقال يا ليام وأكلة الحرام يتقلبون فى نعمائى، وتوانون عن أعاء جعل الله نعمتى عليكم وبالأا، وألبسكم بكفرانها خيبة ونكالا يا خزى الذم وكافرى النعم، وساقطى الهمم ومستوجبى النقم، ألم تطوا أعناق الملوك بأقدامى وأقدامى وتطيروا إلى آفاق الدنيا بأجنحة إحسانى وإكرامى، وتفتحوا مغلفات الفتوح

بحسام صولتى وتسرحوا فى منزهات الأقاليم سوائهم تحكمتكم برعية دولتى
بى، ملكتم مشارق الأرض ومغاربها، وأذبتهم جامدها وأجمدتهم ذائبها:

ألم أك ناراً يصطليها عدوكم وحرزاً لما أجتأتم من روايبا
وباسط خير فيكم يمينه وقابض شرّاً عنكم بشماليا

ولا زال يهملهم ويغفم ويهذرهم ويبرطم، وهم مطرقون لا يخبرون
جواباً، ولا يملكون منه خطاباً، ثم ازداد حنقاً وكاد أن يموت خنقاً، فاخترط
السيف بيده اليسرى وهم به على قمم أولئك الأسرى، وهم أن يجعل رقابهم
قرايه، ويسقى من دمائهم فرنده ودبابه، وهم على تلك الحال فى الخزى
والإذلال، باذلوا نفوسهم ناكسوا رؤوسهم.

ثم تراجع وتماسك وملك نفسه قليلاً، أو تمالك فاعمد عن تشريقهم
حسامه، ولم يلق لأمره قبلة ولا دبرة، فغلق غربه وشامه، ثم نزل عن مركبه
واستدعى الشطرنج الكبير، ليلعب به وكان عنده شخص يدعى محمد
قاوحين، هو لديه ذو مكان أمين مكين ومقام أمين، مقدم على كل الوزراء
ومبجل دون سائر الأمراء، مسموع القول مقبول الرأى، ميمون النقيبة محبوب
الشكل، فتشفعوا إليه وعولوا فى حل هذا الإشكال عليه، وقالوا ساعدنا ولو
بلفظة وراقبنا ولو بلحظة، وأعمل معنا بهذا المعنى

ساعد بجاهك من يغشاك مفتقرا

فالجود بالجاه فوق الجود بالمال

وبما قيل:

وأهوى ما يعطى الصديق صديقه

من الهين الميسور أن يتكلما

وبما قيل

وإن أمراً قد طن عنى بمنطق

يسد به من خلتي لضنين

فأجابهم والتزم أن يرده عما تأزم به، والتزم وراقب مجال المقال، وراعى فرص المجال، وأخذت أفكار تيمور تفور فى أمور القلعة وتغور، وجعل يستصوى أضواءهم ويستورى آراءهم ولا يسع كلا منهم إلا القبول لما يستصوبه رأيه ويقول، ففى بعض الأحيان اتفق أن قال محمد قاوجين، وقد زل به القضاء وأحاطت به نوازل البلاء أطال الله بقاء مولانا الأمير، وفتح بمفاتيح آرائه وراياته، حصن كل أمر عسير هب أنا فتحنا هذه القلعة بعد أن أصيب منا جانب من أهل النجدة والمنعة، هل يفى هذا أبداً أن يوازن هذا النفع بهذا الأذى.

فما احتفل بخصابه ولا اشتغل بجوابه، بل استدعى شخصاً من المرقدارية قبيح المنظر، إلا أنه فى حالة رزية يدعى هراملك ذا عرق سهك ووجه بالسواد سدك أوسخ من فى المطبخ، واستح من فى المسلخ لعاب الكلب ظهور عند عقره، وعصارة القيير حليب بالنسبة إلى مرقه، فحين ما حضر لديه ووقع نظره عليه، أمر بثياب محمد قاوجين فنزعت وبخلقان هراملك، فخلعت ثم ألبس كلا ثياب صاحبه وشد وسطه بحياصته، ودعا دواوين محمد ومباشريه، وضابطى ناطقه وصامته وكاتبه، ثم نظر ما له من ناطق وصامت ونامخ وجامد، وملك وعقار وأهل ديار وحشم وخدم من عرب وعجم، وأوقاف وإقطاع وساتين وضياع وممالك وابتاع، وخيل وجمال وأحمال وأثقال حتى زوجاته وسراريه وعبيده وجواريه.

فأنعم بذلك على الوسخ وأمسى نهار وجود محمد قاوجين، وهو من ليل تلك النعمة منسلخ، ثم قال تيمور أقسم بالله وآياته وكلماته وصفاته وأرضه وسمواته، وكل نبي ومعجزاته، وولى وكراماته وبرأس نفسه وذاته، لئن أكل محمد قاوجين أحداً وشاربه أو ما شاء، أو صادفقه أو صافاه، أو أوى إليه أو آواه، أو راجعنى فى أمره أو شفع عندى فيه، أو اشتغل بعذره لأجعلنه مثله ولأصيرنه مثله، ثم طرده وأخرجه وقد سلبه نعمته وأجرحه، فصار مسلوب النعم قد حلت به نوائب النقم، وسحبوه بالولق ورأى نعمته على أقل الخلق. واتصل غيره بالخلق وقطع منه الخلق، فقلقت حبة قلبه أى قلق، واستمر على ذلك فى عيش مر وعمر حالك، وحاشى أن تشبه قصته قضية كعب بن مالك، فكان يستحلى مرارة الموت، ويستبطئ إشارة الفوت، وكل لحظة من هذا الحيف أشد عليه من ألف ضربة بالسيف، فلما مات تيمور أحياء ورد عليه خليل سلطان بما سلبه جده إياه.

فصل

وكان من أبهته وعظمته وشدة شكيمته وعتوه وحرمة أن ملوك الأطراف وسلاطين الأكناف مع استقلالهم بالخطبة واستبدادهم بالسكة، وانفرادهم بالزعامة والرئاسة وقيامهم بأمور الإيالة والسياسة كالشيخ إبراهيم ملك عمالك شروان، وخواجة على ابن الطوسى سلطان ولايات خراسان، وأسفنديار الرومى وابن قرمان ويعقوب بن على شان حاكم كرمان وحاكم منشا، وطهرتن أمير أرزنجان وسلاطين فارس وأذربيجان، وملوك الدشت والخطا وتركستان ومرتزية بلخشان ومراجيح مارندران، وعلى الجملة فالمطع من الملوك إيران وتوران، كانوا إذ أقدموا عليه وتقدموا بالهدايا والتقادم إليه، يجلسون

على أعتاب العبودية والخدمة نحواً من مد البصر من سرادقاته، قائمين بشرائط الأدب والحرمة، فإذا أراد منهم واحداً أرسل إليه من الفراشين أو نحوهم قاصداً، فيهب ذلك القاصد وهو يعدو كالبريد، وينادى ذلك الواحد باسمه يا فلان من مكان بعيد، فينهض في الحال من مجئاه مجيئاً بليك لليك دعواه، ويعدوا نحوه متعثرين في أذياله متلقياً ما برزت به مراسيمه بقبوله، وإقباله مطرقاً رأس التذلل والخضوع، مصغياً بأذان الخشوع والخشوع، مفتخراً على أضرابه لكونه أهله ودعاه واعتنى به.

وقيل كان أناس من جماعته يلعبون بالنرد، فافترقوا فرقتين واختلفوا في نقش الكعبتين، فقال أحد اللاعبين ورأس الأمير تيمور كذا وكذا نقش الكعبتين، فرفع يده خصمه ولطمه وسبه ولعنه وشتمه، كأنه ذبح يحيى بن زكريا نشر أو كفر بمحمد، أو قدم موسى على البشر، وقال يا ابن الفاعلة والغاسل ابن الغاسلة، بلغ من انتهاكك الحرم، وأن تذكر الأمير تيمور بشقة أو قم، وأنى لك أن تجعل خدك موطئ مداسه، فضلاً أن تحلف برأسه أنه لأجل أن يتفوه مثلى ومثلك باسمه، أو يتلفظ بشيء من حدوده ورسمه، وإنه لأعظم من كيخسرو وكيكاوس وكيقباد، لذين ملكوا لامشارق والمغارب، وأفخم من بخت نصر وشداد.

وقيل أنه قصد في بعض الأوقات الاصطياد، وأرسل يمينه ويسره على إعادة طوائف الجيش والأجناد، ورسم أن يخرج مشاة تلك الرقاع، ورجالة هاتيك القرى والبقاع، فيمتدوا في الوهد واليفاع، وجين تلتئم على الوحوش حلفة الكيد، ويصح أن يتنازع فعلاً رمى وأصمى كلا ن عمرو وزيد، لا يسير أحد بضربة ولا طعنة ولا رمية إلى صيد، بيد أنهم يردون أوابد تلك البيداء.

إلى بهرة ذلك البید، فامتثل كل ما به أمر وحين صار كالبنیان المرصوص صف تلك الأحزاب والزممر، وأحاطت صافات تلك الكواسر بالوحوش إحاطة النجوم بالقمر ماجت بحار الوحوش فى ذلك البر، ولم تجد لها من دردور تلك السيول الهامة من مخرج ولا معبر، فدارت ومارت وخارت وحارت وئارت وبارت واستجارت بعدما جارت واستكانت بعد ما زارت، وانطوت أرضها التى طال ما عليها، انتشرت وطرزت خلع أعلامها بإعلام، وإذا الوجوش حشرت فبينما هى على تلك الحال فى أشد ما يكون من الأهوال، أو بأن تضرب الطبول من كل الجهات، وينفخ فى صور المزامير والبوقات، فدى الكؤوس وزعق النير، وامتلات الدنيا من الشهيق والزفير، ورجت الأرض رجًا، ومارت الأقطار هرجًا ومرجًا.

وحين سمعت السباع صوت الطبول، ورأت الوحوش هذا الأمر المهول، سقطت قواها وتقطعت كلاها، وجثت وما انبعثت، ثم تقربت وتلامت، وتقارنت وتضامت وتصورت أن القيامة قد قامت، فأخذها بعضها بعنق بعض ونامت، فعانق الثور منها اللبوة، وضاجع الأسد فيها الظبية، واختفى سرحان بين الغزلان، وساتجار الثعلب بنبات الأرب، ولاذ بالأروى النعام، والأرنب بالعقاب، وعاد الضب بالنون واليربوع بالغراب، فعند ذلك أمر الأطفال من أولاهد وأولاد الأمراء وأحفاده، أن يرموا ويصموا ويفنوا مهما أرادوا ولا يطنوا، وجعل ينظر إليهم ويتفرج عليهم، ويزهره لأفعالهم ويقهقه على أحوالهم ويجريهم على الأقدام والنضبال، ويشجعهم بذلك على صيد الأبطال، وجعلت حواشى الجيش تنجز ما أصموا وتجهز على ما أنموا، وصار ذلك المفسد يترنم وينشد:

صيد الملوك أرانب و ثعالب فإذا ركبت فصيدي الأبطال

فصل

وكان يحمل إليه الباخثر من بلخشان، والفيروزج من بيسايور وكازرون ومعادن خراسان، والياقوت من الهند والألماس منها ومن السند، واللؤلؤ من هرمز والقطيف وأحسا واليشم والمسك وغيره من أخطا، ومن سائر الأقطار خالص الفضة ومصفى النضار.

فصل

وأنشأ في سمرقند بستين عديدة، وقصوراً شوامخ مشيدة، كل ترتيب غريب ووضع أنيق عجيب، أحكم أساساً وطعم فاخر الفواكه غراسها، سمى أحدها بستان إرم، والآخر زينة الدنيا والآخر جنة الفردوس، والآخر بستان الشمال والآخر الجنة العليا، ثم إنه هدم مصرراً ونى في كل بستان منها قصرًا وصور في بعض هذه القصور مجالسه، وأشكال صورته تارة ضاحكة، وأخرى عابسة، وهيات مواقعاته وصور محاضراته، ومجالس صحبته مع الملوك والأمراء والسادات والعلماء والكبراء ومثول السلاطين بين يديه ووفودها بالخدمات من سائر الأقطار إليه، وحلق مصائده وكمائن مكائده، ووقائع الهند والدشت والعجم، وصورة انتصاره، وكيف انكسر عدوه وانهزم، وصورة أولاده وأحفاده وأمرائه وأجناده، ومجالس عشرته وكاسات خمرة، وسقاهة كأسه ومطربى إيناسه وتغزلات مقاماته ومقامات تغزلاته، وحظايا حضرته وخواتين عصمته، إلى غير ذلك مما وقع له من صورة حادثة في الممالك، مدى عمره المتقارب المتدارك.

كل ذلك مما وقع ووجد ولم ينقص من ذلك شيئاً، ولم يزد وقصد

بذلك الإفادة لمن كان فى عالم الغيب عن أحواله بالشهادة، فكان إذا توجه إلى مكان وخلت سمرقند من الظلمة وأعوان الشيطان تخلوا تلك البساتين، ويتوجه إليها أهل المدينة الأغنياء والمساكين، فلا يوجد أعجب منتزهاً منها، ولا أحسن ولا أوفق مرتفقاً ولا أمن، وأما ثمارها الطيبة فإنها مسجلة بحيث إنه لا يباع منها قنطار بخردلة.

وأنشأ فى ضواحي سمرقند ومعاملاتها قصبات سماهن بأسماء كبار البلدان والأهات، كمصر ودمشق وبغداد وسلطانية وشيراز عرائس البلاد، وأنشأ بستاناً فى ضواحي سمرقند على طريق الكش، وبنى به قصرًا سماه تخت قراجا يحكى أن بعض مشيدى عمارته ضاع له فرس، واستمرت ترعى فى البستان ستة أشهر حتى لقوها.

فصل

نساوة الملكة الكبرى وهى أقدم وأكمل، والملكة الصغرى وهى أحسن وأجمل وهما من بنات ملوك الخطا، وتومان بنت الأمير موسى أمير نخشب المار ذكره فى أول الكتب وجلبان كانت كالبدر عند الكمال، وكالشمس قبل الزوال قتلها فى حياته لشنء بلغه عنها، وكان غير واقع، وإنما فعل ذلك معها لأنه قيل إن صدقا وأظنها كانت من الخطايا.

وأما السرارى والخطايا فأكثر من أن يحصين، فالملكتان المذكورتان سمتهما شاد ملك خوفًا منهما على خليلها، وتومان أرسلها خليل سلطان إلى شيخ نور الدين بسغناق، كما مر، وبعده جاءت إلى سمرقند وسمعت أنها عزمت فى يومنا هذا، أعنى سنة أربعين وثمان مائة على الحجة والله تعالى أعلم.

فصل

أولاد لصلبه المتخلفون من بعده أمير إنشاه قتله قرا يوسف وشاه رخ، وهو المتملك في يومنا هذا، وبنت تدعى سلطان بخت زوج سليمان شاه، كانت مترجلة لا تحب الرجال، وذل لما أفسدها النساء البغداديات قدمن سمرقند ولها تواريخ سوء، أحفاده غالبهم انقرض إلا أولاد شاه رخ، وأمثلهم أولوغ بيك حاكم سمرقند، وإبراهيم سلطان حاكم شيراز، وبای سنقر حاكم كرمان، ماتا كلاهما في سنة ثمان تسع وثلاثين وثمان مائة، وجوكى وهو الذى مشى على إسكندر ابن قرا يوسف وشنت شمله بعد موت قرا إيلوك، وذلك في شهور سنة تسع وثلاثين وثمان مائة، ثمت في أواخرها.

فصل

أمراؤه ووزراؤه لا يحصون: وأشهرهم من ذكر في هذا الكتاب، دواوينه الخواجة محمود ابن الشهاب الهروى، ومسعود السمانى ومحمد الشاغرعى، وتاج الدين السلمانى، وعلاء الدولة، وأحمد الطوسى وغيرهم، منشى ديوانية وهو عبارة عن كاتب السر مولانا شمس الدين قاضى زمانه وفاضل أبانه، فارسياً وعربياً، يصرف أخبار الإنشاء كيف شاء، كان قلمه في فتح أقاليمه أنفذ من سنان مخدومه، ولما مات تيمور احتجب وطوى بساط الأدب، فقليل له ضحكت البثرة إلا تباشر وصفت العشرة فهلا تعاشر، فقال ذهب الذى كان يعرف قيمتى، فأنا لا أذهب في خدمة أحداث حرمتى.

إمامه عبد الجبار بن النعمان المعتزلى، صدور مملكته مولانا قطب الدين والخوجا عبد الملك، وابن عمه الخوجا عبد الأول وغيرهم.

قارئ قصصه وتواريخه مولانا عبيد، أطباؤه: فضل الله وجمال الدين

رئيس الطب بالشام كان وغيرهما، وكان دائماً يستعمل معاجين الأحجاز وفي سنه ذلك يجتنى باكورة الأبحاث، منجموه لا يحضرني أسماؤهم.

فصل

حصل في أيام امتيلائه بسمرقند من الفقهاء مولانا عبد الملك، وهو من أولاد صاحب الهداية كان يلقي الدرس ويعلم الشطرنج والنرد، وينظم الشعر في حالة واحدة، ونعمان الدين الخوارزمي أبو عبد الجبار المذكور، كان يقال له النعمان الثاني، وكان أعمى والخوaja عبد الأول ابن عم مولانا عبد الملك انتهت إليه الرئاسة في ما وراء النهر، بعد ابن عمه ومولانا عصام الدين بن عبد الملك، انتهت إليه الرئاسة في يومنا هذا بعد ابن عمه عبد الأول.

ومن المحققين مولانا سعد الدين التفتازاني، توفي في المحرم سنة إحدى وتسعين ومسبع مائة بسمرقند، والسيد الشريف محمد الجرجاني توفي بشيراز.

ومن المحدثين الشيخ شمس الدين محمد بن الجزري، كان أخذه من الروم وكان قد هرب إليها من مصر بعد توجهه من بلاد الشام قبل الفتنة، توفي بشيراز، والخوaja الكبير المفسر الحافظ المحدث محمد الزاهد البخاري، فسر القرآن الكريم في مائة مجلد، توفي بمدينة النبي ﷺ سنة اثنين وعشرين وثمان مائة.

ومن القراء هما ومولانا فخر الدين، ومن حفاظ القرآن المجودين قراءة وصوتا عبد اللطيف الدامغانى، ومولانا أسد الشريف الحافظ الحسينى، ومحمود المحرق الخوارزمى، وجمال الدين أحمد الخوارزمى، وعبد القادر المراغى الأستاذ في علم الأدوار.

ومن الوعاظ والمتكلمين مولانا أحمد بن شمس الأئمة السراي، كان يقال له ملك الكلام عربياً وفارسياً وتركياً، وكان أعجوبة الزمان ومولانا أحمد الترمذى ومولانا منصور الفاغانى.

ومن الكتاب المجودين السيد الخطاط ابن بندكير، وعبد القادر المذكور، وتاج الدين السلمانى وغيرهم.

ومن المتجمين أناس بزغوا لا أعرف من أسمائهم غير مولانا أحمد الطيب النحاس المستخرج، قال لى استخرجت من زائحة الطالع إلى مائتى سنة، وكان هذا الكلام فى سنة ثمان وثمان مائة.

ومن الصواغين الحاج على الشيرازى، والحاج محمد الحافظ الشيرازى وغيرهما.

ومن الحكاكين طائفة جمّة وأمثلهم التون وكان آية فى فنه، ينقش الفصوص ويحفر اليشم والعقيق بخط اليزدى أحسن من ياقوت.

ومن الشطرنجيين محمد بن عقيل الخيمى، وزين اليزدى وغيرهما، وعلامة ذلك علاء الدين التبريزى الفقيه المحدث، كان يحط الزين اليزدى بيدقاً ويغلبه، ولا بن عقيل فرساً ويركبه، ولقد داخ تيمور الأقاليم شرقاً وغرباً، وقمر فى دشت مصافاته كل سلطان وكل شاه مات عنده جداً ولعباً، وكان يقول له أنت فى ملك الشطرنج فريد، كما أتى فى سياسة الملك وحيد، وكل منى ومن مولانا على شيخ فى فنه ذو كرامات، لم يوجد له نديد، وله فى لعب الشطرنج وعلم مناصيه شرح، وما ثمان أحد يقدر أن ينتج ولاد فكره فى لعبه معه من غير طرح، وكان فتيهاً شافعيّاً محدثاً أريحيّاً حسن البهجة، صادق اللهجة، حكى له أنه رأى أمير المؤمنين عليّاً كرم الله وجهه

فى المنام؁ وأنه ناوله الشطرنج فى كىس؁ فلم يغلبه أحد بعد ذلك من الأنام؁ ومن أوصافه فى لعبه أنه كان لا يتفكر؁ وبمجرد ما يلعب خصمه بعد التفكير والتأمل الطويل؁ ينقل من غير أن يتدبر.

وكان يلعب على الغائب مع خصمين؁ ويعلم مع الطرح لمن هو فى جهته على الجهتين؁ وكان يلعب هو والأمير بالشطرنج الكبير؁ ورأيت عنده شطرنجاً مدوراً وشطرنجاً طويلاً. والشطرنج الكبير فيه من الزوائد ما مر ذكره؁ وطريقة تعلمه بالفعل أقوى؁ وليس فى شرحه بالقول كثير جدوى.

ومن المطربين: عبد القادر المراغى المذكور؁ وولده صفى الدين؁ وختنه نشرين؁ وقطب الموصلى؁ وأردشير الجنكى وغيرهم.

ومن النقاشين كثير وأعلامهم عبد الحى البغدادى؁ وكان عانى فى فنه وأعجوبة عصره.

ومن السجيرية شهاب الدين أحمد الزردكاشى؁ ومن نقاشى الزجاج والنحاس وغيرهم ما لا يحصى؁ وهؤلاء كل منهم كان علامة دهره؁ ولو رصعت حلى الألفاظ بجواهر أوصاف هؤلاء الأعيان لمألت الأكوان من فرائد الجمان وقلائد العقيان.

وهؤلاء من حضرني ذكر من أعرفه؁ وأما من لا أعرفه أو أعرفه ولا يحضرني ذكره فأكثر من أن يحصى وأغزر من أن يستقصى؁ وحاصل الأمر أن تيمور كان جنى على كل حى؁ وجباً إلى سمرقند ثمرات كل شىء فكان بها فى كل فن عجيب؁ وأسلوب من الصنائع غريب؁ من هو على جبين الفضل شامة؁ وبرز على أقرانه فصار فى فنه علامة.

فصل

وكان فى سمرقند إنسان يسمى بشيخ العريان فقير أدهمى بشكل بهى وعزم سمى، قيل أن عمره على ما هو فيهم شائع، وبين أكابرهم وأصاغرهم ذائع ثلاث مائة وخمسون سنة، مع أن قامته مستوية وهيئته حسنة، كان المشايخ الهرمون والأكابر المعمرون يقولون لقد كنا ونحن أطفال نرى هذا الرجل على هذا الحال، وكذلك يروى عن آبائنا الأكرمين ومشايخنا الأقدمين، ناقلين ذلك كذلك عن آبائهم، والمعمرين من كبارهم، وكان أطلس وله قوة ناهضة وحدة من رآه يتصور أن لن لم يبلغ زشده، لم يكن للكبر بوجهه تجعيد ولا أثر، وكان الأمراء والكبار والأعيان والصلحاء والفضلاء والرؤساء يترددون إلى زاويته، ويتبركون بطلعته ويلتمسون بركة دعوته.

وفى سمرقند مسجد يسمى مسجد الرباط، يهب لمن يدخله الانشراح والانبساط، والروح والنشاط، وقيل إن أحد فعلته كان ولياً يسمى الشيخ زكريا، هو معتقد تلك البلاد ومزاره فى مكان مشهور على طود من الأطواد، وقبره يستجاب عنده الدعاء، وهو عن سمرقند نحو يوم فى المدا، وهو بالكرمات موصوف، وفى كرخ هذه المقامات معروف، وهو فى ربوة ذات قرار، فيه جنات تجرى من تحتها الأنهار، محفوف باليمن والأنس، كأنه اقتطع من حضيرة القدس.

يحكى أنه لما كان فاعلاً فى ذلك البنيان، وقع فى جبهته نقطة من الطين، فرأى ذلك أحد المباشرين، واستمر ذلك الطين على هذه الحال، نحو من ثلاث ليال، فلما أرادوا وضع المحراب وقع الاختلاف فى الخطأ والصواب، وكثر فى ذلك الصخب والاضطراب، فقال الشيخ زكريا ضعوا

المحارب على هذه الفقرة، ولا تعدلوا غنها يمينه ولا يسره، فقال ذلك المباشر لمن فى ذلك المكان حاضر، يا للعجبية والقضية الغريبة رجل لم يغسل وجهه ثلاثة أيام يرشد الناس إلى معالم الإسلام، فقال ذلك العابد الزاهد، أو رجل هو ممن لم يتم ثلاثة أيام بوضوء واحد، ولكن تعال أيها الجاحد قف مكانك وثبت جنانك، ولا تكن ممن أنكر وتولى وانظر إلى عروس الكعبة كيف تجلى، فنظر ذلك الذى أنكر، فإذا الكعبة أمامه تتبختر، ثم التفتوا إلى الشيخ ففقدوه وطلبوه أرضاً وسماء فلم يجدوه.

وهذا المسجد فيه شئ عجيب عدة استوانات من خشب، من جملتها سارية شمخت ارتفاعاً نحو من خمسة عشر ذراعاً، وغلظ جسمها وبدنها، فلا يقدر الرجل يحتضنها، وبقى بها السوار بها قد حطن، قيل أنها شجرة قطن، ولها خاصية عجيبة ظريفة غريبة، من كان به وجع الضرس يضع عليه مقدار حبة من خشب، ذلك البرس فإنه ينفعه ويسكن فى الحال وجعه، تجربته فصيح، ويسأل من يدعى رؤية سمرقند عما رأى فيه من العجائب، وشاهده من علامات الظرف والغرائب، فإن أخبر برؤية هذه السارية الفائقة كانت رؤياه صادقة، واعتد له بصدق الكلام وإلا كانت رؤيته أضغاث أحلام.

فصل

سمرقند ليس فيها كيل ولا صاع يسان ولا يجرى على جنس المكيلات فيها بالكيل حسابان، وإنما معرفة حساب ذلك عندهم بالميزان ورطل سمرقند أربعون أوقية، كل أوقية بالمئاقيل مائة، فيكون رطلهم أربعة آلاف مثقال، كل مثقال درهم ونصف من غير زيادة ولا إخلال، فعلى هذا رطلهم بالدمشقى عشرة أرطال.

حكى لى مولانا محمود الحافظ المحرق الخوارزمى، وسمى بالمحرق لأن
سهام ترجيعاته كانت تصيب حبات حشاشات أن ترمى وتنفق رنات أوتارها
نحو أذان القلوب، فيصمى طائرهما ولا ينمى، فإن صدعت من القلوب حجر
أطار من اقتداحها فى الأرواح شرراً، فيحرق برناته الأرواح، ويشعل بنغماته
الأشباح. قال استصحبني تيمور فى بعض أسفاره، فكنت ملازماً خدمته فى
ليله ونهاره، فنزلت عساكره على حصان لحصاره، وضرب خيمته على مكان
عال، ليشرف منه على القتال، ويتفرج فى صنع الرجال.

ففى بعض الزمان ضرت عنده أنا ورجلان، وكان قد حصل حمى
أورثته كرباً وغماً، وكانت سماء التزال ذات حبك واحتباك، ورماح القتال فى
التواء واشتبك، فإن أراد أن يطالع أحوالهم ويشاهد أفعالهم، وأفرط شهوته
فى ذلك العتمة، فقال احملونى إلى باب الخيمة، وأنا بين يديه فجعل يشاهد
حربهم، ويتميز طعنهم وضربهم، ثم أراد أن يأمرهم بشىء، فقال يا محمود
إلى، فأسرعت إلى يده، ودخلت تحت عضده، فأرسل أحد الرجلين إلى
عسكره، يأمرهم بما عن له من عجره وبجره، فكأنه لم يبرء عليل ولم يرو
غليلاً، فقال لما دعانى وعلى الأرض ضعانى، فوضعناه فسقط كأنه رمة بالية،
أو لحمة على بارية.

ثم أرسل ذلك الرجل الآخر إليهم، وأمرهم بما اقتضته آراؤه، وأكد
عليهم ببقيت أنا وهو وحدنا، لم يبق أحد عندنا، فقال لى يا مولانا محمود،
انظر إلى ضعف بنيتى وقلة حيلتى، لا يد ليتقبض ولا رجل تركص، ولو
رمانى الناس هلكت، ولو تركونى وحالى ارتبكت، لا أملك لنفسى نفعاً ولا
ضرراً، ولا أجلب خيراً ولا أدفع شرراً، ثم تأمل كيف سخر الله تعالى لى

العباد، ويسر لى فتح مغلفات البلاد، وملا برعبى الخافقن، وأطار هبى فى
المغربن والمشرقن، وأذل لى الملوك والجبابرة، وأهان بن بن الأكاسرة
والقياصرة، وهل هذه الأفعال إلا أفعاله، وهذه الأعمال إلا أعماله، ومن هو
أنا غير سطىح، ذى فاقة لا باب لى فى الدخول إلى هذه الأفعال ولا طاقة،
ثم بكى وأبكأنى حتى ملأت بالدموع أردانى، فانظر إلى هذا الوبى، كىف
سلك بهذا القول مسلك القائلن بالجبر، وأنشدوا بالفارسى بىتن وهو:

نیم تنى ملك جهانرا كرفت

جشم كشا قدرت یزدان ببن

پای نه وتخت بزیز قـدم

دست نه وملك بزیز نكن

ترجمته فقلت دو بىت:

قد أظهر قدره بخافى حكمه

من ملك شفا الدنا جاء فى قسمه

لا كف له والمملك فى خـائمه

لا رجل له وتخت موطى قدمه

فصل

وأما عساكره وطرائق سلوكهم فإنهم على دین ملوكهم، كانوا استدرجوا
من حىث لا یعلمون، ورزقوا من حىث لا یحسبوا، مسخرأ لهم خفیات
الدفائن مفتوحأ علیهم خبیات الخزائن، میسرأ لهم مكامن المطالب والمعادن.

كل طرف منهم قد جال وسطا، وصار بطرق اللوم أهدى من القطا، وقد
دربوا الأمور وجربوا أحوال الدهور، وقاسوا معاصر العصور، وكابدوا المابد
وعالجوا الشدائد، ومارسوا الأشياء وذاقوا الناس والدنيا، وعرفوا مداخل كل
مارق ومخارجه، وأدركوا مداركه ومعارجه، لا يدهيهم داهية، ولا يطغيهم
طاغية، ربما يمرون بقفر، أو يجيزون بمهمة صحرا:

لا يقرع الأرنب أهوالها ولا ترى الصب بها ينبجر

فيقف بعضهم ثم تراه ينظر إلى الأرض ذلك المكان وقراه، ثم يقول
ليس هذا الثرى من هذا البرى، ثم ينزل عن دابته ويأخذ من ذلك التراب
ويشمه، ثم يلتفت إلى جهاته الأربع، فيقصد منها جانبا ويومه، ثم لا يزال
يسير بمن معه من الأعوان، حتى يصلوا إلى مكان فيحفرون ويخرجون كمين
الدفائن، وما فى ذلك من المغلات والخزائن.

وكذلك إذا وصلوا إلى عمائر، أو مروا على مقابر يتوجهون إلى الخبء
كانهم وضعوه بأيديهم أو أوحى شياطينهم ذلك إليهم، وربما يجيئون إلى
مقام مر على ساكنه فيه أيام، ومضى عليه فيه شهور وأعوام، وفيه شئ
طمور، لم يكن لصاحبه وساكنه به شعور، فبمجرد دخولهم إليه يفتح ذلك
عليهم، ويطلعون عليه، وحين يطلع ساكنه على ذلك، يأكل ندامة وحسرة
يديه، وكان لهم درايات فى دهرهم عجيبة، وسهام رايات فى عمرهم
مصية.

وكانوا يحملون البئر ويركبونه، ويسرجون الحمر ويلجمونها وسابقون
على ذلك أصحاب الخيل العرب إلى قصبات المغانم فيسبقونها، ويطعمون
الجمل لحم الكلب والحمل، ويعتاضون عن شعير الفرس بالقمح والأرز

والدخن والزيب والعدس ، وربما أعورهم ذلك فى السفر فأطعموا دوابهم لحا الشجر .

حكى لى القاضى برهان الدين براهيم القوشة الحنفى المذكور رحمه الله تعالى أن قاران والتتار لما قدموا هذه الديار ، خرج له من قوة الفرار فاراً من الشرور ، كما فعلوا فى قضية تيمور ، ومن جملتهم تاجر بالصالحية كان فى عيشة رخية ، وله أموال وافرة ، وفيه جمع ما له من صامت المال ، ووضع فى قدرة فوال ، ثم عمد إلى بركة ماء فحفرها ، ووضع تلك القدرة تحتها وطمرها ، ثم ردها إلى مبانيها وأعاد مياهها إلى مجاريها ، وحين انتشب الوثوب وقدمت الدواب للركوب ، قالت لى امرأته قد نسينا قرطى ، وأخاف أن يحدث عليهما فى الطريق شىء ، فانظر لهما مكانا وحصل لنا بذلك أمانا . فقال أما الآن فلا مكان ، ثم أخذهما ووضعهما فى سقف سقيفة كانت على خشبة لطينة ، ثم ركبا وتركبا الديار وذعبا ، فلما حل بمدشق التتار ، ونزل منهم فرقة فى تلك الديار ، فجعلوا يأكلون ويشربون وهم فى خوضهم يلعبون ، فبينما هم فى بعض الأيام فى النشاط ، قرض الفار أحد تلك الأقراط فتدحرجت لؤلؤة وسقطت على البلاد ، فتبادرت الجماعة إليها جارية ، كأنهم يتسابقون إلى قرطى مارية ، فسبقت الجماعة ودخلت البلاعة ، فكشفوا عن وجه الأرض ستر خدرها ، فوجدوا الأموال كما هى فى قدرها ، فأخذوها واللؤلؤة وأخرجوها ، وقصدوا باقى القرطين واقتسموها .

وجماعة تيمور أيضاً كذا كانت ، وكل معضلة من القضايا إذا وصلت إليهم هانت ، وكل منهم كان على دين ملكه فى فنها إلى غايته عرج ، فإن كنت محدثاً عن أحوالهم وأخبارهم فحدث عن البحر ولا حرج .

فصل

يحكى لى أن واحداً منهم من أهل الذكاء والكيـد أراد فى فصل الشتاء التـنزه، فقصد الصيد فأخرج مركوبه وهو بقرة، فشد عليها سرجه، وهو خشبة متكسرة غزرة قضيب مدور وحزامه حبل مـبتر، وتـجمل بلباسه وهو جلد فـروة منهوش، وبتاجه وهو طرطور من لبد منقوش، وشد كـنائه وهى جلود ممزقة ومشدودة بحبل، وعليها خروف ملزقة سهامها قد التوت وحنيتها قد استوت، ومعه بازى قد نتف القرباص ريشه، وقلع عن حقل بدنه زرع خوفيه وحشيشه، ثم ركب جواده وحمل بازيه وقصد اصطياده، فرأى جماعة من البط على ساحل غدير حط، فرفع يده بالبازى ساعة حتى عاين تلك الجماعة، ثم وضع يده بخفض، وأرسل البازى على الأرض، فصار يحجل رويداً، قد أضمر للبط كيداً، إذ لم يكن له قوة الطيران، ولا جناح عليه به يستعان، فوصل إلى الطير بسكون، وهى أأمن ما تكون، لأنها لا توقع البلاء إلا من جهة السماء، فدخل بينها فما نفرت منه، ولا هربت منه، فلم يشعر إلا وقد وثب على واحدة وفلذها، فأدركه صاحبه وأخذها.

ولما رحلوا عن دمشق، وقد مشقوا أوراق نعمها من أغصان وجودها أى مشق، كان مع بعضهم بقرة نهـبها وحملها ما أخذه من الأموال التى سلبها، وأركبها أسيره وسار بها مدة يسيرة، فبعد سيرها يومين أو ثلاثة قلقت، ونادت بلسان حالها أنها ما لهذا خلقت، فلما لم تجد مشكياً مما شكت، توكلت على الله وبركت، فأنزلوا الراكبة عنها، وصاحوا عليها فلم تقم فحلوا أحمالها وضربوها فلم تتحرك، فأوجعوها ضرباً وأشبعوها لعناً وسباً، وتلك المباركة باركة فأدموها وهم يضربونها، إلى أن كادوا يهلكونها، فمن شاحط

بمقدمها، ومن جاذب بمؤخرها، ومن متعلق بقرنها، ومن متشبت بأذنها، وهى جائمة مثبته فيل أبرهة، فعجزوا عنها وأيسوا منها، فبينما هم على ذلك، وقد ضاقت عليهم المسالك، وإذا هم بشيخ كوسج، كأنه شجرة عوسج، قد سلك المشارق والمغارب، ومرت به أنواع التجارب، وقاسى برد الأمور وحرها، وذاقحلوها مرها، وعرف خيرها وشرها، مربهم وهم كربهم، فلما رأهم أسارى عاجزين حيارى سكارى وما هم بسكارى، قال تنحوا عنها أى جنة، ثم دنا منها دنو الراقى من ذى جنة، وأخذ كفًا من تراب أنعم من عيش الشباب، ثم قبض على قرنها وصبه فى أذنها، ثم هز رأسها فى مناخها، حتى وصل التراب إلى مناخها، فوثبت قائمة وهى من ذلك الرغام، وجعلت تنفض رأسها وزادت اضطرابها ومشاسها، وطلب المسير وكادت تطير، فأعادوا عليها أحمالها وزادوا أثقالها، فصارت تلك البليها تعدو ولا يقدر عليها.

وكان فى عسكره من الترك عبدة الأصنام، وعباد النار من المجوس الأعجام، وكهنة وسحرة وظلمة وكفرة، فالمشركون يحملون أصنامهم والكهان يشجعون كلامهم، ويأكلون الميتة والدم المسفوح، ولا يفرقون بين مخنوق ومذبوح، وناس حزاءون ورواجز خراصون ينظرون فى ألواح الضأن ويحكمون بما يرون فيها على أحوال كل مكان، وما حدث فى كل بقعة من الأقاليم السبعة من الأمان والخوف والعدل والحيف والرخص والغلا والسقم والشفا، وسائر ما يكون فلا يكادون يخطئون، ولهم أيام وشهور وأعوام، كل عام منسوب إلى حيوان يحسبون بها ما مضى من السنين فلا يتافى فيها زيادة ولا نقصان.

وفى الخطا لهم خط يسمى دلبرجين، رأيت حروفه أحداً وأربعين،
وسبب زيادته أنهم يعدون التفاحيم والإبالات حروفاً وكذلك البين وبينات،
فيتولد الزوائد، فكل حرف رائد. وأما الجغتاي فلهم قلم يسمى أويغور، وهو
بالقلم المغولى مشهور، وعدته أربعة عشر حرفاً، وسبب نقصانه وانحصاره
فى هذا العدد أن حروف الحلق يكتبونها على هيئة واحدة، وكذلك تلفظهم
بها، ومثل هذا الحروف المتقاربة فى المخرج مثل الباء والفاء، ومثل الزاء
والسين والصاد، ومثل التاء والذال والطاء، وبهذا الخط يكتبون تساويعهم
ومراسيمهم ومناشيرهم ومكاتيبهم ودفاترهم ومخاريمهم وتواريخهم وأشعارهم
وقصصهم وأخبارهم وسجلاتهم وأسعارهم، وجميع ما يتعلق بالأمور
الديوانية والثور الجنكيزخانية، والماهر فى هذا الخط لا يبور بينهم لأنه مفتاح
الرزق عندهم.

- فصل

وكما كان فيهم من جبل على الفظاظه والقسوة والغلاظة، ومن هو
قليل الرحمة بل وعديم الإسلام كفرة فجرة، أوغاد أندال طغام أغتام، قد
اتخذوه من دون الله هادياً ونصيراً، واستكبروا به فى أنفسهم وعتوا عتواً
كبيراً، استجرهم كفرهم وحبهم إياه إلى أنه لو ادعى النبوة أو الإلهية لصدقوه
فى دعواه، كل منهم يتقرب إلى الله تعالى بیره ينذر له إذا وقع فى شدة وفى
بنذره، واستمر على اعتقاده الباطل وكفره مدة حياته وبعد موته، تنقل النذور
ويتقرب القربان إلى قبره، وكأن ترقى معه فى المصاحبة حتى وصل إلى مقام
المراقبة.

قل إنه كان فى السفر فرأى واحداً من العسكر، كان الكرى عطف

رقبته أو السرى أمال شقته، أو على حال لا يتوجه عليه فيها لوم ولا عتب، فضلاً أن يترتب عليه ضرب أو سب، فقال تيمور ترى ما تم أحد قاطع يقطع رأس هذا الفاعل الصانع، ولم يزد على هذا الكلام فسمعه واحد من أولئك الكفرة اللثام، اسمه دولت تيمور، وهو أمير كبير مشهور، قد ألبسه الله ثوب النعمة، ولم يشمه شيئاً من روائح الرحمة، ففى الحال سل رأسه من بين كتفيه، وحمله إلى تيمور ووضع بين يديه، فقال تيمور ويلك ما هذا الأمر إلا قطع، فقال هذا الرأس الذى أشرت أن يقطع، فأعجبته هذه العبارة وابتهل بأن أمره يمثل بأدنى إشارة.

كان فيهم الظرفاء والأدباء والأذكياء والشعراء، ومن هم فى الفضل أعلام وعلماء، وفيهم المحقق والباحث فى العلوم والمدقق، ومن شارك فى كل العلوم وبحث فيها بحثاً شافياً من طريقى المنطوق والمفهوم، ويقرر مذهب الصوفية وإحياء العلوم، ومع هذا فبعضهم يمضى على مقتضى ما علمه، وكان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة، وبعضهم كان مع رقة الحاشية واللطافة الفاشية، والعلم الوافى والظرف السافى، والجمال الفائق والكمال الشائق والكلام الرائق، قلبه أقسى من الحجر، وفعله أنكى من ضرب الصارم الذكر، يقولون من خير قول البرية، ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وإذا وقع مسلم فى مخالهم أو ابتلى غريب بتعذيبهم صنف ذلك العالم المحقق، والخبر المدقق فى استخراج المال، أنواع العذاب وأصناف العقاب، واستحضر فى فنون تعذيبه كتباً ومسايل، وسرد فى علوم تثريه خطباً ورسائل، فيصير ذلك المسكين يتكوى ويستغيث ويتلوع ويستجير بالله وآياته، ويستشفع بكل ما فى أرضه وسمواته من ملك ونبى وصديق

وولى، وذلك المليح يضحك ويتظارف ويتمايل ويتلاطف وينشد لطائف
الأشعار ويتمثل بظرائف النوادر والأخبار، وربما تحرق ويكى وتأوه لما يفعل
بذلك من التعذيب وانتكى، وصار كبعض قضاة الإسلام المستولى على مال
الأيام يخطب ويكى، وفعله فى قلوب المسلمين ينكى، لما كانوا فى دمشق
دخلوا إلى بيت واحد من الأعيان بزقاق العجم، وإذا هو مملوء من النفائس
والخيرات والنعم.

قصر تحية وسلام خلعت عليه جمالها الأيام

فقبضوا على صاحب ذلك المنزل وربطوه، وبأنواع العذاب والعقاب
عذبه، ثم أحكموا رجله شداً وعلقوه، واستخرجوا النفائس واستحلوا من
حسانها العرائس، وأحضروا لذيذات المطاعم والمشارب، وقضوا من التفكه
والتنعم، بما لهم من مآرب، وجعلوا يأكلون ويشربون ويلهون ويطربون، وإذا
تحرك فى واحد منهم الخبث، أو تمل وأخذ فى سكره العبث، عمد إلى ذلك
المسكين، وهو فى شدة النكاد فسقاه الماء والملح، وسقفه الكلس والرماد،
وكان فيها عالم متكشف عن تناول المسكرات متعفف كما قيل:

عجبت عن شيخى ومن زهده وذكره النار وأهوالها
يكره أن يشرب من الفضة ويشرب الفضة أن نالها

وكانوا أداروا القدح المزعفر، أحضروا له السكر المكرر، ووضعوا له فى
صنى الخوافق، وصبوا عليه الماء الرائق، فيسكرون هم بالأقداح القوادح،
ويسكر ذلك الفاسق المحروم من الروائح، ثم يتوجه إلى صاحب المنزل
ويضحك عليه وهو فى أشد ما يكون من العذاب، ويسخر منه ويهزل، ثم
يتمايل على صوت الثانى والمثالث، ويتناول من تلك المآكل والمشارب، ويقول

بشر مال البخيل بحارث أو وارث، وكان في عسكره كثير من النساء يلجن معامع الهيجا ووقائع البأساء ويقابلن الرجال، ويقاتلن أشد القتال ويصنعن أبلغ ما يصنع الفحول من الرجال في النزال، من طعن بالرمح وضرب بالسيف ورشق بالنبال، وإذا كانت إحداهن حاملاً وأخذها وهم سائرون أطلق تنحت عن الطريق واعتزلت الخلق، ونزلت عن دابتها ووضعت حملها ولفته وركبت دابتها وأخذته ولحقت أهلها، وكان في عسكره ناس ولدوا في السفر، وبلغوا وتزوجوا وجاءهم أولاد ولم يسكنوا الحضر، وكان في عسكره ناس صلحاء عباد ورعون زهاد أجواد، إيجاد لهم في الخبرات أوراد، وفي وردها إصدار وإيراد دأبهم خلاص مأسور، أو جبر مكسور أو إطفاء حريق أو إنقاذ غريق، أو اصطناع معروف أو إغاثة ملهوف مهما أمكنهم، ووصلت إليه يدهم، إما بقوة وأيد، وإما بنوع خديعة وكيد، وإما باستيهاب واستشفاع أو تعويض وابتياح، وكانوا سائرين معه بالاضطرار، أو دائرين معه لهذه المعاني بالاختيار.

حكى لى مولانا جمال الدين أحمد الخوارزمي أحد القراء المشهورين المجودين، وكان إمام محمد سلطان في حياته وإمام مدرسته بعد وفاته، ثم خطيب بروسا وبها أدركته المنية سنة أحد وثلاثين وثمانمائة رحمه الله تعالى، قال كنت في سمرقند في مدرسة محمد سلطان أعلم ممالكه، وأولاد الأمراء القران، فأرسل إليه جده الظلوم وهو متوجه إلى بلاد الروم أن يتوجه إليه ويفد هو والأمير سيف الدين عليه فامتثل ما به أمر وأخذ في إعداد أهبة السفر، وقال هي مرافقك وأقطع علائقك، وخذ أهبة سفرك واعمل مصلحة رهطك ونفرك، ووافقنا في المرافقة، فإن من حسن المرافقة الموافقة. فاستغفيتها

من الذهاب وفتحت له فى سد خوخة السفر كل باب، فقلت له يا مولاي أنا رجل من أهل القرآن والقافة، ما لى بفتح باب السفر من طاقة، لأنى ضعيف البنيان رخو الأركان، لا جلد لى على الحركة، وإن كان فى صحبة مولانا الأمير كل خير وبركة، خصوصاً على هذا السفر البعيد الشقة الكثير المشقة، ومع كونى ليس على ذلك من طاقة، لا جمل لى فى مناخ السفر ولا ناقة.

وأما أنتم فالسفر عليكم حتم لازم وحق ملازم، لا يسعكم فيه التخلف ولا يفسح لكم فيه المظل والتسوف فلم يعفى، وتعلل لى بعلل عللتى فيها، ولم يشفنى فلم أر بدءاً من الاستعداد وتحصيل الرفيق والزاد، ثم سرنا حتى وافينا جده، وقد ركب فى الجادة جده وجده، ورأينا من تلك العساكر بحاراً لا أول لها ولا آخر، أن انفرط أحد من سلك جماعته وظل معتزلاً عن سنيين سته، لا يصل إليهم بالسرج الشمع، ولا يهتدى إلى سنة جماعته، إلا أن كان يوم الجمع، فبينما أنا معهم أسير وقد وهن منى العظم الكسير، وأثر فى التعب وأخذ منى النصب والوصب، ومللت السرى وعدمت الكرى، نفضت يدى من الرفيق وأخذت على فجوة من الطريق، فلما أن خلوت هنيئت بالقرآن العظيم وتلوت، ثم استهوانى الذوق والشوق، فحلقت بمراشيق حلقي إلى فوق، وكان أطيب من رقيق المقطوع، على رخيم الموصول وألذ من شمول على كأس شمول، بنسيم الشمال معلول، وبرضاب الحبيب مشمول.

قال وإذا برجلين ضعيفين كالعود البالى نحيفين أشعثين أسفرين، ذوى طمرين أغبرني بصرانى عن جنى، وعلقا بى علوق والوتد بالطنب، فجعلنا يراقبان أحوالى ويستمعان أقوالى، فلما زمزمت زمزمتى كفتت هنيئتى وسمت فى خزانة صدرى جواهر كالأمانى. وختمت بطابع دعاى زواهر

آياتي، بكيا لمناجاتي وأمنا على دعواتي، ثم أقبلنا نحوى وسلمنا واهتزنا لما سمعناه من تلاوتي وترنما، وقال أحيا الله قلبك، كما أحيت قلوبنا ومحوت بما سطرت في ألواح صدورنا بحسن تلاوتك ذنوبنا، ثم إنهما أنساني بالخطاب وجارياني بالسؤال والجواب، وإذا هما من صميم الجفتاي وخالص عسكر تيمور، ومن ضيضي التتار وشنج الفتن والشرور، ثم سألاني عن نجاري ووجاري، وعن رفيقي في هذا الفسر وجاري، فأخبرتهما عن مولدي ومحتدي، ومسقط رأسي من بلدي، وإني من أهل القرآن، وإني مع محمد سلطان، فقالا لي يا سيدنا الشيخ إنما جئنا إليك لتحسن إلينا، وإنا سائلوك عن شيء فلا تحد فيه علينا، فقلت قولا وطولا فلن تجداني ملولا، فقالا يا مولانا هذا شيء يعيننا، وإن كان قد عنانا فكل من اشتغل بما لا يعنيه فقد ترك ما يعنيه ووقع فيما يعنيه.

ومن لم يعرف الخير من الشر يقع فيه

فبالله يا سيدنا قل من أين تأكل، فقلت: على خوان محمد سلطان، فقالا: مأكول هذا العسكر حلال أم حرام ووبال، فقلت: الغالب عليه الحرام بل كله والله مظالم وآثام، لأنه من التاراج والنهب والغارات والغصب والاختلاسات والسلب، فقالا: والله يا إمام لقد أسأنا الأدب رذ واجهاك هذا الكلام، ولكن أنتم أهل العلم شيمتكم العفو عن الجاني والحلم، وأنتم أولى بجبر الكسير وفك الأسير وتيسير الأمر العسير، فقابل منا هذا الفحص بالصفح، ولا تعامل هذا الإلحاف باللفح.

فقلت: سلا ولا تسلسلا، فقالا: نسألك بالله الذي اصطفاك بخزن كلامه الذي تعبد به عباده، وبين لهم فيه معالم حلاله وحرامه، لا تؤاخذنا بما

تهجمنا عليك به، فإن الشيخ المرشد كالوالد الشفوق لا يؤاخذ ولده بقلة أدبه، فقلت: كلا سلا ما شئتاً وسلسلاً مهما أردتما، فقالا: يا سيدنا أما كان لك من مندوحة عن مرافقة هؤلاء اللثام والتعفف بالحلل استغناء عن الحرام، فقلت: إنى دخلت فيهم وأنا مضطر، وخرحت معهم وأنا كاره مجبر، وأكرهنى محمد سلطان وحيانى بما حيانى من الإحسان، فصحبتهم وعين ذاتى من كحل الراحة مرهى، وحملتني فرسى فى سفرى كرهاً ووضعنى كرهاً، فقالا: أرأيتك لو امتنعت عن الخروج أكانوا يريقون دمك ويأسرون أولادك ويسبون حرمك، فقلت: لا والله حاشا لله، فقالا: أكانوا يجسبونك ويضربونك وفى مقام المصادرة يجلسونك، فقلت: أنا أ منع جناباً أن يسمونى خسفاً وعذاباً لأنى حافظ القرآن، والقرآن حافظى من هذا الخسران.

قالا: فغاية فعلهم معك إذا رأوا تعززك وتمنعك أنهم كانوا يشتمونك ويعمدون إلى معلومك فيقطعونك ويسخطون عليك، ويمنعون برهم الواصل إليك، قلت: ولا كانوا يفعلون كذا وتعزىزى ومنعنى ما يحط من مكاتى عندهم إلى هذا الأذى، ولكنهم حايونى فاستحييت وخادعونى فانخدعت، وليتنى أبيت. قالا: لا يصلح هذا لك عذراً وحجة ولا يسلك بك إلى صحة الاعتذار بين يدى الله تعالى سواء المحجة، فهلا جلست فى مكانك، واشتغلت بتلاوة قرآنك ومطالعة علمك ومباحثة إخوانك، ووقرت بدنك عن الكلال وملأت بطنك من الحلال، واحتميت فى حمى دينك عن هؤلاء اللثام، واسترحت من الاضطراب إلى تناول الحرام، مع أنا سمعنا من أمثالكم ما قد ضرب فى أمثالكم أهل القرآن وقاصته أهل الله وخاصته، وأنهم عنقاؤه بين خلقه، وببركاتهم أدر سحاب رزقه، وإن السلاطين ملوك الناس أجمعين،

وأنكم أنتم ملوك الملوك والسلاطين، وإذا أعتقكم الله وأعفاكم الناس وصرتم الإنسان العالم بمنزلة القلب والكبد والرأس، ولم يبق لأحد عليكم سلطة، ثم ألقىتم أنتم أنفسكم بأيديكم إلى هذه الورطة، وتهافتم على التهالك تهافت الفراش على النار، وتشبثتم مع كونكم قادرين على الخلاص بذيال الضر والاضطرار، فكيف يصح هذا الاعتذار، وأنى ينجيكم هذا العذر من الملك الجبار، وهل صرتم إلا كما قيل:

معاشر القرا يا ملح البلد ما يصلح إذا الملح فسد

فقلت: أما إذا حررتما القضية فكلنا في هذه المصيبة سوية.

بى مثل ما بك يا حمامة فاندبى وقيل بى ما بك يا حمام البان

أنا بالقدود وأنت بالأغصان

فبكيا وانتحبا وتأوها والتهبا وتنفسا تنفس الصعداء وقالوا: وأين ما بين قصتنا وقصتك فى المدا، فورب الخافقين إن بين القصتين لبعد المشرقين، ولكن ما للمقال مجال، وما كل ما يعلم يقال، وأين السر من الإعلان، وإن الحيطان لها أذان. فقلت: هذا أيضاً ليس بحجة فلا تعدلا عن سواء المحجة. فقالوا: نحن المضطرون جبراً المأخذون قهراً وقسراً، وإنا مكتوبون فى الديوان، مضافون إلى واحد من أعيان الأعوان، إذا ورد علينا مرسوم بالبروز فى يوم عيد مثلاً أو نوروز، ويكون الخروج وقت الظهر وتأخر منا واحد إلى وقت العصر، لم يكن له جزاء فيما ارتكبه إلى الصلب أو ضرب الرقبة، فضلاً عن ضرب وشم وشناعة، أو دفع عدل أو تقويم شفاعة، وأين أنت عن قعودنا أو تخلف أو استتار بذيل توار أو توقف، فنحن مدا الدهم لمثل هذا مستوفزون، وعن مثل أضرابنا من هذا البلاء متحرزون مصيخون أبداً لما أشار، وما أمر

عاملون بمقتضى رحم الله عن رأى العبرة فى غيره فاعتبر، وبنا لينا أمكننا التحويل عن مملكته والرحيل عن إقليم ولايته وسلطته.

وكيفلنا بذلك وهى مسقط رأسنا ومحل أناسنا ومحط إيناسنا وإيلاف رحلتنا مزدروعات معيشتنا ومدرج أبائنا ومسخرج أبائنا ومقام قبائلنا وعشائرننا، ومثابة قاطننا وغابرننا، ولو غاب من هوام قبائلنا جددج فضلاً عن بلبل أو هدهد لجحف الباقيين سيل الظل والحيف، ولتحكم فى رقاب سائرننا صايل الموت بالسيف، فأما إذا برزنا وعزمننا على المسير معه وتجهزنا، فنسأل كم سنة نغيب، وأى جهة يريد ذلك المريد المريب، فنأخذ أهبتنا لذلك المقدار، وكل منا ابن عم الآخر وجار، وله جرابه فيه سويقه، ومعه كلفة نفسه وفرسه وعليقه، يصوم مدى الدهر ويفطر على ما يسد الرمق، ويلبس ما يستر العورة من رث الثياب والخلق، كل ذلك من زرع أيدينا وكدنا، وما بد لنا فيه من عرق جبيننا، والحلال غاية جهدنا، لا نتعرض لمال أحد ولا لعرضه، ولا نقف فى طريق إبرامه ولا نقضه، ولا لأحد عندنا نشب ولا بيتنا وبين أحد غلاقة ولا سبب، ولكن يا مولانا البلاء الطام والمصاب العام، ثم رقصا رءوسهما يميناً وشمالاً وارتعدت فرائصهما هيبة وجلالا وبيضت شفاهما واستودت جباههما وأخذا فى البكاء والعيول وانتحبا الانتحاب العريض الطويل، فوالله لقد ذابت نفسى لديهما واستغرت كبار الماسيخ بالنسبة إليهما، وتفكرت فيما عما من شدة الأمر، وعلمت أنهما هما القابضان بكفيهما على الجمر، ثم تأوهمت آخاً بعد آه، وقلت بالله يا إخواناه وما هذا البلاد الطام والمصاب العام الذى ذكرتما.

قالا: خيولنا ومواشينا وحواصل مهادنا وغراشينا، نرفق بها فى

التحميل، وما نركبهما إلا وقت الإعياء فى الرحيل، وأمر قصتهما قصم
 ظهورنا وأعجز أمورنا واضطربنا إلى الخوض فى دماء المسلمين وأموالهم،
 وألجأنا إلى رعى زرعهم وتحمل وبالهم، وما ندرى كيف المخلص، وأنى
 ننجوا من ذا المقنص، فبالله يا سيدنا الشيخ عل تجدد لنا فى هذ الأمر الغالى
 رخصة أو هل من قطرة برود تطفى هذه الحرارة، وتسكن شرق هذه الغصة،
 فقلت لا والله عناية الله وأيم الله لقد أشبعتمانى شراً وجرعتمانى صبراً
 ومقراً، وأوسعتمانى نكدًا وضرراً، وكان هموم ما بى من نصبى وعذابى
 يكفينى وإلى يرم تكفينى، فقد زدتما بلاءً على بلائى، وعناءً على عنائى،
 فبالله من أنتما؟ وما أسماؤكما؟ وفى أى قطر أرضكما وسماؤكما؟ ومع من
 أنتما فحييتما ما حييتما؟ فخرانى ولا تحيرانى لأجىء فى كل وقت إليكما،
 وأفوز بالسلام عليكما.

فقالا: يا مولانا الحمد لله الذى برؤيتك حيانا، إن معرفتنا لا تجذيك
 شيئاً ولا تبرك، وعدم المعرفة بنا لا يؤذيك ولا يضررك، والغالب على ظننا يا
 مولانا بعد اليوم لن ترانا، وإن قدر اجتماع فنحن نسعى على رؤوسنا إليك،
 وخليفتنا الله والسلام عليك، ثم ودعائى وما وقفنا، وأودعائى أليم الفراق
 وانصرفا.

هذا من البحر قطرة، ومن الطود ذرة، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن
 يصون عن الزلل أقوالنا، وعن الخطل وأفعالنا وأحوالنا، وحسبنا الله
 ونعم الوكيل.

الفهرست

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
فصل فى ذكر نسبه وتدرىج استيلائه على الممالك	٧
ذكر عبوره جيحون على فترة وما جرى من عبرات بهذه العبرة	١٥
ذكر ما جرى له من خبطة فى دخوله إلى قرشى وخلاصه من تلك الورطة	١٦
ذكر من أسر فى فتنة ذلك الجاف واستعبده من أحرار ملوك الأطراف	١٧
ذكر نهوض المغول على السلطان وكيف تضعضعت منه الأركان	١٨
ذكر الحيلة التى صنعها والخديعة التى ابتدعها	١٩
ذكر توجهه إلى بلخشان واستنصره بمن فيها على يد السلطان	٢٠
ذكر وثوب توقتاميش خان سلطان الدشت وتركستان	٢١
ذكر على شير مع تيمور وما وقع بينهما من المخالفة والشروع	٢٣
ذكر ما جرى لزعار سمرقند والشاطار مع تيمور وكيف أحلهم دار البوار	٢٤
فصل فى تفصيل ممالك سمرقند وما بين نهري بلخشان وخجند	٢٧
ذكر ابتداء ما فعله من التسلط بالنهر بعد استقصائه ممالك ما وراء النهر	٢٨
ذكر تصميمه العزم وقصده الأطراف وأولا ممالك خوارزم	٢٩
ذكر عوده ثانيًا إلى خوارزم	٣٠

- ٣٠ ذكر مراسلته ملك غياث الدين سلطان هراة الذى خلصه من
الصلب ورادد فيه أباه
- ٣٢ ذكر اجتماع ذلك الجافى بالشيخ زين الدين الخوافى
- ٣٤ ذكر عوده إلى خراسان وتخريبه ولايات سجستان
- ٣٥ ذكر قصد ذلك الغدار ومالك سبور وانقيادها إليه وقدم واليه
إليه
- ٣٥ ذكر ما جرى لذلك الداغر فى سبروار مع الشريف محمد رأس
طائفة الدعار
- ٣٨ ذكر مراسلة ذلك الشجاع سلطان عراق العجم أبا الفوارس شاه
شجاع
- ٤٢ ذكر توجه تيمور مرة ثالثة إلى خوارزم بالعساكر العابثة العايثة
- ٤٤ ذكر توجه ذلك الباقعة إلى خوارزم مرة رابعة
- ٤٤ ذكر ما كان ذلك الجان راسل به شاه ولى إلى أمير تمالك
مازندران
- ٤٥ ذكر مراسلة شاه ولى سلاطين العراق وما وقع فى ذلك من
الشقاق وعدم الاتفاق
- ٤٦ ذكر ما جرى لأبى بكر الشاسبانى من الوقايا مع ذلك الجانى
- ٤٨ ذكر توجه تيمور إلى عراق العجم وخوض شاه منصور غمار
ذلك البحر الخضم
- ٥٠ ذكر دقيقة قصدت فجلت ونقضت ما أبرمه شاه منصور من
عقد حين حلت

- ٥١ ذكر ما نقل عن شاه منصور مما أوقع بعسكر تيمور من الحرب
والويل تحت جنح الليل
- ٥٦ ذكر ما وقع من الأمور والشرور بعد واقعة شاه منصور
- ٥٧ ذكر ما صنع الزمان عند حلوله بأصبهان
- ٦٠ ذكر ضبطه طرف المغل وجتا وما صدر منه فى تلك الأماكن
وأنا
- ٦١ ذكر عود ذلك الأفغوان إلى ممالك فارس وخراسان وفتكه ببلوك
عراق العجم واستصفائه تلك الولايات والأمم
- ٦٨ سبب دخوله إلى عراق العرب وإن كان إيذاؤه لا يحتاج إلى
علة وسبب
- ٦٩ ذكر سكون ذلك الزعزع الثائر وهدوء ذلك البحر المائر لتطمئن
من الأطراف فيحطمها كما يريد ويدير بها الدوائر
- ٦٩ أنموذج مما كان يغور ذلك الظلوم الكفور من عساكره فى بحور
ويغوص على أمور
- ٧٢ ابتداء تخريب ذلك الخرب أذربيجان وممالك عراق العرب
- ٧٤ صفة قلعة النجاء
- ٧٧ ذكر أخبار صاحب بغداد وأسماء آبائه والأجداد وكيفية دخوله
إلى هذه البلاد
- ٧٩ ذكر ما افتعله من الخديعة والمكر فى بلاد أرزنجان وديار بكر
- ٨٠ ذكر ما جرى لسلطان ماردين عيسى الملك الظاهر من المحنة
والبلاء مع ذلك الغادر الماكر

- إيضاح ما أخفاه من الحيلة وخلود زيد تلك الأفكار الويلة ٨٣
- ذكر رجوعه من ديار بكر والعراق وتوجهه إلى مامة قفجاق ٨٨
- ووصف ملوكها وممالكها وبيان ضياعها ومسالكتها
- وصول ذلك الطوفان وجحفه أمم الدشت بعد كسره توقتاميش ٩٥
- ذكر ما وقع من الخلاف في عسكر توقتاميش وقت المصاف ٩٦
- ذكر إيدكوا وما صنع وكيف خلب تيمور وصدعه ٩٨
- قصة ما جرى في نواحي الشمال بين توقتاميش وإيدكوا من ١٠٠
- الجدال والقتال إلى أن تغير أمر كل منهم وجال
- رجعا إلى ذكر من أمور تيمور ودواهيته ١٠٣
- ابتداء ثوران ذلك التيام فيما يتعلق بممالك الشام ١٠٤
- ذكر ما أجاب به السلطان أبو يزيد للقاضي برهان الدين أبو ١٠٦
- العباس سلطان ممالك سيواس
- ذكر توجهه العساكر الشامية لدفع تلك الداهية ١١٠
- ذكر رجوع ذلك كنود وقصده استخلاص بلاد هنود ١١٠
- ذكر ما فعله ذلك المحتال في خديع وصبر في أجفان الأفيال ١١٢
- وصول الخبر إلى ذلك المعقوق بوفاة الملكين أبي العباس أحمد ١١٥
- والملك الظاهر برقوق
- ذكر معنى كتاب وفد وهو في الهند عليه زعموا أن ولده ١١٧
- أميرانشاه المذكور راسله، وأنهى إليه
- ذكر ما وقع من الثمن والبدع وما سل للشور من -سام بعد ١٢٢
- موت سلطان سيواس وأقام

- ١٢٣ ذكر نبذة عن أمور القاضى وكيف استيلائه على سيواس وتلك الأراضى
- ١٢٦ ذكر محو قرابلوك عثمان آثار أنوار برهان الدين السلطان
- ١٢٧ ذكر ما كان نواه قرابلوك من رأى المصيب ورجوعه لسوء طويته بشيخ نجيب
- ١٣٠ ذكر ما وقع من الفساد فى الدنيا والدين بعد قتل قرابلوك السلطان برهان الدين
- ١٣١ مشاوره الناس من أهل سيواس أنى يسلكون ومن يملكون
- ١٣٣ ذكر قصد ذلك الغدار سيواس وما يليها من هذه الديار
- ١٣٤ ذكر انسجام صواعق ذلك البلاء الطام من غمام الغرام على فرق مالك الشام
- ١٣٦ ذكر ما أرسل من كتاب وشنيع خطاب إلى النواب بحلب وهو فى عين تاب
- ١٣٧ ذكر ما تمألاً عليه النواب وهم فى حلب وتيمور فى عين تاب
- ١٤٠ ذكر ما صبه من صواعق البيض واليلب على العساكر الشاميه عند وصوله إلى حلب
- ١٤٣ زيادة إيضاح لهذه المحنة مما نقلته من تاريخ ابن الشحنة
- ١٥٠ ذكر ورود هذا الخبر الذى أقلق ووصول استنبوغا الدوادار وعبد القصار إلى جلق
- ١٥٢ ذكر خروج السلطان الملك الناصر من القاهرة بجنود الإسلام والعساكر

- ١٥٦ ذكر واقعة وقعت ومعركة صدعة لو أنها نفعت
- ١٥٨ ذكر ما افتعله سلطان حسين ابن أخت تيمور من المكر والمين
- ١٥٩ ذكر ما نجم من النفاق بين العساكر الإسلامية وعدم الاتفاق
- ١٦١ ذكر خروج الأعيان بعد ذهاب السلطان
- ١٧٠ ذكر ما صنعه بعض الأكياس من الناس خوفاً من أن يحل بهم
الباس ووقى بنفائس النفوس والأنفاس
- ١٧٣ ذكر معنى كتاب أرسل إليه على يد يسق بعد ما فروا من بين
يديه
- ١٧٦ ذكر القائم النار في البلد لمحو الآثار
- ١٧٧ إقلاع هاتيك الرزايا وإقشاع غمام تلك الدواهي والبلايا عن
بلاد الشام بما تحمله من أوزار وخطايا
- ١٧٨ ذكر ما جرى في مصر وسائر الأقطار عند سماعهم هذه الأخبار
واستيفائهم هذه الأهوال والأخطار
- ١٧٩ ذكر ما أصيب من سهام القضاء بالرشق ووقع في مخاليب
أسره من أعيان دمشق
- ١٨٢ ذكر ما أباد بعده الجراد
- ١٨٣ ذكر وروده ماردين بالهيبة وصدوره عنها بعد المحاصرة بالخية
- ١٨٤ ذكر تركه المحاصرة العناد والمكابرة وتوجه بمارديه ذوي الفساد
عن ماردين إلى بغداد
- ١٨٦ ذكر ما فعله السلطان أحمد بن الشيخ أويس لما بلغه أنه توجه
إليه ذلك النجيس

- ١٨٩ ذكر رجوع ذلك الطاغ وإقامته فى قراباغ
- ١٨٩ ذكر مراسلة ذلك المريد سلطان الروم إيلدر أبا يزيد
- ١٩٣ ذكر طيران ذلك البوم وقصده خراب ممالك الروم
- ١٩٦ ذكر ما عزم ابن عثمان عليه عند انصباب ذلك الطوفان إليه
- ١٩٨ ذكر ما فعله ذلك الخداع المكار ونمقه فى تفخيده عن ابن عثمان جنود التتار
- ٢٠٠ ذكر ما صنعه ابن عثمان من الفكر الوبيل وتوجهه إلى ملاقة تيمور بعسكره الثقيل
- ٢٠١ ذكر ما فعله ذلك الساقطة مع ابن عثمان وعسكره من المغالطة
- ٢٠٥ ذكر ما وقع من الخياط بعد وقعة ابن عثمان فى ثغر ورباط
- ٢٠٧ ذكر أولاد ابن عثمان وكيف شتتهم وأبادهم الزمان
- ٢٠٩ ذكر ما فعله مع ابن عثمان من نكاية غدت بأوصافه القبيحة على مر الزمان حكاية
- ٢١١ ذكر وفود اسفنديار عليه ومثله سامعاً مطيعاً بين يديه
- ٢١٣ ذكر فتح قلعة أزميز وحتفها ونبذة من عجيب وضعها ووصفها
- ٢١٤ ذكر ما صنعه من أمر مروم وهو فى بلاد الروم من قصده بلاد الخطا واستخلاص ممالك الترك والجتا وافتكاره وهو فى الغرب مشغول فى استصفائه سائر ولايات الشرق والمغول وكيف عانده القضاء المبرم بنازل ألهب فؤاده وأضرم فصارفه الزمان وعكس عرضه وهذه كالجملة المعترضة

- ٢١٦ ذكر حلول غضب ذلك الصياد على الله داد ونفيه إياه إلى أقصى البلاد
- ٢١٧ أنموذج يدل على عمق ذلك البحر المحيط وما كان يصل إليه غواص فكرة البسيط
- ٢١٩ ذكر ما فعله ذلك المكار عند تنجيذه أمر الروم من الغدر بالتار
- ٢٢٣ ذكر ارتفاع ذلك الغمام بصواعق بلائه عن ممالك الأروام
- ٢٢٤ ذكر انصباب ذلك العذاب ماء ونارا على ممالك الكرج وبلاد النصارى
- ٢٢٧ ذكر سبب أخذه لهذا الحصن المنيع وبيان معاني ما جرى فى ذلك من صنع بديع
- ٢٣٠ تتمه ما جرى للكرج مع تيمور شيخ العرج
- ٢٣٠ ذكر طلب الكرج الأمان واستشفاعهم إلى ذلك الجانى بجارهم الشيخ إبراهيم حاكم شروان
- ٢٣٢ ذكر ثنى عناده إلى أوطانه وقصد بلاده بعد استكمال فساده
- ٢٣٤ ذكر نهوض ملوك الأطراف لاستقباله ووفودها عليه مهنية له بحسن ما ناله
- ٢٣٥ ذكر توزيعه التار أرسالا شرقا وغربا ويمينا وشمالا
- ٢٣٧ ذكر ما ابتدعه من منكرات وطبع بخاتمته خواتيم سيئاته ووافى . باستيفائه رائد وفاته
- ٢٤٦ ذكر بعد حوادث متقدمة لمترقات ذلك العايب

- ٢٥٠ ذكر عزمه كما كان على الخطا ومجيئه سكرة الموت بالحق وكشف عنه الغطا ثم انتقاله من سفره إلى سقره
- ٢٥٤ ذكر مرسوم أرسله إلى الله داد بث منه الأكياد وفت القلوب والأعضاء وزاد ما خيله فيه من هموم بأنكاد
- ٢٥٦ ذكر سبب انكسار ذلك الجبار وانتقاله إلى دار البوار واستقراره في الدرك الأسفل من النار
- ٢٦٥ فصل في ذكر ما وقع بعد وفاة تيمور من حوادث وأمور وما ظهر من سرور وشور
- ٢٦٥ ذكر من ساعده البخت واستولى بعد تيمور على التخت
- ٢٦٨ ذكر خلاص العساكر من البند وقبولهم مع عظامه إلى سمرقند
- ٢٦٩ ذكر ما أضمره وزراء تيمور وأخفاه كل منهم في التامور
- ٢٧١ ذكر وصول خليل سلطان بما ناله من سلطان إلى الأوطان
- ٢٧٢ ذكر مواراة ذلك الخبيث والقاءه في قعر الحدث
- ٢٧٣ فصل في اعتدال الزمان وأخبار خليل سلطان
- ٢٧٤ ذكر من أظهر العناد والمراء وتشبث بذيل المخالفة والعصيان من الأمراء والوزراء
- ٢٧٥ ذكر أخبار الله داد صاحب إشبارة وإخلائه إياها وقصده دياره وما صنع من تدبير الملك وآثاره قولاً وفعلًا وإشارة إلى أن أدرك في ذلك دماره وبواره
- ٢٧٧ ذكر ورود مكتوبين إلى الله داد من خليل سلطان وخدايداد تخالفت معانيهما وتصادمت. فحاويهما

- ٢٧٩ ذكر من خلفه الله داد بإشبارة من الطوائف وما وقع بعده بينهم
من التناكر والتخالف
- ٢٨٠ ذكر ما تم لالله داد مع خدايداد وكيف ختله وخلبه واسترق
عقله وسلبه
- ٢٨١ ذكر ورود كتاب من خليل فيه لفظ رقيق لحل أمر خليل
- ٢٨٣ ذكر لحوق الله داد لخليل سلطان وحلوله مكرماً معززاً في
الأوطان
- ٢٨٤ ذكر تنبه خدايداد بأن الله داد خلب عقله بأنكال وأنكاد
- ٢٨٥ ذكر ما وقع في توران بعد موته من حوادث الزمان
- ٢٨٧ ذكر نهوض إيدكوا التتار وقصده ما وراء النهر وتلك الديار
- ٢٨٨ ذكر بير محمد حفيد تيمور ووصيه وما جرى بينه وبين خليله
ووليّه
- ٢٩٠ ذكر تجهيز خليل سلطان سلطان بن حسين لمناصرته وخروجه
عن خليل سلطان وقبضه على أمرائه ومخالفته
- ٢٩١ ذكر خداع الله داد سلطان حسين وتلافيه تلافه بالمكر والمين
- ٢٩٣ ذكر أخذ سلطان حسين على الأمراء الميثاق ومشيه على خليل
سلطان وهم معه في الإيثاق
- ٢٩٤ تبريز خليل سلطان من سمرقنده لملاقاة سلطان حسين بطوائف
جنده ورجوع سلطان حسين مما يرومه بخفي حين
- ٢٩٥ بقية ما جرى لبير محمد مما قصده من فرح وهم وكيف إلى
ذلك إلى وبال وحزن فنقص ما تم

- ٢٩٦ ذكر مقابلة العساكر الخليلية جنود قندهار بصدق نية وألقابهم بهزيمتهم إياهم فى أشر بلية
- ٢٩٩ ذكر خروج عسكر العراق على خليل سلطان ومجاهدتهم بالخروج وقصدهم الأوطان
- ٣٠٠ ذكر ما فعله بير محمد بعد انكساره وما صنعه بعد وصوله إلى قندهاره
- ٣٠١ ذكر توجه بير محمد لمقابلة خليل سلطان ثانى كرة وما حصل عليه فى ذلك من كرة وفرة وتوليته الدبر كما بدأ أول مرة
- ٣٠٢ ذكر ما صنعه بير محمد من حيلة عادت عليه بأفكاره الويلة لأن جدواها كانت قليلة
- ٣٠٣ ذكر استراف بير محمد أنه ظلم وطلبه الصلح وإلقائه السلم
- ٣٠٤ ذكر مخالفة ونكد وقعت بين بير محمد أراحت ثوب الحياة عنهما وأراحت مخالفتهما منهما
- ٣٠٥ ذكر ما وقع من حوادث الزمان فى غيبة خليل سلطان
- ٣٠٥ ذكر تجريد خليل سلطان الأجناد وتوجهه إلى شيخ نور الدين وخدايداد
- ٣٠٦ ذكر إفساد شيخ نور الدين وخدايداد ناراً للخليل ليحرقاه فأطفأها الله تعالى ووقاه
- ٣٠٧ مفارقة شيخ نور الدين خدايداد وتقاسمهما تلك البلاد
- ٣٠٧ رجوع شيخ نور الدين إلى الاعتذار والتنصل عند خليله مما كان منه وصار

- ذكر أمر خليل سلطان ببناء ترمذ إلى خربها جنكيز خان وتجهيزه
العساكر لهذا الشأن ٣٠٩
- ذكر ما فعله شاه رخ من جهة خراسان وردة على ما فعله خليل
سلطان ٣١٠
- إشارة إلى ما حدث في أقاليم إيران وما جرى من سيول الدماء
عند نضوب ذلك الطوفان ٣١١
- ذكر خروج الناس من الحصر وطلبهم أوطانهم من ما وراء النهر ٣١٢
- ذكر ما آثار الزمان الغدار من دمار وبوار ألقى به الخليل في النار ٣١٣
- ذكر ما افتكره الله داد ودبره في مراسلة خدايداد ٣١٥
- ذكر ما قصده خدايداد من الكيد ووقوع خليل سلطان في قنص
الصيد ٣١٧
- ذكر ما جرى من الفساد بسمرقند عند قدوم خدايداد ٣١٩
- ذكر بلوغ هذه الأمور شهرخ بن تيمور وتلافيه تلك الحوادث
وحشمة مادة تلك العوالب ٣٢٠
- ذكر ما جرى بسمرقند بعد خروج الجنود الجندية وقبل وصول
الشواهين الشاهرخية ٣٢١
- تدور بدور الدولة الشاهرخية في سماء ممالك ما وراء النهر بعد
غروب شمس النوبة الخليلية ٣٢٢
- ذكر ما قصده خدايداد من إتمام النكد والفساد وكيف آل ذلك
النكال إلى أن جرى عليه وبال ٣٢٣

- ٣٢٤ تتمة ما جرى من خليل وخدايداد من المعاقبات وتأكيده العهد
والمودات إلى أن أدركهما هادم الذات
- ٣٢٥ ذكر عود خليل سلطان من ممالك إندكان وقصده عمه شاه رخ
ولعبه بالنفس مع ذلك الرخ
- ٣٢٧ فصل في صفات تيمور البديعة وما جبل عليه من شجيرة وطبيعة

